أحمد العبودي

رواه الترمذي

صحيفة بني العباس

رواية

مكتبة الحبر الإلكتروني
@bookkn
@dl10d

المصري للنشر والتوزيع

رواه الترمذي : صحيفة بني العباس

أدهم العبودي

تم تحويل الكتاب الى الصيغة النصية بواسطة :

مكتبة الحبر الإلكتروني

أسعد الكناني

إهداء

إلى مي ومحمود وميس..

هؤلاء الذين تثابتوا فيما كنت أتهاوي، فأقاموني من جديد.

كم من شمس أفلت ولم تترك أثرًا سواي!

أوشك على الأفول وليس من أثر إلا أنتم.

وبعضٌ ممّا أرِّخَ –معْ ذلك- يحتَمِلُ التَّأويل.

ترمذ- 279 هـ

«ما أجْمَلَهُ! كأنَّ لا غِياب ولا موت!».

يداولون فيما بينِهم مثْل الذي علَى شغفٍ، علَى إكبارٍ، فضلًا عنْ الرّهبة، في حين يتحلّقون جثمانَه، يستعذبون التّحديقَ إليه علَى غير تحكّمٍ، وعلَى هذيانٍ، يهمسون في أذنِه، كالمجاذيبِ إنْ استدْفَئوا ضريحَ مولاهُم ذات صقيعٍ أحاطوه وتبرَّكوا وأسَرُّوا له كلٌّ علَى إفرادِه.

تُرَى أيُبَعث إليهم ثانيةً؟! أوليستْ تؤتَى المستحيلات لمثلِه؟!

يبدو حضورُه كالنُّورِ إذا استرسلَ للأعينِ واستدرجَ الأبصارَ، «أهو ميّتٌ؟!».

الأبصارُ تنغمس في الأديم المشعّ، تتيه، ترحل معه مشدوهةً، بحيث يتساءلون: «كيف لميّتٍ أنْ يضوّي وجهُه علَى مثْل هذا البهاء؟!»، ومِنْ ثَمَّ يطالعونه، لا يسيطرون علَى حواسِّهم، وقدْ بَدوا لا يكتفون مِنه، كأنَّه الإعجازُ في جوهرِه.

لا يُمكن فضُّ الجموعِ التي أقبَلتْ ولا صرف المريدين والتّلاميذ والسّابلة كي يفرغ المُغسِّلون لتهيئةِ الجثمان للدّفنِ، أولئك هرولوا عنْد سماع النّبأ، وتوافدوا كسيلٍ منفلتٍ مِنْ سائرِ أطراف البلدةِ، ثمَّ سرعان ما امتلأت البلدةُ بهم مِنْ كلِّ حدبٍ ومِنْ كلِّ صوبٍ، وتدافعوا يريدون إلقاء النّظرة الأخيرة عليه.

لمْ يستغرقهم الأمرُ أكثر مِنْ ساعةٍ فإذا بالنّواحي أُخبِرتْ، وإذا بالبشرِ تكدّسوا، وإذا بالأفئدةِ فُجِعتْ والحلوق غُصّتْ، وهرعتْ إحداهنَ تصيح:

-هل مات إمامُنا حقًّا؟!

إنَّهم ينكرون عليه أنْ يكون أشبه بهم، بشرًا يصيبه ما يصيبهم، وهناك؛ عنْد الأفق، عنْد سفحِ الجبلِ وعلَى التّلالِ وبين كثبانِ الرّملِ، جنب جدران البيوت وفوق أسطحها، داخل دروب البلدة وشوارعها، سحبٌ مِنْ النّسوةِ ذوات الأثواب البيضاء التي تتداخل بين ثنياتِها الرّيحُ فترفرف، فرشنَ الآماد.

بعضُهنَ لمْ يصمدن فانتحبن، وبعضُهن آثرنَ الصّمتَ علَى غير تصديقٍ، كما لو أنَّ الإمامَ سينهض إليهنَ مِنْ جديدٍ، «أُسرّي عنكنَ»؛ هكذا سيقول، هكذا يأملنَ.

ليس يريد أنْ يصدّق النّبأ أحدٌ، كأنَّ الإمامَ خالدٌ بينهم عصيٌّ علَى الموتِ ولنْ يجري عليه قضاء، نحيبٌ في الأنحاء، صراخٌ أسكته الرّجال، كلُّ ما أمكن فعلُه أنْ يُوارَب علَى الإمام بابُ الغرفةِ بعْد عناءٍ، والنّاسُ في الخارجِ هناك يترقّبون طلوعه إليهم كيما يرافقونه إلَى مثواه.

وحيثما يُباشر المُغسّلون عملهم في جثمانِه، يقف علَى رأسِهم صاحبه الشّيخ «جعفر بن أبي الحافظ»، وفيما تزداد الجماهير، يجوّل ما بين مدخل غرفة الغُسل وباب البيت، كأنّه يحرِص علَى الزّود عنْ جثمانِ صاحبِه دون الأعين ريثما يفرغ المغسّلون، يحدّث نفسَه: «في غضونِ الرّحلةِ، تُستَنزف الرّوح يا صاحبي، كأنّما طائر يفقد الرّيش بينما يشيخ».

في السّماء غيمٌ يجرِف بعضُه بعضًا، يرفع عينيه ويشرع جفنيه لآخرهما، لا يعرف هل يجرف الغيمُ نفسَه آتيًا أم مغادِرًا! دموعٌ تسيل مِنْ عينيه ولا يكاد يلاحظها أحد وسط الضّجيج والهرج.

عندما توقّف فؤادُ صاحبه انهار أمام جثمانِه، مثْل بنيانٍ تهدّم، وبدا يقف عاجزًا عنْ لملمةِ شتاته، ليس يُعينه مُرافِقٌ ولا ثمّة مَنْ يشهَد مثْل هذا الحدّ مِنْ الألم علَى صاحبِ عمره سواه، سقط على ركبتيه، ونزّتْ عيناه دمعًا.

يحيل بصرَه بين الجموعِ المتكدّسة، كلُّهم يحدّقون نحو مدخل غرفة الغُسلِ، يجرع ريقه في غصّةٍ، ويتسنّد علَى أكتافِ الواقفين يحجزهم بجسدِه الضّخم كأنّما لا يقوى علَى الوقوف في ثباتٍ، المدى أمام نظرِه مسدودٌ بالحشود، همهمات وأنّات وتأسٍّ، يرجع بقدميه خطوتين ويستدير برأسِه فيطلّ

علَى جثمان صاحبِه ثمَّ سرعان ما يعود ليغلق بجسمِه باب البيت، «ما أبعْد الذّكريات يا صاحبي وما أقصر الرّحلة!»، يقول لنفسِه، بعدها يحدّق في المرآة المخدوشة في أكثر من موضعٍ والمعلّقة علَى الباب الخشبيّ، يرى وجهيهما قبل سنوات بعيدة، بطنُ المرآة يعترك بالذّكريات، رحلتهما الآن تتدافع أمام عينيه فتبدو المشاهد كخيولٍ تتلاحق، يميل بجبهتِه للأمام حيث بروز إطار المرآة، يحطّ رأسَه عليه ويستغرق في البكاء مفرطًا.

يحاوطه بعضُ الرّجال يربّتون عليه، لا يُمكن أنْ يعزّي أحدُهم أحدًا، جميعهم في حاجةٍ للتّعزية.

إنّه لنبأ أليم! هذا إمامهم الذي بكَى حتّى عميَ، ذاك موجزُ ما ورَد عنْ شيخِهم وإمامِهم «أبي عيسَى التِّرمذيّ»، أمّا الذي أبكاه فما أدْرَكُوه قط، ولا جيز لهُم أنْ يستفسروا وهم جلوسٌ إليه في سنواتِه الأخيرة بينهم، ولا ثمّة فرصةٌ الآن وقدْ غيّبه الموتُ، كانتْ أنباؤه تصلهُم مكتوبةً، في جامعِه الكبير وفي سنِنه، في علله وفي تواريخه التي وضَعَ، ومعْ ما جاء إليهُم عرفوا أنّه ظلَّ يبكي إلَى أنْ صار ضريرًا، كلُّ أسرارِه يحملها صاحبه الشّيخ «جعفر»، خالَهُ في رحلته، وعاشا لستّين عامًا لا يفترقان، قضيا منهم آخرَ أربعة أعوامٍ في «ترمذ».

علَى طاولةٍ خشبيّةٍ يسجّي المُغسّلون الجثمان، إنَّه دافئٌ ليس باردًا ولا رخوًا، كأنَّ لمْ يطلهُ مِنْ مظاهر الموتِ شيئًا، مبتسمٌ، جلدُه ورديٌّ، عضلاتُه علَى تصلّبِها، عروقُه علَى زرقتِها، كلُّ ما في الأمرِ أنّها لا تنبض وقدْ توقّف قلبُه قبْل ساعتين ويزيد، علَى أيّةِ حالٍ هذا ديدنُ الأئمةِ الذين انتُخِبوا ربّانيًّا ورفعهم الله لمصافِ الأنبياء، هم يوقنون أنَّ مراتبَهُم تختلف، فيرفعون ذراعه الأيمن ثمَّ الأيسر ويتابعون، يدلقون مِنْ الإبريق ماء فاترًا ويشطّفونه، شيئًا فشيئًا يُغسّلون جسمَه كلَّه، كان صاحبه «جعفر» ينهنه، يفردون الكفن كي يلبسوه، لكنَّ «جعفر» يستمهلهم:

-دعـ.. عـ.. دعوه فقـ.. قـ.. قدْ.. أوصاني.

ويخرج مِنْ مخلاتِه لفائفَ مِنْ الكُتب والصّحائفِ التي تآكلتْ حوافُّها وازدادتْ اصفرارًا، يفكّ أربطتَها، يفلّت غرائِها عنْ بعضِه البعض، ينظرون إليه يستفهمون، فيقول بإيجازٍ:

-أوصـ.. صـ.. أوصاني أنْ يكـ.. كـ.. يكفّن فـ.. فـ.. في الورقِ.

-يا شيخ وهل هذا يجوز؟!

-يـ.. يـ... يجوز.

يتشنّج، تتجهّم ملامحُه، ويزعق باقتضاب وهو يشيح عنهم بصرَه، فيستأنِفون النّظر إلَى بعضِهم البعض علَى حيرةٍ واستهجانٍ، «جعفر» لنْ يخبرهم عنْ دوافع الوصية ولا ملابساتِها، إنَّهم واثقون، فهو صاحب الإمام وكاتمه، فقط يشخص قليلًا في جثمان «أبي عيسَى»، يتدفّق ما كان بينهما من أسرارٍ علَى امتداد العمر دفعةً واحدةً، فيبتسم، وبينما يبتسم يجوسون بأعينِهم فيه علَى استغرابٍ، يقولون لأنفسِهم: «إنَّه المكشوف له وحافظ القول فكيف

لنا به؟!».

يصغرون وإنْ عظَّموا الأمرَ وتردّدوا، يصرُّ «جعفر» علَى إنفاذ الوصيّة، يحاولون الفهم ويجادلونه قبْل أنْ يستسلموا وإنْ رضخوا لحتميةِ ذاك أوّل ما أصرَّ، وعلَى إكراهٍ وليس يُكرَه إلّا مَنْ لا حيلة له، فيقول:

-هـ.. هـ.. هذا بـ.. بـ.. بيني وبينه.

يسلّمون لله أمرَهم، يحتجزهم «جعفر» بجسمِه الضّخم ويحول بين أعينِهم وبين جثمان صاحبِه، ويسحب رقعةً جلديةً كان يخبئها في طيّات جلبابِه، يحدجهم بجنب عينِه في حذرٍ، وعلَى غفلتِهم يدسّ الرّقعة بين أوراق الكُتب المُفلّتة، يطمئنّ أنّها لنْ تلفت النّظرَ، ثمَّ يستدير إليهم، ينحّي نفسَه ويتركهم يستكملون عملَهم، يلفّون الجثمانَ بأوراق الكُتب، لا ينتبهون للرّقعةِ الجلديّة، يتنهّد بارتياحٍ، يعيدون لفَّ الجثمان بالقماش، يبخرّونه، ويعطّرونه بالمِسك والعنبر، ويقرؤون عليه القرآن، ويتباكون، ويحضنونه، و«جعفر» يتذكّر كلَّ الأشياء وهو ماكثٌ علَى رأسِ صاحبه يودّعه.

قال له «أبو عيسَى» منذ عامٍ وقدْ استشرف أنْ أوشك علَى اختتام رحلتِه:

-في السّفر سبعُ فوائدٍ ليس منها أنْ تموت..

وضحك، سعل، وربّتْ عليه:

-وفي الموتِ سبعُ فوائدٍ منها أنْ تسافر.

وعاجله وهو يناوله الرّقعة الجلديّة:

-أريدُ أنْ أسافر معْ هذه الرّقعة يا «جعفر»، كفّنني بها إذا متُّ ولا تدع أحدًا يعرف سرّنا، هذه وصيّتي، لا يُمكن أنْ يرث السرَّ أحدٌ بعْدي، ليس مِنْ وريثٍ يا صاحبي.

-الـ.. الـ.. الرّقعة الـ.. التي أبـ.. أبكتك يا صاحبي حـ.. حتّى ضـ.. ضاع بـ.. بصرك!

أومأ برأسِه، وكرّر عليه:

-وصّيتي يا «جعفر» إنْ كان أواني أسبق مِنْ أوانكَ، لا تنسَ، لا أريد أنْ يفضّها بعْدي أحد.

-لـ.. لـ.. لمْ تُطـ.. تُطـ.. تُطلعِنِ عليها! حـ.. حـ.. حسبُكَ أنّـ.. أنّـ.. أنّي لا أعـ.. أعـ.. أعرف القراءة!

-كلّا يا «جعفر»، إنّها ممّا اختصّني الله، ولولا أثق في أمانتِكَ ما تركتُها في ذمّتكَ.

-لـ.. لـ.. لكنّي سمعتكما تـ.. تـ.. تتهامسان أنت و.. و.. الإمام ز.. ز.. «زيد»!

-بلَى أدركتُكَ حينذاك واختباري فيكَ كان الوقت، ليس أحفظ منك للسّرّ، فدعْ إذن ما تعرفُه فيكَ ولا تجهر لأحدٍ مهما كانتْ مكانتُه لديكَ، بلْ لا تحدّث نفسَكَ به حتّى، «جعفر»، الفتنة يا صاحبي، الفتنة فاخشَها، ألَا وقانا الله الشّرَّ!

يخرج الجثمانُ، يتدفّقون، يحمله الرّجال علَى أكتافِهم، يشهّدون ويبسملون ويطلّون بأعينِهم داخل النّعش يحملقون فيه، وتدان مستقيمان ومحمولان أعلَى مناكبِهم يتناوبون الطّواف بينهما مِنْ يمينٍ إلَى شمالٍ، فردوا على النّعش سجّادة، وتركوا منفذًا لأنظارهم كي ترى جثمانَه فتتشبّع به قبْل أنْ تطويه أرضُ الله إليها، يصيح أحدُهم: «أسرِعوا دونما خببٍ ولا تسرفوا»، يمضون به مِنْ قلبِ المدينةِ حيث بيتِه، إلَى المقابر حيث يُدفَن.

الجموع تكبس علَى بعضها، يعبرون بين البيوت المقبّبة، وعلَى ضفّة النّهر، يقلّبون الرّمل بأقدامِهم، يهدرون بأصواتٍ عاليةٍ، الطّيورُ تحوّم فوقهم وتلاحقهم، كأنّها تودّع الإمام بدورِها، الجبلُ بدا طويَ علَى صخورِه فانكمشَ، السّحبُ تحدّبتْ ودنتْ مِنْ رؤوسِهم وبدتْ كمناقير النّسورِ ومخالبِها، يدخلون المسجد، يصلّون عليه، وما أسرع ما يتدافعون ثانيةً وألسنتُهم تلهج، يسير «جعفر» خلف الجنازة وقدْ أغشاه الدّمعُ لتمامِه: «لنْ يخلّف في «خراسان» مثلك يا صاحبي، يا إمام العصرَ الحجّة الأوحد بلا مدافعةٍ، كنتَ مبرّزًا على أقرانِكَ فاتّفقوا عليكَ وما ظهر فيهم مَنْ يُضاربك في الحفظ والضّبط والإتقان، ألَا نفعَ اللهُ بكَ يا «محمّد» المسلمين مَنْ بعْدِكَ».

وهو يراهم يهبطون به إلَى المثوى تذكّر كلماتَه إليه، تطقّ في رأسِه وتندفع اندفاع التّيار العفيّ:

-فلنعمل كأنَّ الدّنيا ما كانتْ ولا ستكون يومًا لنا، إنّنا أبناءُ الآخرة، فيا صاحبي يجب أنْ يكون ثوبُ تلك الآخرة علَى مقاسِنا بالتّمام، لا ضيّقًا ولا واسِعًا، فإنّما يا «جعفر» نَحيكُ أثوابَ آخرتِنا بأيدينا، وكلٌّ علَى ما يلقَى الله بما حاكتْ يداه.

عيسَى بن سَورَة بن الضّحّاك بوغ- 209 هـ

كأنَّ الزَّلزَلة؛ ترتجُّ الأرضُ، الجيادُ تنهمرُ مِنْ قُبُلِ الجبلِ شلّالات مِنْ غبارٍ، جيادٌ أعينُها معصّبةٌ بالفولاذ وصدورُها مدرّعةٌ بمثلِه.

تتراكضُ بوتيرةٍ محمومةٍ كأنَّ ثمّةَ مَنْ يطاردها، صهيلُها كالرّعدِ، تتسابق إلينا على نهمٍ، فتبدو مجنّحةً، طوت المسافةَ بين جبلٍ مستدنٍ وبطنِ قريتِنا الواطئة في لمحِ الهَلع وعلَى إسراعِ المداهمة، تدافعتْ نحونا وقدْ طقّت الشّمسُ مثْلَ سُرَّةٍ في خصرِ السّماء.

مع دنو الجيادِ؛ تشابكتْ سُحبٌ ترابيةٌ ضبّبتْ مقاصِدَ البصرِ، فيما لمْ نعُد نرى أبعْد مِنْ ذراعٍ، ثمّ ما كدنا نتسقّط التّركيزَ إلى حواسّنا

حتّى ترجّل بعضُ الجُندِ وحلّوا بيننا، وما كاد الحمَام -الذي يتلقّط الحَبَّ- يفرِدُ جناحيه فِرارًا حتَى استغرقتْهُ هجمةُ الخيولِ الجامحةِ مباغِتةً، فدهستهُ تحت حوافرِها.

بُوغِتنا، صار إدراكُنا كالطّلّلِ، ليس يقومُ وليس ينْمَحي، بلْ ناشئٌ في هذه المساحةِ بين النّقص والاكتمال، بين الحيلةِ والانصياعِ، لمْ يكنْ عجزُنا كليًّا لاسترحنَا وأُخضِعنَا، ولا جزئيًّا لقاومنا

وشقَقْنَا أنفسَنا عليه ونازعناها، لكنّ المباغتةَ أربكتْنا، فبدونا كأنّما عُلِّقنا علَى منتصف الدِّراية المُلتَبِسة بالمصائرِ المُشرِفة.

جيش الرّوم مُرابط علَى حدودِ «بوغ» ويضربون السّورَ الكبيرَ بالمنجنيق، الأبواق نفيرُها وصل إلَى المسامِع، وكلُّ الاحتمالات مأساوية!

كالرّماد؛ تذرونا التّساؤلات، في هذه اللّحظة، علَى وجه التّحديد، بينما الرّوم يتتابعون إلَى القريةِ، نحن إذن مُقبلون لا محالة علَى هلاكِنا.

كانتْ التّساؤلات مِنْ قبْل جُرمًا يستحيل غفرانُه، ردمنا عليها طيلة الأعمارِ المُعاشة عيانًا نسلًا بعْد نسلٍ، وحبسناها بداخلِنا جبرًا كي لا نؤثّم، نؤتَمر فنطيع، وإنْ لم نفعل طارتْ رؤوسنا.

ذُكَر في الأنباء التي تترامَى إلينا، أنّ رجالًا في بلاط الوالي، ذات حماقةٍ وذات إدراكٍ عابرٍ، تساءلوا، ولمْ ينجوا، لم يذكروا عمَّ كان سؤالهم، ولا لأيِّ ظلمٍ واقعٍ، خلتْ الأنباءُ إلّا مِنْ جرأتهم الباطلةِ وضلالهم وفِعلتهم وتمرّدهم علَى طاعةِ الوالي ورجاله مِنْ بعْدِه، وغلمانه وعساكره وجواريه وأتباعه مِنْ بعْدِهم، وأعدائِه حتّى!

أجل تُرهبنا أخبار الحروب والمعارك والدّسائس والحكايات عنْ عدد الرّقاب المفصولة، آثرنا الكفاف وتعلّقنا باحتياطات السّلامة كمَنْ تعلّق في مشيمةٍ مطّاطيّةٍ لا يُمكن فصلها عَنْ جسدِ واقعِه، لذا عشنا صاغرين، بالفطرة المُكتَسبة عبر الأزمنة؛ فطرة القطيع الذي لا يُخشَى عليه مِنْ الفُرقةِ أو البَدد إنْ اتَّبع، القطيع الذي جُبِل على الانقيادِ خلف أيِّ كبيرٍ مزعومٍ نصّبته مخاوفه، قطيع لمْ يُدرك كُلفة أن يكون قطيعًا لأنّه لمْ يجرّب سوى هذا المعنى، القطيع الذي يدفع الضّريبة بجهالةٍ منقطعة التّمييز، ليس الأمر أنّنا سرنا بلا تدبّر، ولا أنّنا عشنا ورؤوسنا منكّسة حيث لا ينبغي أنْ تعلو رأسٌ علَى رأسٍ وإلّا أرغمها السّوط علَى أنْ تتساوَى وبقيّة الرؤوس كي يستقيم

القطيع، كان كلّ ما يشغلنا: «هل يُمكن أنْ ننجو مِنْ ألاعيب السّادة وتناحرهم؟!».

لكنّنا لمْ ننج!

ولسوف تُهلَك قريتُنا في ذلك النّهار كما لو أنّها القيامة!

المُعتَصْمُ بالله بنْ الرّشيد طرسوس- 218 هـ

كنجمٍ هوَى أقعُ طريحًا علَى فِراشي، مثْل الذي مِنْ عُلوٍ إلَى سُفْلٍ، ثمَّ لمْ أكدُ إلّا أنْ أثبُ كمَنْ نهشتُه حيَّةٌ، أثبُ مخنوقًا وعلَى سُعالٍ مُكتومٍ لا يوشِكُ أنْ يخرج مِنْ حلقي حتّى يتحشرَج، خلا جوفي وثمّة جفافٌ في حنجرتي لانحشارِ الصّوت، ألعق شفتيَّ بلساني، كانتا متقشّرتيْن!

الفِراشُ غارقٌ في دمٍ لزجٍ، أعومُ في الدّم، أشبُّ فزعًا، أرتطمُ بالحشايا المُلقاة تحت قدميَّ، أستبصرُ المرآةَ علَى عشَى، أحاول لملمةَ شظايا الزّجاج التي ترتشق في جِلدِ وجهي، لا شظايا! أمسحُ ببطنِ يدي بقايا دماء الحلم، لا دماء! فأشعرُ بالسّخونة، وأطوّحُ رأسِي مِنْ الدّوخةِ، كأنَّ جمجمتي باغتها طيرٌ جارحٌ فنقرَها.

(رأيتُ فيما يرَى النّائمُ وكأنّما لمْ أستيقظ بعْد منْذ نمتُ أوّل

مرّةٍ، قرّرتُ في الحلمِ –ما أغرب الحلم!- ألّا أنام قبْل أنْ أجرّبُ الحزنَ، كأنّي ولدتُ وظللتُ ساهرًا علَى حزنِ الآخرين، أراقبهم وهم يئنّون مِنْ فرطِ الألمِ فيما ينامون، أنظرُ في أعينِهم وأرَى الحزنَ يصحو كلّما أفاقوا، يصحو معهم ولهم، إنّ حراسةَ أحزانِ الآخرين لإرادةٌ مقدّسةٌ، أردتُها عبر مشيئةٍ مُشتبَه عليها، وبينما أراقب أحزانَ الآخرين كنتُ أراني، جوهرًا خالصًا للعذاب، لمْ أفهم

كيف يخافونني وأنا حارسهم؟! أجل لمْ أسقط في النّوم إلّا مصادفةً، مررتُ أمام مرآةٍ، مِنْ قبْل كانتْ أعينُهم مرايا وصدّقتُ انعكاساتها، إنّما حين شاهدتُ نفسي للمرّة الأولى، والأخيرة، منعكسًا في مرآةٍ، لمْ أشاهدني بالجَزمِ، بلْ شاهدتُ بحرًا من موجٍ يتلاطم يركبه شيخٌ عجوزٌ، مندفعًا نحوي مِنْ قلب المرآةِ، كان بحرًا مِنْ الدّم انفجرَ عليَّ، تكسّرتُ، فأغشيَ عليَّ روعًا، وكأنّي لمْ أستيقظُ بعْد).

أجلس علَى الأريكة المجاورة للسّريرِ كالمتهدِّم، ذراعاي ترتعشان في سكرةٍ، فيما يدلف غلامي «معبد» إلى الغرفةِ مرعوبًا وهو يمسك في يدِه مبخرةً، يسندها ويهرع يدلق لي ماءً مِنْ الإبريق ويناولني الكأسَ وهو يبسمل ويحوقل، يحمل المبخرةَ ويطوّف مِنْ حولي، يقرأ القرآن ويتعوّذ، تسبح الغرفةُ في دخانِ المبخرةِ فتغيم الموجوداتُ أمامي، أبتلع ريقي بعسرٍ يتخلّله لهاثٌ وأرعشُ بأهدابي إلَى «معبد» لا أستبينُه كأنّي ما زلتُ في غياهبِ الحلم!

غير قادرٍ علَى استردادِ أنفاسِي، كأنّي ملسوعٌ، أسوّمُ بنظري حولي، الفِراش طريٌّ مبتلٌّ بالعَرق لا بالدّم، آه، أهو نفس الحلم اللّئيم إيّاه؟!

أهدأ قليلًا، أضع يدي علَى صدري ويعاودني الإدراكُ، رويدًا يعاودني.

يا لهذه اللّحظة فيما بين الغفو والاستفاقة! إنّها مُقبِضة، كأنّها الخيطُ ما بين الحلم والواقع، لكنْ ما كلّ هذا الدّم الطّافح في حلمي المتكرّر؟! وبالله مَنْ هذا الرّجل الذي يركب الموج؟!

بالكاد أصلُ بكأسِ الماء إلى فمي فإذا بغمغمة مشَوّشة حائرة مِنْ خارجِ الغرفةِ تبلغ أذنيَّ، تليها صيحات، أصوات متشابكة تدفعني للاستفاقة أكثر، يخرج «معبد» مُسرِعًا، ثمّ يدخل إليَّ علَى عجلٍ وملامحُه تربد، يتنفّس بصعوبةٍ ولا يتكلّم، بعْدها طرقاتٌ خافتةٌ،

آذن لحارسِي فيقف علَى عتبةِ الباب ولا يلج:

-عفوكَ مولاي.

-خيرًا!

أصرف «معبد» بيدي، يقف فيما بعْد مدخل الغرفة، يخطو الحارسُ للدّاخلِ، يقول بنبرةٍ متأسيةٍ خافتةٍ وهو يخفض بصرَه أرضًا:

-أستودعكَ الله في أمير المؤمنين، توفاه الله وهو في طريقِه إلى «طرسوس».

مات «المأمون»! حقًّا! أيُّ موتٍ طارئٍ هذا الذي يأتي علَى هذه الغفلة؟!

أجمُد لوهلةٍ، تتّسع حدقتا عينيَّ دونما إرادة، أستدعي كلّ التّصورات التي يُمكن أنْ تطرأ علَى البال، أحدّق في الحارس دون أنْ أنطِق، يستأذن فيستدير ويخرج، يدلف «معبد» ثانيةً ويجهّز لي الثّيابَ التي سألبسُها بينما يهمهم مستغفرًا ومترحّمًا، ثمّ يقول: «أبقاكَ الله يا مولاي»، ولا أتحرّك مِنْ مكاني.

ما هذا الخبر المفجع بطلعةِ الصّبحِ؟! ثمَّ كيف لموت «المأمون» أنْ يكون خبرًا مفجعًا؟! أوليس هذا ما كنتُ أتحرّق شوقًا إليه؟!

أنظر إلَى المرآة، أمرّر أناملي علَى وجهي، ينفتح فكّي وأنا أتخيّل أنَّ الذي أنظر إليه الآن ما هو إلّا وجه خليفة بني «عبّاس» القادم، يا لهذا اليوم ما كان أتَى إنْ أعددتُ له! لكنّي لمْ أفعل.

شئونُ دار الإمارةِ في «طرسوس» ترتبك، أستغرق النّهارَ وأنا أصدر أوامري لهذا وذاك، أُشيّعُ مناديًا ليطوّف بالنّبأ علَى قلب وأطراف المدينة، تتضارب مشاعري ما بين بين، ها أنا سأستقبل جثمان «المأمون» ومعه سأستقبل الخلافة، ما أبكَر الخلافة! يا لهذا الظفر الذي يغلّفه أسىً! خليطٌ مِنْ فرحةٍ وحُزن! أهو حزنٌ يا «أبا العبّاس» في حقيقتِه؟!

تمرُّ ساعاتُ اللّيلِ قبْل أنْ يصلُ الموكب، لا أحدَ مِنْ رجالِ الإمارة خلد لراحةٍ، كلّهم مجتمعون مِنْ حولي يتدبّرونَ ما استُجدّ، انشغلَ بالي بالتّدبير معهم فيما يتدبّرون، مُلكٌ بأكملِه ضاربٌ في أطرافِ

العالم سينتقل إليَّ، وحيث يُفتَرض أنْ أمرّنُ ظهري لحَملِ هذا المُلك عليَّ أنْ أتحرّز ضدّ الطّعنات التي ستأتي مِنْ خلفٍ وعلَى غدرٍ ودون

استباقٍ.

صلّينا الفجرَ وأمَمْتُهُم، دخلتْ فرسِي الإسطبل يجهّزونها لكنّها استعصتْ عليهم فتأخّر تجهيزُها، اضطررتُ إلَى السّير علَى قدميّ مِنْ المسجد إلَى بوّابة «طرسوس» المُقابلة علَى مسافة مئة مترًا أو يزيد، حيث نوديَ أنَّ القافلةَ دنتْ، كان حولي الجمعُ، فُتحت البوّابة وظللنا ننتظر، همهمات مِنْ حولي، استغفار وترحّم ودعوات، لكنَّ بصري مشدودٌ نحو مدخل البوّابة، وكأنّ بي أريد أنْ أرَى جثمانه بعينيّ تثبُّتًا كي يطمئن قلبي!

وإنَّ الحُزنَ لمُقبِلٌ علَى الوجوهِ وبادٍ، مِنْ البّوابة الحجرية الكبيرة المستطيلة يلجُ الموكب الجنائزيّ الذي يحمل جثمان «المأمون»، مات في رحلةِ صيدٍ في «بذندون» على طريق الرّوم قُرب «طرسوس»، وها هو يدخل إليها نعشًا يحمله هودج! وكأنّما ما خرج ليصطاد بلْ ليصطاده قدرُه! ما أعجب الأقدار!

على مقدمة الموكب «الحسن بن سهل» وزير أخي وصهره، يمتطي جوّادًا أبيض، يبدو الشّجنُ علَى ملامحِه الغائضة، وقدْ ترمّلت ابنته «بوران» زوجة «المأمون» ممّنْ ترملنَ مِنْ زوجاتٍ وجوارٍ وملك يمينٍ، بنظرة عابرةٍ يرمقني ثمّ يقطّب جبينَه وتستقيم رأسُه ثانيةً في صلفٍ تجاه الجموع الواقفة مصطفّةً تنتظر دفن «المأمون»، أتقدّم إلى الجثمان، أكشف عنْ وجهِ «المأمون»، راعني جهمه! ليس هكذا ندلف إلَى أخرانا يا أخي؟! أنهنه بلا دموعٍ:

-أواه يا «عبد الله»، ما أخفّ رحلتكَ يا ابن أبي!

لا يبدو التّأثُّر على «الحسن»، ملامحُه لم تزل جامدةً، كأنّه ليس يُصدّق حزني على أخي، بلْ يميّز أكثر نزوعَ مشاعري إلى الخلافة، أُدرك أنّ بيننا ما لا يُستحبّ أنْ يكون بين خليفةٍ ونائبه، أولستُ الخليفة القادم؟! بدا لمْ ينسَ بعْد ما جرَى منّي أثناء زفاف أخي علَى ابنتِه!

عنْ المأمون بنْ الرّشيد

لا أزال أذكر ذلك اليوم البعيد، كان يومًا مشهودًا، سافر «المأمون» إلَى «فمّ الصّالح» –قرية زوجته- وفق شرطٍ اشترطه أبوها «الحسن» لإتمام الزّفاف، وأبَى أنْ يصحبني معه لمّا رأى مِنْ غضبي واعتراضي علَى إنفاقِه مِنْ بيت مال المسلمين فيما لا يُنفَق فيه حيث إذا ما اقتصَد لنال ما أراد بنفس القدر! كان هذا رأيي، وتشاحنّا وتباغضنا لأيّامٍ، وبدا مسحورًا إلَى ابنة «الحسن» مخلوبًا بها ولمْ أكنْ أعرف كيف ساقه الجموح واستبدّتْ به الرّغبة إلَى حدّ أنْ يبدّد كلّ هذا المال! وقدْ وقع مِنْ الإسراف علَى هذا الزّواج نظير ما أُسرَفَ علَى الزّواج منْذ بدء الخليقةِ!

قلتُ له آنذاك:

-والله لتزوّجتَها بدينارٍ إنْ شئتَ يا أخي، لكن تبديد مال المسلمين بهذا الشّكل يوغر ضدّنا صدور العامّة والولاة والأمراء!

فقال:

-قسمًا بالله هي أكرم مَنْ يسكن قصر الخلافة، والمال مالي يا «أبا

العبّاس» لا مال المسلمين، فدع ما فيكَ فيكَ ولا تزد عمّا قلتَ وإلّا نالك منّي ما لا أحبّذ بشأنِكَ!

لمْ يكنْ يهدّدني بلْ يبلغني عنْ نيّته باستتارٍ، بالأحرى أخذته العزّةُ بالإثم في أمرِي، فقلّص المسئوليات التي أولاها لي، وعيّن أميرًا ينوب عنّي، وقدْ كانتْ فترة عارضة لحين الانتهاء مِنْ زفافه، مضى إلى عروسِه وأمهرها ألفَ ألفَ دينارًا عنادًا، والدّينار يسوَى بعيرًا، ووزّع علَى عساكره مثلها، وخرجتْ قافلتُه بخمسين ألف غلامًا وجارية وضعفهم مِنْ الجنود والفرسان.

ومنح «الحسنَ» عشرة ملايين درهمًا فذبح لضيوفِه آلاف الرّؤوس مِنْ الأغنام والجاموس والبقر والدّجاج، ونثر مِنْ سطحِ بيتِه علَى العامّة بنادق العنبر، ومَنْ كان يكسر البندقةِ مِنْهم يجد رقعة كُتبَ فيها عطيَّتُه، فيستبدلها مِنْ الدّيوان إمّا بأثواب الدّيباجِ وإمّا بالدّراهمِ أو الدّنانير وإمّا بالجواري!

وكان «الحسن» هو شورى «المأمون» منفردًا مِنْ بعْد أخيه «الفضل بن سهل»؛ الذي قُضيَ على يدي «المأمون» نفسه، يلجأ إليه، يتباحث معه في شئون الخلافة، ولّاه «فارس» و«الجبال» و«الكوفة» و«الحجاز» و«اليمن» و«البصرة» و«الأهواز»، وظلَّ هو في «مرو» تاركًا كبار الولاة يرسلون العمّال إلى الأمصار، ثمَّ إنّ «الحسن» مَنْ استماله قول «أحمد بن أبي دؤاد» فأعجبه، وأشار على «المأمون» بالورع والتّقوى وترجمة العلوم الأخرى والكتب الأجنبية والفصل في أمورِ الدّينِ بالاحتكامِ إلَى العقلِ والتّدبّر، على خلاف أخي «الأمين» الذي اشتُهِرَ بعدم الجدّة فاغتاله «المأمون» واستولى علَى الخلافة إثر صراعٍ دام لسنواتٍ بعْد أنْ خلعه «الأمين» مِنْ ولاية العهد وولّى ابنَه «موسى النّاطق بالحقّ».

كان «المأمون» حينذاك في «خراسان»، ولمّا بلغه أمرُ خلعِه أخذ البيعةَ مِنْ أهل «خراسان» وانطلق بجيشٍ منهم لمحاربة «الأمين»، الحرب التي دامتْ لأربعِ سنواتٍ ولزمتُ فيها جانب «المأمون» وعاضدتُه ضدّ «الأمين»، حيث كان يميل للدّعة وعدم الاكتراث واللّهو، وهو ممّا يفتّت مُلك دولتنا، حتّى حوصر «الأمين» في «بغداد» فأجهَز «المأمون» عليه وظفَر بالخلافةِ، قالوا وقتها:

-أبناء «الرّشيد» يذبّحون بعضهم البعض!

فاختلفَ النّاس عليه.

وقد انتفَع «المأمون» كثيرًا بشورى «الحسن» رغم هذا الخلاف، وذلك ممّا مكّنه مِنْ توطين حُكمِه مِنْ بعْد ودرأ الفِتن وإبعاد خصومه مَنْ ظهر منهم ومَنْ بطن، كان يلاعبهم ولا يجارونه، باللّطفِ مرّةً وبالحَزمِ مرّاتٍ، يغلّب الشدّة ويلين إذا مَكر، حكيمًا فصيحًا إذا جادل، باطشًا ذا بأسٍ إذا عاقب، أسّس للنّاس في «بغداد» جامعة «بيت الحكمة» وآزرَ العلماء وراعاهم فاخترعوا، وطوّر العلوم ودعمها، وباشَر التّرجمات مِنْ فلسفةٍ ورياضيات وفلَك وطب، لكنّ النّاسَ عصَوا عليه وتمنّعوا علَى قولِه رغم اهتماماته التي أثرتْهُم وانتفَعوا بها، فظلَّ يغيّر شعار العبّاسيين الأسود تارةً إلَى شعار العلويين الأخضر إرضاءً لطائفةٍ، ثمّ يطرح هذا ويلبِس النّاس ذاك تارةً أخرى إرضاءً لغيرِها، يميل إلَى الفُرس ثمّ إلَى أهل السّنّة والجماعةِ ثمّ إلى العلويين، كأنّما يُسيّس الطّوائف بمرونةٍ؛ هكذا خيّل إليه، حيث لمْ يستحبُّ أحدٌ هذا التّوفيق بين كلّ المتناقضات، فما رضيَ عنه النّاس ولا أنزلوه بينهم مكانتَه التي يستحق!

لمّا الأمورُ صفتْ بيني وبين «المأمون» بعْد زفافه وعودته إلَى «بغداد» أعاد لي ما كان، واتّخذتُ جانبه فيما يُدبّر مِنْ خُططٍ لمجابهة الأخطار الدّاخلية وكنتُ عضده، وإنْ ظلّتْ نفسي تحمل سخطًا وضغينةً.

المُعتَصْمُ بالله بنْ الرّشيد طرسوس- 218 هـ

يشقّ الجثمانُ طريقه بعْد أنْ كفّنَّاه إلى حيث المسجد كيما نصلّي عليه، يقترب منّي كاتبي، أهمسُ له:

-هل أرسلتَ الهدايا إلى «العبّاس بن المأمون» وكتابًا يدعوه لمبايعتي علَى الخلافةِ؟!

-بلى يا مولاي.

-وهل كاتبتَ ولاةَ الأمصار والأمراء جميعهم للحضور؟!

-بلى يا مولاي.

صرفتُه بيدي، تراجع منحنيًا، أكملتُ سيري خلف النَعش، كنتُ أسير على قدميَّ و«الحسن» يركب على حصانٍ! وددتُ لو امتطيتُه هو نفسه مِنْ حنَقي، ما زال ناقمًا عليَّ! وعلى أيّةِ حالٍ لعلّه يُدرك تمامًا أنّ أمرَ إبعادِه عن القصرِ قد أزِف.

صليّنا، خرجنا نتراتل وتوجّهنا إلى المقابر، دفنَّا «المأمونَ» وترحَّمنا عليه ولمْ نكتفِ إلّا عنْد التَّصافحِ وكلُّ نفرٍ يقصد سبيلَه مغادِرًا، ها قدْ جمَّعنَا الموتُ وفرَّقتنا السَّلوَى يا ابن أبي، وها هم

بعضُ الخَدم يشيّدون ضريحًا على قبرِكَ! هل ثمّة مَنْ آمنَ بكَ وأحبَّكَ لحدِّ أنْ تسوقه قدماه طوعًا لهذا الضّريح فيضع عليه سعفةً ويتضرّع كي يرحمكَ الله؟! تُرَى مَنْ شفيعُكَ فيما اقترفتَ؟! ما الذي مضيتَ إليه بغير أنْ تنهِه يا أخي؟! ما الذي عليَّ أنْ أحمله مِنْ بعْدِكَ؟! أيُّ دماءٍ سفحتَ وأيُّ رجالٍ غدرتَ؟! أشرُّ ما في موتِكَ أبوابُكَ المُشرَعة التي تركتُها خلفكَ ولمْ توصدها! أيُّ ريحٍ إذن يا «أبا العبّاس» ستعصف مِنْ خلف هذه الأبواب؟!

توجّهتُ إلى دار الإمارةِ، أغلقتُ عليَّ بابَ المخدع، وسقطتُ نائمًا مِنْ جهدي، والأفكارُ شاهتْ في رأسِي.

(الحلمُ مضمّخٌ باللّونِ الأحمر، الشيخُ العجوز ذو لحيةٍ طويلةٍ ووجهٍ نضرٍ، يرفل في سلاسلٍ لكنّ كفّه تقبض علَى قطعةِ قماشٍ بيضاء تُشبه الأكفانِ، يطوّحها ويفردها أمامي فإذ بها ترشُّ الدّماء علَى وجهي!).

استيقظتُ –كعادتي- علَى نفس الفزع، بعْد يومٍ كاملٍ مِنْ شدّةِ التّعب، يا لهذه الأحلام! «المأمون» يأتيه الفلاسفةُ في حلمه وأنا تأتيني الأكفانُ!

صعدتُ إلى الحمّام، خلعتُ ردائي، واستدعيتُ «معبد» ليدلّكني.

«معبد» يكبّس ظهري بالزّيت، يدُه ناعمة، لمساته تخزّ فيَّ، أستلقي وأتركُ نفسي له، أغضُّ بصري عن شفتيه الحمراوين وهدبه السّوداء وحاجبيه الفاحمين متنهّدًا، كأنّي أريدُ أنْ أستريحُ قليلًا مِنْ غفلةِ الموتِ التي كانتْ، حاول أنْ يستثيرني، داعبَ أذنيَّ، لكنّ مزاجي كان معكّرًا، فلمْ أستجب، إنَّ «معبد» أشدّ غلماني اعتدالًا في الطّول والقِصر، شعرُه أجعد وبشرتُه بيضاء مشرّبةٌ بالحُمرة، اقتنيتُه بعْد أنْ عتقتُ أكثرية غلماني مكافأةً لهم علَى خدمتي الطويلة، وقدْ

جرت بهم السّنُّ وما عادوا فتيانًا بلْ رجالًا أشدّاء وقدْ اخشوشنّتْ أجسادُهم، فدرّجتُهم في الوظائف وأبعدتهم عن القصر، وأوكلتُ إلى أحد قهارمةِ القصر رعاية «معبد» وتنشئته على الشّريعة

الإسلامية والثّقافة وتعليمه القنص وآداب الملوك وألاعيب السّياسةِ وتدريبه على الفروسية، فصار خاصّتي.

البُخار الدّافئ يتصاعد بأركان الحمّام المُلحق بالقاعةِ، وفيما قليل يستأذن أحد الحرّاس للدّخول عليّ، يأذن له «معبد».

-ما خطبكَ؟! منَ مات أيضًا؟!

-الوزير «الحسن بن سهل» في انتظارك في القاعة يا مولاي.

-هذا الرّجل لن يهدأ له بال حتّى تقوم ساعتي!

ولوّحتْ له بيدي:

-دعَه ينتظر.

وقبْل أنْ يخرج استطردتُ:

-ولا تقدّموا له شرابًا.

استغرقتُ وقتًا في التّزيّنِ، ارتديتُ ملابسَ الخليفة كاملةً لأهيّئ له تمامَ ظهوري كأمير المؤمنين من بعد «المأمون»، ضبطتُ القلنسوة الطويلة المحلّاة بالذّهب على جسمي، والعمامة السّوداء المخروطية على رأسي، تكحّلتُ، لبستُ خواتمي وتعطّرتُ، دخلتُ إلى القاعة علَى مهلٍ وكان جالسًا، عقدتُ حاجبيّ مندهشًا من استكماله الجلوسِ أثناء دخولي وبغير إذني، فأحسَّ، نهضَ متباطئًا وتقدّم نحوي.

-خيرًا يا وزير الخليفة!

قلتُ باقتضابٍ وأنا أجلس دون أنْ أنظرُ إليه، ثمّ أضفتُ وأنا أرمي بصري نحوه:

-تغمّده الله برحمتِه.

بدا فطِن لرسالتي، لاحتْ علَى ثغرِه ابتسامةٌ:

-هل لي أنْ أحدّثكَ يا مولاي على انفرادٍ؟!

ونظرَ إلى حرّاسي، أومأتُ برأسي فخرجوا وأغلقوا بابَ القاعةِ من ورائِهم.

-فلتأتِ بما عندك.

-البيعةُ يا مولاي.

تحسّستُ بأناملي مقبضَ سيفي، قلتُ وقلبي يستشعر الخطر:

-لقد ولّاني «المأمون» في مجلسِ القضاء، ألمْ تكنْ حاضرًا؟!

-وولّى ولده «العبّاس» مِنْ بعدِكَ!

-وولّى غلمانه وقلّدهم تدابير الدّولة وأوكل لهم الإشراف على بيتِ المال حتّى صار الغلمان عنوانَ خلافته! رحم الله أخي كان يولّي عابرًا إذا أُغرِم به! إذن فلنبايع كلّ مِنْ ولّى!

-ما تقصد يا مولاي؟! لقد انشغل «المأمون» عن الغلمان بأمر الدّين وتصحيحه، ولعلّك نسيت أنّه عزلَ صاحبه وقاضيه الأقرب «يحيى بن أكثم» بسبب هذا الأمر؟!

-لقدْ ضجّ النّاسُ به في «البصرةِ» لمّا اشتُهِرَ بحبِّ الغلمان، فرفعوا بشأنِه إليه! عزله عنهم بعدما استعظمَ فسادَه وقدْ أظهر فواحشَه!

وانحنيتُ نحوه:

-بينما كان قصرُه مرتعًا للغلمان!

ورجعتُ بظهري:

-علَى أيّة حالٍ أنا لا أتّهم أخي ولا أنسب له شيئًا! ثمّ فيمَ تُجادلني؟!

-في أمرِ الغلمان الذين ما زالوا يرتعون في القصر! وإذا رغبتَ فلينضمّ غلمان «المأمون» إلى البيعةِ طالما ولّاهم؟! وإنّ الغلمانَ ممّا اقتنَى كلاكما وأُغرِمَ!

قالها بنبرةٍ مستهزئةٍ، فانفعلتُ عليه:

-أتنطق بها في وجهي؟! أنسيتَ أنّك في حضرةِ أمير المؤمنين المُقبِل؟!

ارتبك وتهدّج صوتُه:

-عفوًا يا مولاي، وإنّما أنتَ أعلم النّاس بانتقالِ الخلافة، لا بدّ أنْ تتمّ البيعة علَى عجلٍ، وإلّا جرى ما لا نحتسِب.

-القلاقل!

هزّ كتفيه وصمتَ، أردفتُ:

-سيبايعونني لا شكَّ.

-إرادتنا ليستْ طرفًا في المسألة.

انتفضتُ إليه، ضمّ قبضته على سيفه، وضعت يدي عليها ونشبتُ أظافري محذّرًا وقدْ كنتُ أماثله في الحجمِ مرّتيْن، صحتُ:

-ويحك! إرادةُ مَنْ إذن؟!

عيسَى بن سَورَة بن الضّحّاك بوغ - 209 هـ

قبيل غارة الرّوم؛ كان اللّيلُ تسربلَ، بينما ظللتُ أجوب ضفّة النّهر، لا أقف، ولا أقعد، كالقوسِ والنّشّابِ في آنٍ، لا أستقرّ بمكانٍ، ولا أطيق بقاءً على أهبّةِ زفّ الخبر.

الشّمسُ لم تزل تحت الحزام وراء نهر «جيحون»، لا يبدو منها إلّا شعاعٌ ضلَّ وتراقصَ علَى سطحِ الماءِ، تتحرّك عيناي بلا ثباتٍ ما بيْن مدخل دارِي وزبدِ الماء -الذي يلفظه الموجُ على شطِّ النّهر تحت قدميّ- فيعْلُق بهما، النّسوةُ الملفوفات بالمُلاء يندلقنَ إلى جوفِ الدّار واحدة فأخرى، يرتّقنَ بعضهنّ البعض، يتواترنَ للدّاخل مثْل عقد انفرط متتابعًا واسترسلتْ حبّاتُه.

أخلع حزامي وقميصي، أهبط إلى الماء على الدّرجات الحجريّة المنحدرة لأسفل؛ والمطمور أوّلها تحت حافّة السّطح، أبلّل شعر رأسي، ثمّ أغمر جسدي، الحرُّ خانقٌ، والعرقُ ينزّ من جبهتِي، أخرج من الماءِ أطلّ علَى بابِ الدّار مرتقبًا، ثمّ أزفر في عدم تحمُّل، أنتظر انطلاق الصّرخة، يشعر أخي «سليم» بتوتّري، يدكّ صدري مُمازحًا:

-إنْ هي إلّا لحظات، قبْل أن ينبلج الفجرُ سيتمّم اللهُ الأمرَ بمشيئته، الصّبر يا رجل.

-إنّها تُجالِدُ منذ ثلاث ليالٍ!

-فلتَقُل إذن إنّك مشغول بها لا ببطنها!

ويضحك، أنظرُ إليه بانعدامِ تركيزٍ ولا أردّ، يُكمل وهو يمسّد رأسي المبتلّة:

-كلّنا مررنا بما تمرّ، الخلفة الأولى دومًا هكذا.

أراقب سكون الماء تحتي، النّهرُ ركدَ كأنّما يتربّص بالنّبأ القادِم نفسَ تربّصي، يبدو النّهرُ أوقف تحرّكَه القدريَّ نحو الشّمال!

تلتحم صرخةُ الطّلقِ من عمق الدّار بأذان الفجر المدوّي من مئذنة المسجد البازغة من خلف قبّة داري، أقفز، أرتدي القميص على عجلٍ فازعًا نحو الدّار، إنّما «سليم» يستمهلني صائحًا:

-علَى رِسلكَ يا رجل!

ولمّا يلمح ارتعاش ملامحي يقول مستأنفًا خافضًا صوتَه:

-رفقًا بنفسِكَ، لنُصلِّ أولًا ونشكر الله على عطّيتِه ثمّ نبارك ونهنّئ، الفرض أولَى وأسبق.

القريةُ برجالِها ونسائِها كانتْ ساهرةً في داري، يعلو صراخ امرأتِي أكثر مِنْ الدّاخل، ورغم قلقي، كنتُ قدْ تركتُها للقابلةِ، وانضممتُ للرّجال في المسجد.

أدلف بنعلي لكنّ «سليم» يستوقفني منبّهًا، فأستدركُ متحرّجًا، أجلس وصدري يرتفع ويهبط، منتظرًا، يتسنّد «سليم» على كتفي:

-لسوف تعتاد الخلفة يا «عيسى»، عليك فقط ألّا تدع فراشك يبرد.

ويضحك غامزًا بعينه، أولّي عنه بصري وأسند ظهري إلى جدار المسجد، أقضّم أظافري، أحرّك ساقيَّ مُنفعلًا، أفردهما ثمّ أضمّهما،

الدّقائق تمرّ، الإقامة، الصّفوفُ تساوتْ، ذراعٌ بمحاذاةِ ذراعٍ، استغراقٌ في الصّلاةِ إلّا مِنْ رجفةِ جسمي المفضوحة، تتحرّك رأسي يسارًا باتّجاه باب المسجد: «السّلام عليكم ورحمة الله»، ولا تعود لموضعِها، أنظرُ إلى «سليم» مُستعجِلًا، ثمّ أهرع إلى بيتي، يتبعني الرّجال في إثر بعضهم البعض.

أقف على عتبة الدّار ومن ورائي الرّجالُ، كان ولدي في سلّةٍ من خوص مثْل ثمرةٍ خضراء، القابلة خرجتْ به إلى صحن الدّار لنُشاهده، تقع عليه أبصارُنا، فيبسمل الرّجالُ، ويهنّئونني، خُلبتُ إذ وقعتْ عيناي على ابني.

-ولد، الله أكبر، سبحان الخالق المصوّر.

يُبارك «سليم»، أزفرُ في ارتياحٍ، يردف:

-ماذا سمّيتهُ؟

-سمّيتُه «محمّدًا».

بعضُهم يصافحني وبعضُهم يقبّلني فرِحًا، لكنّ عينيَّ كانتا معلقتيْن بولدي المختبئ في الأقمشة، وأعين النّساء تراقبه من خلف جدارٍ حجريٍّ واطئٍ، القابلةُ تقرّبهُ منّي فأتلو الشّهادتين في أذنيه وأُكبّر، أقرأ عليه القرآن، ألثّمه، كان وجهُ ولدي أشبه بالضّيِّ إذا وجَّ، يسري نورُه بين الأعين فتُؤخَذ إليه كأنّما علَى غفلةٍ.

تُلقمه القابلة عشبةً تستصرخه، فيبصقها، تقطّر في فمِه زيتًا وظنُّها في بطنِه تمنّعٌ، فيلفظه، تنظر إليَّ متحيّرةً وكنتُ قد دلفتُ إلى داخل الدّار وتسنّدتُ علَى بابِ الغرفة النحاسيّ شاخصًا في وجه «محمّد»، مبتسمًا، حاجزًا بذراعيّ المفرودتين عن الرّجالِ الولوجَ مِنْ بعدي.

تعاود القابلةُ محاولتها في دفع «محمّد» إلى البُكاء، تصفّق براحتِها على فخذيه، على صدرِه، بطنِه، إنّما لا يبكي مثْلما يفعل سائرُ الرّضّع، لا يتلوّى ولا ينازع منازعات اللّقاء الأولى بالدّنيا، بلْ

يتموضع في فراشِه ويبتسم، ويبدو وديعًا متأمّلًا وهو ابن لحظاتٍ في الحياةِ، يحدّق في وجوهِنا بعينين تألّقتا بالفضول، حتّى إذا ما أُدركتُ أنفاسي نظرتُ إليه أطالعه عن قُرب.

أدنو منه، أُستَلَبُ إليه مشدوهًا، أرفعه لأعلى، أطوّف به بامتداد المباخر التي تستدير مع جدران الغرفة الأربعة، البخور يشتعل أكثر،

يطقطق بجوفِ المباخرِ، وزغاريد النّسوة المنطلقة من صحنِ البيت بالدّاخل لمْ تزل بذاتِ الابتهاجِ ومسموعةً بوضوحٍ، وزوجتي غفتْ في غضونِ الألم.

ومِنْ الشّوارعِ هناك يأتي الصّراخُ، وبينما يتداخل الصّراخُ مَع الزّغاريدِ تلتحم به، تخفت، ثمّ تنقطع تمامًا، حيث نهبّ جميعًا، رجالًا ونساءً، إلى حيث تأتي الأصوات المُتخالطة المذعورة.

العبّاسُ بن المأمون بغداد - 218 هـ

(بسم الله الرّحمن الرّحيم، السّلام على «العبّاس بن المأمون» ابن أخي، هذا كتابي إليك، كتبتُه وفكري سليمٌ وأمري قائمٌ ودونما إكراهٍ، إنَّ أباك «المأمون» أمير المؤمنين في ذمّة الله، وقد ولّاني الخلافة مِنْ بعدِه، وعاهدته طائعًا على أمرِ المسلمين، ولّاني

الخلافة بما تشتمل مِنْ ولايات وأمصارٍ وثغورٍ وكتبٍ وفرسانٍ وفتوحات وخِراجٍ وأموالٍ، ولا سبيل لأحدٍ في الحؤول دون العمل على البيعة بإذن الله، ولا يعرض أحد عنْ ضمَّ أهل القصر وأتباعه وأصحابه ومواليه ووزرائه وقضاته وعمّاله وقوّاده وجنوده وجواريه وإمائه وغلمانه وخدمه، على ألّا يحكم المسلمين مِنْ بعدِه غيري، هذا وندعوك لبيعتنا بجندك ومخلصيك وقرنائك وجيشك، وعليكم إنفاذ ما جاء بكتابي، وقبول الهدايا المرفقة به، والله عليكم شهيدٌ وراعٍ وكفى به كفيلًا).

المُعتَصْمُ بالله بنْ الرّشيد طرسوس - 218 هـ

في توحّشٍ، قبضتُ أكثر على رسغ «الحسن بن سهل»، ودنوت مِنْ عينيه أواجهه، أيّها العجوز إنَّ الولاء لا يُكتَسب أو يُورّث بلْ يُفرَض، ولاؤكَ ليس اختيارًا!

ظلَّ قلبي يضطرم وماجتْ عضلات وجهي، كززتُ علَى أسناني فانغرستْ أظافري في لحمِه حدّ نزّ الدّماء.

حاول انتزاعَ رسغه فلمْ يستطِع، قال في هدوء وبصوتٍ لا يُداخله توتّر ودون أنْ يبدو عليه توجّعٌ:

-البيعةُ بمَنْ يُبايع يا سيّدي.

-وهل يجرؤ رجل ألّا يبايعني على الخلافة؟!

-إنّ الفرسَ يتعصّبون إلى «العبّاس»، فعساك تعرف! إنّهم قوام جيشي ومعظمه!

-جيشُكَ!

تميّزتُ غيظًا، لكنّي زفرتُ أستجمع قواي، لا أريد أنْ أخاطر بخسارة «الحسن» في هذه اللّحظة بالتّحديد، سحبتُ يدي مِنْ على حزامِه، وربّتُ على كتفِه مبادرًا:

-إنّهم يتعصّبون للدّم، هم أخواله في نهايةِ الأمر.

مسح دماءه بطرفِ عباءته، تراجع قليلًا وعيناه محتنقتان:

-هو منهم وسيجنح هواهم إليه ويناصرونه دونك عنْد البيعة.

-هل لديك الزّمام؟!

-لديَّ يا سيّدي.

عدتُ لأجلس وقدْ استكان صدري قليلًا:

-كما أشرت على «المأمون» أشِر عليَّ.

-فلتَكُنْ لي مثل الهدايا التي أرسلتَها إلى «العبّاس» تستميله إليكَ.

أيّها العجوز الدّاهية! كنتُ أعرِف أنّه لن يخرج منها إلّا علَى حظوةٍ، إنّما كان عليَّ أنْ أسايره وقد يتأخّر جنودي وأتباعي ممّن سيبايعونني ويتّخذون جانبي، وبمجرّد مجيئهم سيخلو لي «الحسن» أردّ له ابتزازَه لي كيفما شئتُ.

-وكيف أنبئتَ بما أرسلتُ؟!

-مئة قطعة نقديّة فضيّة ومئة قطعة من الدّيباج الفاخر وعشرون صقرًا خلاف الخيول وكلاب الصّيد والزّمرد والياقوت، أما فعلتَ!

قالها بلهجةِ استنكارٍ ساخرةٍ ثمّ أضاف وهو يذرع القاعة بدبيبِ خطواتِه مِنْ حولي:

-لي في الأنحاء بصّاصون يا مولاي.

قلتُ:

-لكَ مثله.

أكملَ في خبثٍ:

-والإبقاء عليَّ وزيرًا.

داعبتُ لحيتي متخابثًا بمثْل ما تخابث:

-أتطمع فيما لمْ يقرّره المبايعون بعْد؟!

-إنّما القرار تحسمه الأهواء والغلبةُ لمَنْ يغوي ويعاجل الأطماعَ بالمنافِع، وليس نزوعي إلّا إلَى كرمكَ وسخائكَ وجودكَ عليَّ بما أستحق..

وضغط علَى أسنانِه وهو يضيف:

-يا أمير المؤمنين.

-ولكَ هذا أيضًا.

-فليكنْ وثيقةً مكتوبةً بيدِ قاضٍ وعليها شهودٌ، الآن، وتتمّ بيعتُكَ.

شعرتُ بمكرِه، إنّه يستِّفُ لي أمرًا ولكنّه يجاريني، يماسحني كالثّعبان ويراوغني كالثّعلب ولو كان قدْ قبع منْذ قبل في كنف «المأمون» كالقنفذ، لمْ أردّ عليه، تطلّعتُ إليه وعلى وجهي يبدو التّأمّل الحانِق، يساومني علَى مُلكي، ما الذي حدا به إلى مثْل هذه الجسارة؟!

تكشّف الأمرُ بعْد قليل، وقدْ وقع ما استشرفتُ، انفتح باب القاعة وتدفّق منه بضعٌ مِنْ الجنود الفرس ممّن يوالون «العبّاس» ويأتمرون بأوامرِه، وكان حرّاسِي مذبوحين عنْد الباب، كوّموهم جثًّا فوق بعضِهم البعض! راعني ما رأيتُ، للحظة استبدّ بي الجزع، قلتُ لو أنَّ هذا ما يؤول إليه «أبو العبّاس» فتبًّا له!

صاح «الحسن» في ثقةٍ وهو يدور في القاعة وقدْ رشق عينيه تجاهي:

-إنّها خلافةُ «العبّاس» عَنْ أبيه.

كنتُ أنظرُ إليه والشّررُ ينفجر مِنْ عينيَّ، ضحك ضحكة رقيعة وهو يقول:

-انتهى الأمرُ يا «أبا العبّاس»، لماذا تحدّق فيَّ هكذا؟!

صحتُ فيه:

-إنّما أنظرُ إلى رجلٍ ميّتٍ!

-فانظُر لنفسِك إذن.

ثمَّ رفع ذراعه وكشف عنْ أثر أظافري عليه:

-أتحسب جرحَ «الحسن» بلا ثمنٍ؟!

هممتُ بالانقضاض عليه، فزعق وهو يحرّك إصبعَه تجاهي:

-أمسِكوا عليه موضعه.

ارتكزتُ على الكرسي بعدما تهيّب الجُند وتردّدوا ولمْ يتقدّموا خطوةً نحوي، بدوا يراجعون مصيرَهم منّي، قلتُ متهكّمًا لكنَّ بطني ظلّتْ متقلّصة:

-أوتطلب منهم القبض على خليفتهم؟! هل سيطيعك جُنودي أيّها العجوز المخبول؟!

وهتفت فيهم:

-أنتم جنودي ولا طاعة لأحدٍ في عصيانِ خليفتكم.

أخذ الجنود يناوبون النّظر فيما بيني وبينه على غير اطمئنانٍ، إنّهم يتوجّسون منّي حتمًا، لكنّهم يبغون خلافة «العبّاس» وهذا مفضوحٌ، إنّما مَنْ الأرجح فينا! عساهم يستعدِلون!

تتسارع دقّاتُ فؤادي، بينما استطعتُ أنْ أسيطر على خلجات وجهي، لا أريد أنْ يبدو عليّ أيُّ تخوّف وإلّا تألبوا عليَّ وانفرطت الأمور لصالح «الحسن»، لبثوا هكذا، وظلَّ «الحسن» فاغرًا فاه، أمرهم ثانيةً فاقتربوا منّي إلّا قليلًا، مال عليه جندي يهمس:

-سيّدي ألا ترى فحولته وقوّة بدنه! والله إذا جعل زِند الرّجل بين إصبعيه كسرَه!

همسُه بلغ أذنيّ، فابتسمتُ علَى قلقٍ، وبحثتُ بعينيّ عن بقيّة حرّاسي وجنودي، لمْ أجد منهم أحدًا، غير أنّي اتّكأتُ على كرسيَّ أكثر في اتّزانٍ وأنفةٍ، دفعه «الحسن» وهو يزوم:

-والله ما ربحت فيكم أيّها التّعساء!

لكنّ الجندي اقتربَ فصحتُ فيه:

-ابتعد وإلّا صرتَ كمثل هذا الرّجل الذي تحدّثتَ عنه!

بيد أنَّ عُصبةً منهم دنتْ أكثر، حدّقتُ في أعينِهم، والتفّوا مِنْ حولي، وبينما يحاوطونني، وقبْل أنْ يستدركوا أنفسَهم، كان حارسٌ مِنْ حرّاسِي قدْ دلف إلى القاعةِ واتّسعتْ عيناه إذ شهد ما

يجري، في سرعةٍ وعلَى غير توقّعٍ أهوَىَ على يد «الحسن» التي كانتْ تمتدّ إلى جرابِه لتستلّ السّيف، سقط السّيف، وتدافع الجنودُ الفرس متراجعين في تشتّتٍ، وبدوا سينقضّون علَى حارسي

إنْ تثابتوا، فاستبقتُهم بسيفي، كنتُ قدْ أصبحتُ بينهم وطوّحتُ رقابَهم، فيما كان الغلمانُ يهرولون على الدّرجِ قادمين مِنْ الأعلى وهم يتصايحون مستعظمين الأمر، وفيما يحدث هذا، انضمّ جنودي القادمون مِنْ «بغداد» إلى القاعة، دلفوا واحدًا بعْد الآخر، في البدءِ هالهم المشهد، لمْ يخطر لهم أنَّ خليفتَهم كاد يُحاصَر الآن وقدْ أوشكتْ أنْ تطير رأسُه بعْد قليلٍ لولا أنْ جاؤوا، لكنّهم بإشارةٍ منّي حاصروا البقيّة مِنْ الفرس داخل دائرة، ولمْ يفكّروا، طيح برقابِهم على الفور، أمضوا سيوفَهم في أجسامِهم ومزّعوها، وتبدّلتْ سحنة «الحسن»، بدا على وجهه الهلع، تقهقرَ إلى زاوية واستجداني بعينيه الرّحمة، كانتْ شفتاه ترتعشان، وقد أحبطتُ ما خطّط إليه وأوشك على تنفيذه -بإيعازٍ من ابن أخي «العبّاس»- أبكر ممّا ظَنَّ، وقدْ حدّق في جنودي وبدا مندهشًا مِنْ سرعةِ قدومهم وانقلاب الدفّة، فقفز إليَّ وأكبَّ على قدميَّ يقبلهما، وزعق يخشى بطشي به:

-ألَا تُكرمني يا أمير المؤمنين وتعفو عنّي؟!

-أوكنتَ تعفو عنّي؟!

قلتُ وأنا ألهث بينما أعود للجلوس علَى كرسيَّ، فردّد:

-إنّها محنةُ الكِرام، إذا ما أجرموا أو تجرّموا الذّنب تابوا، واستقاموا على المحبّة للإخوان فيما ينوبهم وأنابوا.

-والله ما ورثتَ النّجامة عنْ أخيك «الفضل» فحسب، بلْ ورثتَ الشّعر أيضًا! وبمَ تُجدي الأشعار في أوان الهلاك أيّها العجوز؟! تراك استضعفتَ حيلتي واستصغرت مقامي! تريد أنْ تفتك بي وأنا متجرّد مِنْ عُدّتي وعتادي؟! حسبك يا رجل الخسران.

هتفَ حارسٌ:

-هل أضرب عنقه فأُنهي عليه يا أمير المؤمنين؟!

-كلّا، والله فليمُت بندمِه لا بسيفي، اسجنوه.

وطالعتُه في تشفٍّ:

-هذا عفوي أيّها المجوسي المتأسلم.

حاول أحد الجنود الفرس أنْ يحول بين «الحسن» وبين حارسي

في بادرةٍ حمقاء، فرفع حارسي سيفه ونزل به على رقبتِه فصلها، ثمّ صفّد «الحسن»، في اللّحظة التي اقتحم «العبّاس» القاعة مُحاطًا بجنوده، ارتاع وجمد للحظةٍ، ثمّ جرى إلى «الحسن» المقيّد في السّلاسل وهو يصيح في ذعرٍ:

-عمّاه ما حدا بكَ؟! إنّه وزير أبي وصهره ومخلِصُه!

وانبرَى يحسّس عليه ويتأبط جسمه فقلتُ في حزمٍ:

-دعه يا فتى وإلّا زادتْ الرؤوس المفصولة رأسين.

أفلتَه، راح يرتجف وهو يرى رؤوس جُنده متفرّقة على أبسطة القاعة والدّماءُ تطفح من أطرافها، كان جنوده قدْ تحجّروا بدورِهم، ونظروا إليه في انتظارِ قراره، كان عدد جنوده يقارب عدد جنودي، والحسمُ لمن بادر، وقدْ بادرتُ، ظلّوا يتشاورون بأعينِهم قليلًا، قلتُ أُذكّره:

-أأنتَ جاحدٌ يا ابن أخي؟! وصلتكَ الهدايا ولمْ تشكر عمّكَ!

لمْ يجب، لمْ ينظر إليّ، كان مستغرقًا في دهشتِه، وفي الشّوارع هناك خارج مقرّ الإمارة انتشرتُ الفوضى وبلغتني أنباؤها فيما بعْد، كان الجنود الفرس قد توزّعوا في أنحاء «طرسوس» تأهّبًا لنقل الخلافة إلى «العبّاس»، وشاغبوا مع جنودي، إنّهم أخوال «المأمون» أخي ومناصروه، ومناصرو ابنه من بعْدِه.

جلس «العبّاس» متكوّرًا على الأرض وسط بِركِ الدّماء، كان ينهنه، نظر إليه جنوده فصاح في ألمٍ ممزوج بالتّقريع المستتر:

-ما هذا الحبّ البارد؟!

ثمّ نهض وترابطَ وقال متنهّدًا وبدا مدفوعًا علَى غير حيلةٍ:

-لقد بايعتُ عمّي «أبا العبّاس» وسلّمته الخلافة، أُشهد الله وأُشهدكم.

ها قد ارتحتُ أخيرًا، أشرتُ لأحدِ الحرّاس:

-استدع القضاة.

وتفحّصتُ «العبّاس»:

-صفحتُ عنكَ لرباطِ الدّمِ يا فتى، وإنْ أخشى إلّا أنْ أكون قدْ غاليتُ في الصّفح علَى أيّة حالٍ! لكنّنا سنرَى فيما بعْد.

واستدرتُ ببصري نحو أحد العساكر وأشرتُ إلى «الحسن»:

-اصلبوه حيًّا على بوّابة «طرسوس» للعبرة، فإنْ نالته الجوارحُ خلصنا، وإنْ صمَد فمصيرُه السّجن إلى أنْ يدبّر الله فيه أمرًا.

العبّاسُ بنْ المأمون بغداد - 223 هـ

حوافرُ الجيادِ تنهش الأرضَ، حرّاسي يهبّون في دهشةٍ، يرتبكون، ينصبون رماحَهم، يمنعونهم مِنْ الدّخول، يحدث جدلٌ سرعان ما

يُحسَم، إنَّ جنودي يخاطبون قائد جيش الخليفة بنفسِه! أزيحُ السِّتار وأطلُّ مِنْ الشّرفةِ باضطرابٍ، ها هو ذا «حيدر بنْ كاوس» علَى رأسِ الفرسان الذين يقتحمون بوّابة القصر، هل هذه غارة؟! استشرفَ قلبي منْذ تواطأت الأوضاعُ لعمّي «المعتصم بالله» واستنامتْ، أدركتُ أنَّه قدْ يفعلها وشيمتُه الغفلة، فقط كنتُ أتساءل متى سيحين هذا الأوان وإنْ ظللتُ أستعدُّ له علَى أيّةِ حالٍ!

هل يظنّ عمّي أنَّ جيش «بغداد» سيأمن له وسيعاضده ضدّي؟! إنَّه جيشي مِنْ بعْد أبي ولا يُمكن شراؤه! هل يظنّ أنَّ القلوب ائتلفتْ معه مِنْ جديدٍ لمجرّد أنَّه ظفر بالكافر «بابك» وأعدمه؟! هيهات يا عمّاه! والله إنَّ الضّربَ لهيّنٌ وإنَّ الضّاربَ ليس سواي.

لبستُ درعي وتمنطقتُ بسيوفي، هبطتُ مسرعًا علَى الدّرج، دعوتُ الحرّاسَ لإطلاق الأبواق، حزّمتُ سور القصر برماة السّهام، الجُعب علَى أكتافِهم لا تُستنَفد، أهو إعلان الحرب يا عمّاه؟!

وفيما كان «حيدر» يترجّل مِنْ علَى صهوة حصانِه كان فرساني قدْ أحاطوه وشكّلوا حول ثلّته دائرةً، بإشارة منّي سيمحونهم، لكنَّ «حيدر بنْ كاوس» كان ينظر إليهم علَى غير اكتراثٍ وفي غطرسةٍ، وهو يصعد السّلالم وأنا واقفٌ هناك في انتظارِه، ومِنْ خلفِه تصعد مجموعة فرسانِه، بدوتُ متحفّزًا، فلمّا رأى احمرارَ وجهي وانفعالي فتح ذراعيه وهو يبتسم مُلطّفًا:

-مهلك يا مولاي، إنّما ما أتيناكَ غادرين!

-حسبك يا «حيدر» وقِفْ مكانك لا تقترب!

سحب نفسًا طويلًا إلَى صدرِه ودوّر عينيه في الحرّاس الذين احتشدوا مِنْ حوله، ثمّ عاد ببصرِه لي وهو يتمتم لائمًا:

-مولاي! أيستدعي الأمرُ كلَّ هذا العتاد وكلَّ هذه الأهبّة؟!

-أفصِح يا رجل فيمَ جئتَ!

-جئنا نهادنك ونحصل علَى بيعتك.

-أيُّ بيعةٍ؟!

كانتْ يدي علَى سيفي، دنا منّي فامتشقته متهيّأً:

-قلتُ لكَ لا تتحرّك!

-علَى رِسلك يا مولاي، إنّما السّلام!

أخرجَ مِنْ درعية صدرِه لفافة، ألقاها تحت قدميَّ:

-هذا كتاب الخليفة لك فاقرأه!

رفعتُ اللّفافةِ بسنّ السّيف وفضضتُها، علَى عجلٍ مسحتُ بعينيَّ فحواها، قلتُ باندهاشٍ:

-«عمّوريّة»! الآن! ما أغرب الخليفة!

-استفحل «توفيل بنْ ميخائيل»، ولستُ هنا إلّا لأدعوك كي تبايع عمّك علَى الخروج لملاقاته.

حككتُ لحيتي باللّفافة وأنا ما زلتُ علَى توجّسي:

-أصدقني يا «حيدر» فأنا لا أطمئنُّ لك ولا لخليفتكَ!

أدار ذراعيه حوله نحو فرسانه وقال وهو يرفع حاجبيه:

-وهل تكفي قوّة مثْل تلك للإيقاع بكَ في عقر دارك وبين جنودك؟! أيُّنا أعقل فليتدبّر!

-حسنًا يا قائد الجنود، إنْ كان الأمر كذلك فلكم بيعتي.

-وهل يجوز يا مولاي أنْ يُردّ علَى أمير المؤمنين شفاهةً؟!

فكّرتُ في منطقه، لعلّه محقٌّ فيما يذهب إليه، هززتُ رأسِي، صرفتُ الجنودَ الذين يحاوطونه وهدأتُ قليلًا، قلتُ لحارسي الشّخصيّ:

-استدعِ كاتب الإمارة.

-ألنْ تدعو وزيرك وقائد جنودك للدّخول؟!

قال «حيدر»، عاجلته:

-وزير الخليفة لا وزيري..

ثمَّ أحسستُ بعدم كياستي تجاهه فقلتُ باستدراكٍ:

-علَى كلٍّ تعال نحتسي شرابًا بالدّاخل ولتقصص عليَّ نبأ «عمّوريّة».

دلف بعْدي، كان حرّاسي ما زالوا يحاصرون مداخل القصر والبوّابات احترازًا، توجّهتُ لدولاب الكؤوس وتناولتُ كأسين وقنّينة نبيذ، صببتُ له كأسًا:

-إنَّ الخليفة يورّط الجيش يا «حيدر» ولعلّك تعلم!

-أرى أنَّه سيكتسح الرّوم في قلب حصونِهم وسيعود ظافرًا.

-يبدو طيّرهُ المنجّمون؟!

-كذبوا ولو صدقوا.

تحرّكتُ نحوه بالكأسِ في يدي:

-أراك تُبارك هذه الحرب!

-أنا قائدُها.

-لا عجب إذن!

صمتَ قليلًا واستدار عنّي، غمغم دون أنْ يواجهني بعينيه:

-أخبرني يا مولاي عن جاريتكَ الحسناء «ميسون»!

استوقفني تبديل مجرى النّقاش المباغت، اضطرب وجهي وهممتُ إليه محذّرًا بإصبعي، صحتُ فيه:

-وما شأنُكَ بجواريَّ؟!

قال بصوتٍ خافتٍ:

-العفو يا مولاي، إنّما ليس شأني، بلْ شأن أمير المؤمنين، لعلّكَ نسيت أنّها إحدى جواري القصر!

-ثمَّ أصبحتْ جاريتي!

-بالحيلةِ يا مولاي! هذا قول أمير المؤمنين فيكَ، بالحيلة أقسرتها على صحبتكَ مِنْ «سامراء».

-وفدتْ مع مَنْ وفد منْ القصر.

-لكنّ أمير المؤمنين استغرب أنْ تعمل جارية قصره في دار «القحّاب»!

-هربتْ منْ قصري.

-بلْ اختلفتْ إلى دار «القحّاب» كي تكسب ما ألزمتها به مِنْ مالٍ! لماذا فرضتْ عليها المال يا مولاي وأنتَ في غيرِ حاجةٍ؟!

-امتنعتْ عليَّ وكان هذا جزاءها.

-وهل أوكلتْ أحدًا لمراقبتها؟!

حدجته في غيظٍ ولمْ أردُّ، بينما ولج كاتب الإمارة إلى البهو، حيّانا وجلس علَى المنضدة، ثمَّ جهّز المحبرة.

-أخبر خليفة المسلمين أننا نبايعه فيما انتوى بإذن الله.

أنهى الكاتب الرّسالة في أسطرٍ، أشحتُ برأسِي نحو «حيدر» فناولها له، اقترب «حيدر» منّي:

-هذه وثيقة تخلو مِنْ توقيعكَ يا مولاي!

ولمْ أكد أضع توقيعي عليها حتّى سحبها منّي في اللّحظة التي كان سيفه علَى عنقي!

-أجننتَ يا «حيدر»؟!

استُنفر حرّاسِي، ضمّني «حيدر» إليه وحاذى سيفه بقصبة رقبتي، صاح فيهم:

-سأقتلعها إنْ اقتربتم!

وهمس في أذني:

-مرهم بالابتعاد وإلّا جززتُ رأسك.

بعينيَّ أبعدتهم، أكمل «حيدر»:

-أتحسب أنَّ أمير المؤمنين لاهٍ عمّا تدبّر؟! ووالله أنتَ الذي غفل أنَّه أدهى ممّا تدبّرتَ!

-أيُّ تدبيرٍ؟!

قلتُ وصوتي مبحوحٌ مِنْ حزّة السّيف، استطرد:

-إنَّ خططك ومؤامراتك مع الفرس كلّها في قصر الخليفة في «سامراء» وأمام عينيه، أتحاول خلق الشّقاق والصّدوع في صفوف الجيش بلْ والانقلاب علَى أمير المؤمنين؟! ما أبعْد نواياك!

-لا شيءَ ممّا يظنّ الخليفة!

-بلْ كلّ شيء ممّا أسلفت.

تمتم وهو يتحرّك بي:

-دعني أخبركَ عن مصير «ميسون»، لقد أغرقتْ نفسها في النّهر لمّا ضاقتْ منك!

كان فرسانُه قدْ أحكموا سيطرتهم علَى مجموعة الجنود الذين تبقّوا في القصر، وبينما يعبر بي بينهم كانتْ عيناه ارتفعتا تشرفان علَى الحرّاس المنتشرين فوق سور القصر وسهامهم تصوّب نحوه.

-أنت هالكٌ إذا خامر أحدهم أنْ يجازف، فإنّما يجازف بكَ!

لوّحتُ بيدي فأنزلوا سهامهم، كانتْ قوّاتُه قدْ اعتلتُ الجيادَ، وحاشية القصر تراقب ما يحدث في هلعٍ، الأعين تطلُّ مِنْ خلف النّوافذ والأجسام تتحرّك مِنْ وراء السّتائر، لكن لا أحدَ أصدر صوتًا ولا تقدّم للزّود عنّي، كأنّهم خائفون مِنْ الرّصد فالعاقبة، كأنّهم

أيقنوا مِنْ انتهاء أمري!

بسرعةٍ وضعني أمامه علَى حصانِه وشدَّ لجامه فانطلق، سيفه لمْ يزل علَى عنقي وعزمُه أشدّ مِنْ مقاومتي، اختفينا في الأسواق، في الشّوارع، في الغبار، كان القصرُ يبتعد فيما نخرج مِنْ قلب «بغداد»، لقدْ غافلني، ولقدْ كنتُ ساذجًا، في أقلّ مِنْ لمحِ البصرِ وفيما لمْ يشق عليه كانتْ رقبتي طوع سيفه، والله هذا ممّا لا يحدث إلّا للحمقى أمثالي!

بايعتُ عمّي مُكرهًا فباعني مستحبًّا، يا لها مِنْ حكايةٍ قصيرةٍ! قبضُ ريحٍ يا «عبّاس»! ما أسهلك يا غشيم! صرتَ أسيرًا بطرفةِ عينٍ!

محمّد بن عيسَى نيسابور - 218 هـ

يُقال: «نيسابور»؛ أي عمل «سابور» الطّيب، نسبةً إلَى الملكِ «سابور الثّاني» الذي أعاد بناءها بعْد شتاتٍ. ويُقال: «أبر شهر»؛ مدينة الغيم. ولكثرةِ فواكهها وبساتينِها وحدائقها قيل أيضًا: «دمشق» الصّغرَى.

أخبرونا؛ إبّان رحلتِنا، أنّ «نيسابور» أرضُ خيرٍ، تجّارُها يعيشون في رغدٍ، تؤمّها السّابلةُ ولا تنقطع عنها القوافلُ علَى مدارِ اليومِ، ومنها يتمُّ تصديرُ الفاكهةِ والثّياب القطنيّة والحريريّة والسّجاجيد ومصنوعات الفخّار والتّحف الخزفيّة إلَى كافّةِ بلدانِ المشرق.

يقابلنا على مشارفِ باب المدينة أناسٌ قادمون بدوابّهم ورحالِهم، تثقّلوا بالصّوف والعباءات فوق الجلابيب مِنْ بردِ الصّحاري وعفارِ

الرّحلة ومشاقِّها.

البوّابةُ على ارتفاعِ ثلاثة أمتارٍ أو يزيد قليلًا، نصطّف أسفلها، ونبدأ في ارتقاء الدّرجات الصّخرية فرادَى، يخفّ أبي نظرَه مُطالعًا تشكّلات الحجارة في متنِ السّور الذي يحزّم المدينة، كان أبي على وضوءٍ، وبمجرّد دخولنا المدينة استفسر عن وجهةِ المسجد.

دلّنا بعضُ التّجار، في طريقِنا إلَى المسجدِ سرنا عبر الأسواقِ، قابل أبي أحد معارفه مصادفةً، سأله عن سبب زيارته «نيسابور»، قال أبي:

-زيارة عابرة كي يلتحق ولدي بدرس أمير مؤمني الحديث.

صاح الرّجل وهو يرمقني في إعجابٍ:

-الإمام «البّخاري»!

-أجل، وهل غيره؟!

-قافلته في الطّريق وعند صباحِ الغد يبدأ درسه، بوركتما.

وربّت على رأسي:

-والله ليبدو شأنُه مِنْ طلّته هذه ولمعة عينيه.

-ندعو الله رِفعة الشّأن.

-ظنُّكَ بولدِكَ خيرٌ فتفاءلَ.

-ولدي لا يتحدّث إلّا بالقرآن ولا تشغفه إلّا مؤلّفات «البخاري».

-لا يقف على الفائدة من دروس «البخاري» وكتبه غير المتبحّر العالم، ووالله من كان في بيته كتابٌ لهذا الإمام فكأنما في بيته نبيّ يتكلم، يا «عيسى» أنتَ صالحٌ وأنجبتَ صالحًا، استودِعه عنْد الله.

وتناول مِنْ جرابِه ثمرةَ جوافة، مسحها في كمّ جلبابِه وقدمّها لي مبتسمًا في لطفٍ.

دلفنا إلَى سوق «المربعةِ الصّغيرةِ»، ثمّ أفضيَ بنا إلَى سوقِ «الأرباضِ الغربيّةِ» قُرب دار الإمارةِ بعْد ميدان «الحسينيّةِ».

يتلاحم الخلقُ حولنا، بينما يجوّل أبي عينيه في فضاءِ المدينةِ، الأسواقُ مكتظّةٌ بالحوانيت، مِنْ مربّعةٍ إلَى أخرَى، ومِنْ مقابرِ «الحسينيين» جنوبًا إلَى «رأسِ القنطرةِ» شمالًا علَى ضفّةِ النّهرِ.

مِنْ حولنا يتمشّى التُّجارُ والمزارعون وذوو الحِرف، التّجارُ

أصحاب المال يلبسون القلانس والسّراويل الفضفاضة والدّراعات والقفاطين والقباء، والجوارب الحريريّة والصّوفية، أمّا الباعةُ فكانوا يلبسون الأزرار والقمصان والأحزمة، والأحذية والنّعال الجلديّة، هؤلاء ظلّوا في أعقابِنا يحدّثوننا عَنْ تفرّد بضائعهم وجودةِ صنعِها، لكنّ أبي كان قدْ أُسِرَ بهواء المدينةِ العليلِ وفضائها الفسيح، فلمْ ينشغل بالبّاعةِ أو الدّراويش الذين يسألون النّفحات والعطايا، بلْ استغرق في تفرّجِه علَى الجو الذي يشغي مِنْ حولِه، والبنايات الضّخمة المطلية، وهمهم:

-عمارتُها رشيدةٌ بالفعل كما أخبرونا!

وحطَّ يدَه على صدري:

-طوبَى لمَنْ ألهمك هذه الزّيارة يا «محمّد».

ظلّ سارحًا بعينيه يتأمّل المدينةَ، وكنّا قدْ بلغنا سوق «المربّعةِ الكبيرة» الملتصِق بالمسجدِ، وكان نفرٌ قدْ أقاموا مجلسًا للشّورى داخل المسجد يراجعون فيه أقوال الخليفة في دينِ الله على غير أساسٍ، والتي لا يريد العمل بغيرِها، فجلس بي أبي غير بعيدٍ عن المجلس يستمع.

كان المجلسُ صاخبًا، جماهيرٌ تجلس ناقمةً تتهامس، يتناقشون علَى انفرادٍ وعلى جمعٍ، شبَّ أحدُهم يخطِب فيهم ويناقش معهم ما آل إليه أمر «المأمون» خليفتنا، مِنْ زعمِه بخلق القرآن بدءًا ثمّ قوله

بتفضيل «عليٍّ بن أبي طالب» علَى الصّحابةِ مِنْ بعْد «محمّد» رسول الله عليه الصّلاة والسّلام، تعالت الأصوات، هتف أحدُ الجالسين:

-لقد انصرف عنه الأئمة واجتمع أغلبُهم علَى ثبوت إثمه قطعًا!

قال آخر:

-أولَا يكفي أنّهم خلعوه ببرّ «مصر» غير ذي مرّةٍ! ما الذي ينقصنا لندافع عمّا اصطلحتْ عليه عقيدتُنا؟! أولسنا رجالًا! لقد تخرّج كثرة علماء الإسلام مِنْ بيننا! فبأيِّ حقٍّ يفتئت «المأمون» على دينِنا؟!

جعفرُ بنْ أبي الحافظ 245 هـ

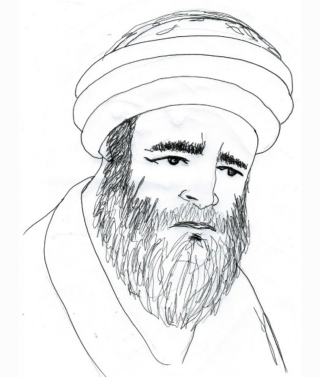

كنّا لا نخلو إلَى قريةٍ أو مدينةٍ إلّا وسرعان ما ضربنا لغيرِها سكّةً، وعلَى ما يُستجدّ في رأسِ صاحبي «أبي عيسَى» مِنْ هدى ومِنْ غوايةٍ، وكلّما استغربتُ تعجّله إلَى السّفرِ قال:

-يا «جعفر»، قال رسول الله سيّدنا «محمّد» عليه الصّلاة والسّلام: مَنْ سلَكَ طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلَى الجنّة.

ثمَّ يضيف:

-غايتي شرفٌ يا صاحبي ووسيلتي السّفرُ، وإنّي والله نذرتُ نفسي.

فأسأله أنْ يسمع في بلدِه فإذا حصّل وحقّق وسمع الموالي والمهمّات فليرحل إلَى غيرِها وهذا أضمن، لكنّه يعاتبني:

-قال «يحيى بنْ معين»: أربعة لا تؤنس منهم رشدًا؛ حارس الدّرب ومنادي القاضي وابن المحدّث، ورجل يكتب في بلدِه ولا يرحل في طلب الحديث!

كان رأيُه أنَّ النّفر فينا تنطلي عليه بيئتُه، وتغضَّ بصرَه المألوفات التي اعتاد عليها فيها وعاش بينها، وإنّما لا يتّسع أفقه إلّا إذا رحل لبيئةٍ مخالفةٍ، ففيها آراء وبحوثٌ جديدة قدْ تؤدّي إلَى تبدّل اجتهاده بعْد أنْ سار عليه زمنًا، وربّما في نفس المسائل التي لمْ يكنْ ليحيد عنها.

نرحل بين المسافات الشّاسعة ونجتاز الأراضي القفر والفيافي والغابات كي نسمع حديثًا واحدًا مِنْ أحدِهم، أو سعيًا لإسنادٍ أعلَى، أو ليختبر حفظَ أحدِهم حتّى يشهد له أنّه بلغ الغاية في ذلك، وإمّا لمذاكرة العلماء ومجالستهم في نقد الأحاديث وعللها، نأكل كسرات الخبز اليابس، ويُشبعنا جلف الطّعام، ثيابنا خِلقٌ، والأهوالُ مقصدنا والضّنى، ولمّا كنتُ أصارحه بخوفي إذا ارتحلنا لأرضٍ مجهولةٍ لا نعرف عنها شيئًا ولا نعرف فيها نفرًا يقول:

-وسخّر لكم ما في السّموات وما في الأرض جميعًا.

وقتذاك لمْ يكنْ «أبو عيسَى» قدْ انتهى مِنْ وضع كتابِه «العِلل الكبير»، وكان قدْ بدأ في استبصار دربه الخاص بعلم الجرح والتّعديل وعلَى إلهامٍ ونفاذ بصيرةٍ، كان شديدَ التّحرّي في إسناد الأحاديث، وتأمّل أحوال الرّواة علَى اختلاف مشاربهم، حذرًا في حمل القول محتاطًا إذا فحصه، متوثّقًا مِنْ الرّواة حفظًا ودينًا وخُلقًا، متثّبتًا صحةَ الحديث مِنْ سقمه، لذا كان دوّامًا علَى الأسفار، ولأنّي قطعتُ عهدًا علَى رفقتِه وآليتُ إلّا حراسته إلَى أنْ يقضي الله أمرًا، فلمْ أجد مشقّةً في صحبته، بلْ كنتُ أشفق عليه، وفيما لمْ تفترُ همّته أبدًا ولا تدانَى قصدُه ارتحلتُ معه، مِنْ قُطرٍ إلَى قطرٍ ومِنْ طرفِ العالم إلَى طرفِه الآخر، وكنّا إنْ وقفنا علَى سفح جبلٍ يدرّج بصرَه إليه ويقول: «كلٌّ خاضعٌ إليه وذليلٌ ومقهورٌ لسلطانِه»، وإذا شاهد أسراب الطّيورِ في السّماء تبسّم وقال: «سبحان الذي

أودع في الطّير مِنْ عجائب الصّنع وآيات الإبداع»، وفي كلِّ طلعة شمسٍ يستغفر الله ويقول: «الشّمسُ والقمرُ بحسبانٍ».

كان ينظر إلَى مكوّنات الطّبيعة نظرةَ مَنْ يقف عاجزًا أمام قدرة الله، يفتنه سيرُ العالم علَى نظامٍ دقيق فيهمهم: «وكلُّ شيءٍ عنده بمقدارٍ».

لمّا وصلنا إلَى «بغداد» كان علَى موعدٍ مَعْ الإمام «محمّد بنْ إسماعيل البّخاري»، فقدَه يوم الوصول وحالتْ بينهما مجالسٌ أخرى، فظلَّ يصلّي اللّيل حتّى بلغ مائتي ركعةً وصولًا لصلاة الفجر، أدّاها وظلَّ يستكمل نوافله، ثمَّ إذا ما لاح الصّبح فوجئنا بالإمام يطرق بابنا، وكنّا نسكن في ملحق بمسجدِ «بغداد» الكبير، وجدتُه هبَّ وانقطع عنْ الصّلاة، وجلس إلَى الإمام يجادله ويستذكر معه ما استخرجه مِنْ كُتب التّاريخ وعِلل الأحاديث والرّجال ويناظره فيما وضعَ، كنتُ ألاحقهما بماء الوردِ وكسراتِ الخبز، انقضتْ ساعات النّهار بينما يتناوشان في المحاورة، وعنْدما انصرف الإمام سألتُه لمَ انقطع عنْ صلاتِه ولمْ يفعلها مِنْ قبْل! فقال:

-إذا فاتتني نافلةٌ أدركتُها، لكنَّ الذي عنْد الإمام إذا فاتتني ما أدركتُه يا «جعفر».

عنْ المأمون بنْ الرّشيد

رأى «المأمون» أحد الفلاسفةِ ذات حلمٍ، ومُنْذئذٍ وقعت الغوايةُ في وجدانِه.

زعموا أنّه كان شديد الولع باستقراء البِدع مِنْ المسائلِ والعلوم والمعارف الأجنبية بلْ واجتراح الضّلالات، ولا يترك العِنادُ رأسَه في مسألة إلّا وأفصح بها جهرًا، بالأخصِّ في شأن الفِقه والفتوى، وهذا ممّا لمْ يؤتَ له ولا علم له به، لا يهدأ له بال إلّا أنْ تصيب النّاس ربكةٌ بسبب أفكاره فيُصبِحون علَى شتاتٍ ومجادلةٍ، وما أكثر ما نصحه المقرّبون وحذّروه ممّا قد ينجم مِنْ خطرٍ عليه وعلى الدّولة!

قال له الفيلسوف في المنام: «كلُّ ما هو وفق العقل خير، وما

دونه لا حاجةَ لكَ به»، جلس إلى قضاته والحكماء والفقهاء وعرَض عليهم رؤياه، فقالوا بصدقِها، «ولو أنَّ الفيلسوف لمْ يزل حيًّا ما أضاف لمَا ورَد في الرّؤيا شيئًا»؛ هكذا قيل له أيضًا.

أمرهم أنْ يخبروا النّاس، فأشاعوا رؤياه، بإيعازٍ مِنْ القاضي «أحمد بن أبي دؤاد»، وحيث كان رأسًا مِنْ المعتزلة، أوحَى له أنَّ إخماد الفتن لا يأتي إلّا بالتّآخي بين شرعِ الله والعقل البشري ومِنْ بعْدهما الإجماع، فاعتزلَ مثْل قاضيه على قناعةٍ، وطلب مِنْ جلسائِه وقوّاده ومستشاريه أنْ يقيموه،

فأقاموه، وسايروا مزاعمه بتفضيل «عليّ بن أبي طالب» وتقديمه على «أبي بكر» و«عمر» و«عثمان» مِنْ بعْد رسول الله، ومِنْ قبلِها اعتنق مزعم المعتزلة بخلق القرآن وأنَّ تقرير القول بأنّه قديمٌ يُسلِّم إلى القول أيضًا بتعدّد القدماء، وقدْ يؤدّي ذلك إلَى القول بتعدّد الآلهة، وهو لشركٌ بالله، فإذا أقام النّصارى الحُجّة علَى أنَّ «عيسى» عليه السّلام قديمٌ فإنّما لأنَّ القرآن قديم وقدْ ثبُتَ مذهبنا علَى ذلك القول، سيصبح كتابُ المسلمين حجّةً لهم، ومِنْ بعْد حجّتِهم نشوز العامّة وتفرّقهم علَى غير رأيٍ، فدعا إلَى عقيدة خلق القرآن، ونصحه «أحمد بن أبي دؤاد» أنْ يحمل النّاس علَى ما يدعو إليه!

فصار لغطٌ وصار جدال.

أنكر القولَ المانويّة وغُلاة الشّيعة، وأهل السّنّة والجماعة وهم كُثر، ثمّ أنكره العلويون استشعارًا لإثارةِ الفتن وزعزعة الصّفوف وإنْ تزعزعتْ ليس لها رأبٌ، والأكثرية مِنْ العوام يؤمنون بعصمةِ الأئمة وأنّ لهم ما للأنبياءِ، وهؤلاء مذاهبهم علَى تعدّدها وكثرتها لها أتباعها، شيع أنَّ «المأمون» ينزَع إلى المعرفة وألّا يستأثر بها أحدٌ دون أحد، فلمْ يقرُّ هذا القول بمجلسٍ ولا رجَحَ إليه إمامٌ.

انفجرتْ «بغداد» برؤيا الخليفة، بين إنكارٍ غالبٍ وتأييدٍ مستحٍ، قال المعتزلة: «بِشارة»، نقلتها الألسنةُ فراجتْ، وُثّقتْ في الكتب وعجّلَ النّاسُ ينظرون فربحتْ تجارتُها، وازدهرتْ حركةُ التّرجمات لصُحِف الفلسفة وللعلوم القديمة مِنْ اليونانية واللّاتينية وغيرها، كان النّاسُ يسارعون إلى فهم ما زعم «المأمون» فتهافتوا على شراءِ الكتب واقتنائِها، رغم ذلك لمْ يجدوا ما يريح خواطرهم في هذا الشّأن، فثاروا عليه واتّهموه بالشّطط والجنوح والمغالاة في أمورِ الفقه ممّا لا يُلزِم، وإنّما يعمد إلَى تصديعِ بنيانهم!

قام ضدّه التّمرّد واستفحلت الحركات الثّائرة، مرّة يثور «الحسن الهِرش» ويجبي المال وينهب القرى ويقطع طرق القوافل بدعوة الرّضا مِنْ آل «محمّد»، وفي الكوفة يثور على أمير المؤمنين «محمّد بن إبراهيم»، فيهيج «الطّالبيون»، وتنشب المعارك هناك، تحترق «الكوفة»، ويخرج نفرٌ مِنْ بني «العبّاس» إلى «البصرة» مطاردين، لقْد حلَّ الخرابُ؛ هكذا قيل!

محمّد بن عيسَى نيسابور - 218 هـ

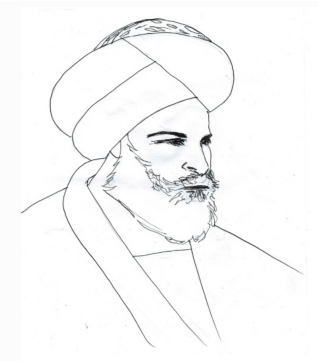

كان أبي قدْ اكتفى بالإنصاتِ دون أنْ يُبدي في المسألةِ المطروحةِ رأيًا، استغربتُه وهو الأشدّ جدالًا إذا تحاور الرّجال، همستُ:

-أراك صامتًا يا أبي علَى غير عادتكَ!

فقال:

-الصّمتُ سيّدُ المجالس إذا دبَّ الخلافُ بين النّاس.

واستدار ببصرِه وقدْ قام واحدٌ من الجَمعِ يعرّج إلى موضوعٍ آخر:

-لقد قطع «المأمون» رأسَ إعرابيٍّ بالشّام وليس يكفيه إلّا أنْ يقطّع رؤوسنا واحدًا بعْد الآخر!

ردّ الخطيب مُدافِعًا:

-بلْ عوقبَ وقد تجرّأ! عرّضَ بالخليفةِ أمام العامّة!

-أما كان يستجديه العدلَ والمساواةَ! وعزّة الله لمْ ينطق بغير الحقّ!

-والحقّ أنْ يعارضه ويقول له انظُر لعرب «الشّام» كما نظرت إلى عجم «خراسان»؟! أيجوز أنْ يتّهم أمير المؤمنين بالجورِ جهرًا؟!

أعادَ أبي رأسه نحوي:

-آه.. هذه القصّة مجدّدًا! ألا يوجد حكيمٌ بهذا المجلس؟!

ثمّ التفتَ إلى الخطيبِ وكان يباري الرّجل:

-دعنا إلى ما نحن نداول فيه من شأنٍ يا رجل ولا تخلط الأمور علينا، إنّما مجتمعون علَى حديثٍ وأنتَ تُخالِف ما اجتمعنا عليه.

-أفي جانبِنا أنتَ أم في جانبِه يا شيخنا؟! ما قولكَ إذن في تعذيبه للإمام «أحمد بن حنبل» وضربه له وسجنه وهو مَنْ هو؟!

قالها بلؤمٍ، فأشار إليه الخطيبُ في غضبٍ ألّا يضِف وبدا أعجزَه السّؤال.

ذهبوا في جدالهم إلى كتاب «توفيل بن ميخائيل» ملك الرّوم منذرًا «المأمون»، بعْدما اعتدى على المسلمين وقتل قرابة الألف وستمائة إنسانًا في أرضِ «طَرَسُوس» بتحريضٍ مِنْ «بابك الخرميّ»، أحسستُ بأبي وقدْ غامتْ روحه عنْد ذِكر «بابك»، أسبَل جفنيه وعضّ علَى شفتيه مِنْ الذّكرى، وتراقصت الدّموع في عينيه وإنْ لمْ تنحدر.

قال رجلٌ:

-عندما قرأ «المأمون» خطاب «توفيل» قام بجيشه صوب بلاد الرّوم، وصحبه أخوه «أبو إسحاق» نائب «الشّام» و«مصر»، ووالله لقدْ أرهق بيت المال إنفاقًا علَى الجيش!

ردّ آخر:

-لكنّه أثناء رحلته افتتح البلدان صُلحًا واغتنَمَ..

قاطعه:

-وغزا بلدانًا عنوةً واغتَنمَ أيضًا، وهدَّمَ أخوه ثلاثين حصنًا، وأسر نفرًا مِنْ الذّراري وآخرين، وأحرق الحصون.

-وقتل كُثرًا من الرّوم وأقام ببلادِهم وقد ظفر.

-لكنّه عاد إلى «دمشق» ومنها إلى «مصر» وترك جيشه علَى محكّ الرّوم!

-عاد بعْد أنْ قويت شوكة «عبدوس الفِهري» الذي تمرّد على نوّاب «أبي إسحق»، وهُيّئَ له أتباعٌ كثيرون أيّدوا حركته الثّائرة ضدّ الخليفة.

-بلْ قُل انتصَر «عبدوس» على نوّاب «أبي إسحق» ونال منهم وذبّحهم!

وفيما انفعل الرّجال وبلغوا حدّ التّلاسن ما بين قلّةٍ مؤيّدةٍ وأكثريّةٍ معارضةٍ كانت الرّيحُ اشتدّتْ، وتحيّر أبي في فوضى الآراء وتضاربها ولمْ يدرِ لأيّ أمرٍ أقاموا مجلسهم! فاستغرق يصلّي، والنّهارُ إلَى زوالٍ.

فرغ من صلاتِه وشدّني من يدي لنغادر مجلس الخلاف والمشاحنة، وقدْ بدأ التُّجّارُ يلملمون مفروشاتهم المعروضةَ أمام الدّكاكين والهواءُ البارِدُ يطوّح متاعَهم.

طواني أبي تحت ذراعِه والرّيحُ تزوم، توجّهنا إلى خانٍ كي نبيت ليلتنا، قضى أبي اللّيلة في القيامِ وقراءةِ القرآن، بينما كنتُ أنتظر الصّباح دون أنْ تغفو عيناي متحفّزًا للقاء الإمام.

انطلقنا إلى المسجد عند إشراق النّور، استطاع أبي أنْ يلج في الزّحام، وأجلسني علَى مقدّمة حلقة الصّبيان، وجلس ورائي، كان الإمام «محمّد بن إسماعيل البخاري» قدْ دخل إلى «نيسابور»، وها هو يصلّي، هالةُ نورٍ تحيط به، وبشرٌ كثيرون، أجسادُهم غيمٌ، وأرواحهم تتّفق، إلّا مِنْ بعض الدّخلاء الذين لمْ يرق لهم تعظيم واحتفاء وإجلال أهل «نيسابور» بالإمام، وقدْ استقبله على بوّابتها تكريمًا وحفاوةً قرابة الأربعة ألف رجلًا يركبون على خيولٍ وحميرٍ وبغالٍ ودواب أخرى، وظلّ أولئك الدّخلاء يهمهمون على استحياء أنَّ قدوم الإمام «البخاري» إلى «نيسابور» جعل طلّاب العلم والتّلاميذ يهجرون مجالس المحدّثين الآخرين لأجله، فأوغر ذلك صدورهم عليه، كانوا يتحدّثون بغيظٍ، فاستشعرتُ أنّهم يدّبرون كيدًا للإمام!

ننتظر أنْ يفرُغ الشّيخُ من صلاتِه، كان خاشعًا وليس يشغله عَنْ صلاتِه حضورٌ آخر، ولمّا سلّم واستدار إلينا كأنّه الضّياءُ علَى بكارتِه، إنّه الإمام الذي قصدته مع أبي للدّرس والتّعلّم، هذا الذي تعرّفتُ

علَى كُتبِه في المقرأةِ بـ «طشقند»، وارتحلتُ مَعْ أبي انضمامًا إلى حلقتِه، عندما طلَّ علينا كان وجهُه سمحًا والورعُ يبين منه، وكان الذي رسمه خيالي، أو ما أوشك أنْ يُطابقه، وما كاد يلتفتُ إلينا حتّى حوصر بالدّخلاء يجادلونه في مسألةِ القول باللّفظ في القرآن كما يزعم المعتزلة؟! فلمْ يردّ.

قام واحدٌ وأعاد:

-ما قولكَ يا إمام في اللّفظِ بالقرآنِ هل هو مخلوقٌ أم غير مخلوق؟

لمْ يجبه الإمامُ واكتفى بأنْ أشاح بصره، فكرّر الرّجل عليه:

-يا «أبا عبد الله» لقد كتب الخليفة إلى أمراء الأمصار أنْ يمتحنوا فقهاء الأمّة بهذه المسألة وها نحن نستغلب علَى جهلنا بعلمكَ!

أعرَض عنه ثانيةً، فتصايح مع الرّجلِ أتباعُه.

لوح الإمام بكفّه يُسكت هذا الجدل، لكنّهم ألحّوا عليه للمرّة الثّالثة، فتنهّد وقال في نفاد صبر:

-ليس للخليفةِ ولاية على الفقه، القرآن كلامُ الله غير مخلوق، وأفعال العباد مخلوقة، والامتحان بدعة.

وانفجر المجلس باللّغط والشّغب ما بين تهليلٍ بإكبارٍ ورفضٍ بحنقٍ، وتفرّق النّفرُ الدّخلاء وانصرفوا بعْد أنْ حسم الإمام المسألة، وكأنّما أوقعوه بهذا الرّأي، حيث بدا على وجوهِهم أنّهم استراحوا في حين ينصرفون، فهكذا لنْ يسلم الإمام من أذى «المأمون» وسيصبح جزاؤه التّنكيل وستخلو المجالس للمحدّثين الآخرين!

وبينما يتجادلون، هبّت الرّيحُ ثانيةً، علَى شدّةٍ وعصفٍ، وصاح أحدُهم ينذر وهو واقفٌ على بابِ المسجدِ:

-السّماح يا إمامنا، فضّوا مجالسكم وأشغالكم، ستغرق الرّساتيقُ وتقع البيوتُ.

استفهم أبي، قال له الرّجل علَى عجلٍ إنّ الرّيحَ هنا موسميّةٌ، وأشار إلَى الجبلِ القريبِ:

-الرّيحُ تهبّ مِنْ المغارةِ العجيبةِ ببطنِ الجبلِ، يندفع معها ماءٌ تكفي قوّتُه لإدارةِ الرُّحَى.

لمّني أبي واندفع بي منصرفًا، كانت الرّيحُ قدْ خلقت الفوضى في الشّوارع، وتزاحم الرّائحون والآتون من الدّكاكين والأسواق،

إلى البيوت وإلى الخيام، كان أبي ينازع أنْ ننجو من الزّحام وننفلت، كان الخانُ الذي سنبيت فيه ليلتنا متطرّفًا عن موقعنا في ظلّ الفوضى المُستفحِلة، ضاقتْ بنا الدّروب وتفرّعتْ، وتداخلتْ بيننا الأجساد المهرولة، وفجأة تُركتُ غصبًا، بحثتُ عن يد أبي فلمْ أجدها، احتجزوه عنّي وأبعدتُه أجسادُهم بلا عمدٍ، وإنْ كان نداؤه المُلتاع يصلني، ثمّ يتقطّع صوتُه شيئًا فشيئًا حتّى يتلاشَى مِنْ حولي، فرّقنا الغبار الذي تكاثف حول أعيننا، تهتُ في الزّحام، صحتُ بلا جدوى، كيف تباعدنا؟!

تحجّرتُ في وقفتي، كان ظنّي أنّ أبي سيجدني إذا انتظرته بمكاني، لكنّ يدًا أخرى شدّتني، دُرتُ برأسِي فلمْ أُدرِك صاحبَها، سحبني وجرجرني ليعدو بي في اتّجاه غير الذي أعرِف؟!

المُعتَصْمُ بالله بنْ الرّشيد طرسوس - 218 هـ

البيعةُ تجري علَى توكيدٍ، الجموعُ تحتشد مِنْ بعْد صلاةِ الفجر، جاؤوا مِنْ الأصقاعِ وضربوا سفرًا طويلًا وكنتُ كاتبتُ مواليَّ حال وفاة «المأمون» ولم أتباطأ، بعْد يومين من الجنازةِ كانتْ «طرسوس» تأهّلتْ بالجيوش والأمراء والولاة مِنْ الأمصار؛ «خراسان» و«مصر» و«العراق» و«الشّام» وغيرها، عربًا وفُرسًا وأتراكًا، كنتُ قدْ استمهلتُ جماعة «طرسوس» إلى أنْ يدركنا بقيّةُ المبايعين.

الجموع أمواجٌ، والمحفلُ مشتعلٌ بالهتاف، ولا أعرف لمَ يبدو كلَّ هذا مفتعلًا؟! لمْ أتوقّع المحبّة أبدًا ولا القناعة بي، بلْ إنَّ بأسي أكفَى لهم، بعضُ الوجوه حزنُها واضحٌ، فلا أكترث، قدْ مُنحتُ البيعة وانتهى الأمر، وفي باحة دار الإمارةِ هُيئت المجالسُ، تكدّسوا، أدير في الوجوه بصري المُرهق، الأجساد كثيفة بعضها منكمشٌ في بعضٍ، وفيما فوق الرّؤوس أرَى أبي، كأنَّ به يباركني، ومِنْ خلفِه يظهر شيخ الحلم العجوز، علَى يدِه نفس الكفن، بمَ ينفّر عليَّ؟! علَى حذرٍ رحتُ أفتّش بعينيَّ بين الجموع، خشيتُ أنْ يكون يومُ بيعتي هو يوم غيلتي، خاتمُ الخلافة بإصبعي، أدرتُه عليه في قلقٍ، لمْ يكنْ فؤادي مطمئنًا لهذا الجمع، تثلّجتْ أطرافي، حولي الحرّاس والعساكر والغلمان والحاشية، لكنَّ شيئًا يثير رجفتي، هل دبّروا ناحيتي أمرًا؟! هل سينفّذونه الآن؟! ما الذي دهاني

لأتمّم البيعة في أرض الفرس؟! لعلّه شرك! لستُ أدري! أم أنَّه إحساس اللّحظات الأولى مِنْ تمام التّسيّد؟!

بصري يرحل إلى هناك حيث حزمة من أشعة الشّمس المشتبكة بين السّحب تتمسّح بالسّماء، وجه أبي ووجه العجوز ينصهران وراء السّحب.

أتقدّم إلَى مجلس الخلافة، كرسيٌّ وثيرٌ وتكايا لجلوس القُضاة، نفضتُ عنّي خاطري، ممَ أنا خائفٌ؟! لا صوتَ يُمكنه النّهوض ضدّي، وقدْ ائتلفتْ لي كلُّ الأصوات بعْد أنْ بايعني «العبّاس»، ها هو يجلس يطأطئ رأسَه يتألّم ممّا يجري دون إرادتِه، غير أنّه قطع على مَنْ في نفسِه أمرٌ بتنازلِه لي، فأسكت زمرتَه وسيقوا لي علَى غير هوى.

سيطرتُ علَى الفوضى التي أنشبها الفُرس في دروب «طرسوس» وحواريها، سجنتُ جماعةً منهم وفتكتُ بجماعةٍ، إنْ كان للخلافةِ أنْ تقوم علَى الدّمِ فلتقُم، ممَ أنتَ خائفٌ يا خليفة المسلمين إذن؟!

رفع كبيرُ القُضاة «أحمد بن أبي دؤاد» صوتَه:

-تنازل «العبّاس بن المأمون بن الرّشيد» لعمّه «أبي العبّاس بن الرّشيد» عنْ الخلافةِ مِنْ بعْد أبيه، وقدْ ولّى «المأمون» أخاه «أبا العبّاس» وكنّا شهودًا في مجلسِه.

وحوّم بينهم:

-فاليوم يُبايَع «أبو العبّاس» أميرًا للمؤمنين، ومَنْ كان في قلبِه

نيّةٌ فليُفصِح وإلّا ليصمت، أتبايعونه؟!

ضجّ المجلسُ بالهتاف والأصوات المؤازِرة، لوّح بيدِه فهدأوا، صاح فيهم:

-فلنكتتب.

وطلَّ بعينيه إلى الكاتب.

استوى الأمرُ، دنا «حيدر بن كاوس الإفشين»؛ وزيري الذي عيّنتُه بعْد «الحسن»، نحو رأسِي وعمّمني بعمامة المُلك، رفعتُ له يدي فدسّ في أصابعِها الخواتمَ، قال «أحمد بن أبي دؤاد»:

-أما وقدْ بويع «أبو العبّاس» اليوم علَى تأييدكم ومباركتكم خليفةً للمسلمين ولغير المسلمين علَى كافّة الأصقاع الإسلامية، عربًا وغير عرب، وما لدولة العبّاسيين مِنْ أطرافٍ ومتونٍ وضيعاتٍ وأراضٍ، وما سيكون مِنْ فتوحاتٍ وغزواتٍ وما يضمّه إليها أميرَ المؤمنين، فاليوم خليفتُنا يُكنَى

بـ «المعتصم بالله بن الرّشيد»، لقبه بين العامّة والوزراء والقُوّاد والحُكماء وموظّفي القصر ورجاله وحرّاسه وخدمه وغلمانه وجواريه وإمائه، سيُصكُّ له ختمٌ وتدمغ به الدّنانير والدّراهم وتُمهَر به الأوراق والمكاتبات، وعلَى هذا نتّفقُ ونقرُّ البيعة.

سمّوا بالله وهلّلوا، ورفعوا أقداح الشّراب وتباسطوا في المجلس، وقدموا إلى يدي يلثّمونها، نُحرت الذّبائح وأُعدّت الولائم، وتكدّستْ الهدايا في المخازن، وخرج منادٍ يهتف في «طرسوس» أنَّ الجميعَ مُرحبٌ به عشيّةَ الغد للاحتفال بالخليفةِ «المعتصم بالله بن الرّشيد» أميرًا للمؤمنين.

عيسَى بن سَورَة بن الضّحّاك بوغ - 209 هـ

هُوجِمتْ «بوغ» غِيلةً وعدْوانًا، كسحتْ عليها الجيوشُ الجرّارة مِنْ جِهة الغرب.

لمْ تكنْ «بوغ» كسائرِ قُرَى «تِرمذ»، وليستْ تماثلُ طبيعةَ أرضِها بلدةٌ أخرى، تنهضُ سلسلةٌ من التّلال الصّخرية علَى حراسةِ حدودها البعيدة دون كللٍ، تتّصل التّلال بسفحِ جبل «تيان شان» عبر حلقاتٍ مِنْ الكثبان الرّملية كحُصنٍ تُجرّر الأرسانَ، فيما تتدفّق مِنْ مناكبِ الجبلِ الرّوافدُ النّهريةُ العظيمةُ ذوات المياه الثّائرة المتلاحقة، والتي تصبُّ جميعُها في مجرى نهر «جيحون».

يحمِلُ نهر «جيحون» المياهَ وينصرف بها غربًا وصولًا إلى «بوغ»؛ ولأنّها ليست كسائرِ قُرَى «تِرمذ»، فقدْ أرغمتْ «جيحون»

على الانعطافِ شمالًا نحو بحر «الآرال» لينتهي إليه، فيفصِلُ بين «خراسان» وبين بلادِنا، بلاد ما وراء النّهر؛ أو كما زعم العَربُ.

تقوم قريتُنا علَى ضفّة النّهر وتستدير معْ استدارتِه، يطوّق النّهر البيوتَ فكأنّما ينبع منها ثمّ ينفتح على القُرى الأخرى.

في أوقات الصّبا تعوّدتُ أنْ ألهو في النّهر، صارتْ بيننا ألفةٌ، ولأنّ بيتَنا كان مشرفًا على ضفّته، فلمْ يكن أحدُنا يخشى الآخر، لا النّهر ولا أنا.

فوق النّهر جسورٌ لمرور الدّواب متّصلة بالأخشابِ عرضًا وامتدادًا، وأعمدتها أيضًا مِنْ خشبٍ مثبّتٍ بالسّلاسل في القاعِ، والنّهر مِنْ جهة الغرب، فإذا أشرفَ علَى القريةِ مِنْ جهة الشّرق زائرٌ لأرجأ الدّخول مِنْ بوّابتِها إذ تهاب نفسُه ضخامةَ السّور الضّارب حولها فوقفَ ليتشبّع مِنْ بهائِه وحُسن صنعته، وأمام السّور خندقٌ غائرٌ لحماية «بوغ».

أمّا أسواقُ «بوغ» فمغطّاةٌ بالآجرِ، يتاجر فيها الرُّحل وأصحاب الحِرف مِنْ عطارةٍ ونجارةٍ وحِدادةٍ، زاخرةٌ بالحياةِ وإنْ انبرى أهلها يعملون بالزّراعة علَى هوىً بأنفسِهم وإتقانٍ.

بيوتُها مِنْ حجرٍ وطينٍ، شوارعُها مثْل النّسائر الممطوطةِ كشرائحٍ تلحّم القريةَ بعضها ببعضٍ، وكأنّما انتُزِعتْ مِنْ لحمِ أجسادِنا، قريةٌ لا يعرف أهلُها لغيرِها شعورًا في الانتماءِ والمحبّة وبدأبٍ علَى الاشتغال فيها بلا شكوَى ولا قنوطٍ، مستأنسون، يزرعون ويقلعون ولا يعرفون غير هذا، ينزعون إليها كجذرٍ يضرب في عُمقِ الأرضِ متّجهًا إليه متشبّثًا به، يطردون مخاوفَهم بالاكتفاء، إذ طالما كفّوا عوزَهم بالرّضا، وتغالبوا علَى الضّيق بالصّبر.

لكنّنا، ونحن الآمنون، جيءَ بالحربِ إلينا، والمعركةُ لا معركتنا ولا كنّا طرفًا فيها ولا أعددنَا لها!

على مرمى الأبصارِ الملتاعة تحوّم قوّة من فرسان الرّوم بجيادِهم، عرفنا فيما بعْد أنّها قوّةٌ من الرّدفاء، منفصلة متنقّلة، تغزو ولايات العبّاسيين وتداهمها مع فصيلٍ مشتركٍ من جيش «بابك الخرميّ».

يملئون قريتنا، ملامحُهم جامدةٌ متحفّزةٌ، سيوفُهم في أطنابِها، لمْ تُستَل بعْد، وهم يقتحمون القرية على كثرةٍ وعلى غلبةٍ، يُحتَجزون عندما تستوقِف أقدامَ الخيولِ ضفّةُ النّهر، ثمّ يجتاحون القرية،

ينتشرون في الأسواق يغلقونها وفي الدّروب يسدّونها، الجُندُ عددٌ يستحيل مجابهته، والنّوافذُ مُشرَعة، وأعين النّساء ترمق في فزعٍ، الحربُ هناك بين العربِ والرّومِ فمَنْ جلبهَا إلى «بوغ»

الهاجِعة؟! هكذا كانتْ تساؤلاتنا القاصِرة!

صاروا بيننا، على أعتاب بيوتِنا، يرتدون خوذات وأحذية من الفولاذ ودروعًا من الزّرد تكسوهم من رقابِهم حتّى أفخاذِهم، وعباءات خفيفة تغطّي أسلحتهم، رماح وخناجر وسيوف عريضة وجعب سهام، وفؤوس ذات أنصال قاطعة من جهة وأسنّة مدببة من الأخرى، وأقواس رماية متدلّية على أجناب الخيول.

لم نعُد رقمًا في معادلة الحرب منذ زمن الإمبراطور «هرقل الكبير»، خلف الغارةِ غرضٌ إذن، لم يكن خبر موت ملك الرّوم «ميخائيل بن جورجس» قد ذيع وانتشَر وصولًا إلى «بوغ» حتّى لحظة الغارة، وأدركنا أنّه أخلف وريثًا أشدّ ما يبغض هم المسلمين وخليفتهم «المأمون»!

«توفيل»؛ وريث أبيه، لمْ تكنْ مراسم تقليده بإكليل ملك الملوك قدْ جرتْ بعْد، وعرفنا أنَّ منازعات تجري بشأنِه، غير أنّه عجّلَ وأبرم اتّفاقًا مع عدو العبّاسيين «بابك الخرميّ»، بعدما اشتدّ ساعده في «أذربيجان»، تعاضدا وقرّرا أن يدمجا فيلقًا ليهاجما ولايات «المأمون» النائية كي يفتّتا مُلكه نفاذًا إلى قلب سلطانه في «بغداد».

حتّى إذا ما سطعت الشّمس لتمامِها، وجدناهم قدْ تمكّنوا مِنْ زِمام القريةِ مشرقًا ومغربًا فاستحكَموا وطوّقونا، تدفّقوا إلى أفنية البيوت وفي ساحات القريةِ جحافلَ، يقيمون الفوضى، يقلّعون الأشجار ويقصّفون الزّروعَ ويهدّمون الحمّامات ويلقون بالنيران فوق أسطح إسطبلات الخيول وحظائر الماشية على سُعارٍ، وسرعان ما اشتبكتْ النّار معْ الأسقف والحطب والأخشاب والقشّ، فاندفعت البهائم والأحصنة والدّواب باتّجاه النّهر مشتعلةً كي تُطفئ أنفسَها، لكثرتِها صنعتْ بأجسامِها جسرًا موازيًا يصل بين الضّفتين، ألقى الفرسانُ مشاعلهم في عشوائيةٍ بين البيوت، عمّتْ المحارقُ، ممّن يقتصّون؟! أيقتصّون مِنْ الخليفة العبّاسيّ فينا؟!

حاول بعض الرّجال ردَّ الجنود دون بيوتِهم بلا جدوى، السّيوف لمعت، وارتفعتْ مُنذرةً، وحزّتْ أعناقَ الرّجالِ متهيأةً، وتلاحم بعضُنا

مع بعضِهم يزودون عن بيوتِهم، فحاصرونا، شدّوني مِنْ على بابِ بيتي، حاولتُ الفكاكَ لكنّهم ضمّوني قسرًا مَعْ بقيّة الرّجال.

صفّونا طوابيرَ وقادونا إلى حيث فرقة مهمتها تكبيل الرّجال وحشرهم عنْد زاويةٍ على مقربةٍ من البيوت، اعترض بعضُنا، وزاموا، وسبّوا ولعنوا، فحشّت سيوفُ الرّوم رأسين وثلاث وسط العويل، وانفجرتْ الدّماءُ معْ أصواتِ الصّليل، سالت فوق الآجر، بلغتْ أقدامنَا التي ترتعش، وازداد الصّراخُ أكثر فأكثر، وجيادُهم مستغرقةٌ في الحمحمةِ علَى حرونٍ.

الأدخنةُ تهرب إلى السّماء، والفرسان ربطوا خيولهم في حشايا بيوتِنا التي أبعدونا عنها قسرًا، احتجزونا في العراءِ في المراعي المنبسطة أمام كُتلة البيوت، وقيّدونا واحدًا في يدِ الآخر، حاولتُ أنْ أتحرّر مِنْ قيدي بلا جدوى، كانتْ عيناي تتابعان الجنود الذين راحوا يقتحمون البيوتَ غير المؤهّلة لاستقبالهم واستضافتِهم، خشيتُ أنْ يدخلوا إلى بيتي، البابُ موصدٌ لكنّهم يهشّمون الأبواب ويحطّمون متاعَ البيوت ويلقون بها إلى الخارج!

«سليم» يجأر بجواري أيضًا، لا نستطيع الانفلات من الحبال المجدولة بعُقدٍ مستحكمةٍ حول أجسادِنا، قال «سليم» في كمدٍ:

-الرّوم وكلبهم «بابك الخرميّ» الوضيع الرّاعي مجهول النّسب! والله لولا الغفلة ما تمكّنوا منّا!

-والكثرة كذلك.

-كيف سنظلُّ بلا دفاعٍ وقدْ استوطنوا قريتنا؟! كيف نحتمل الهوان؟!

-ولقد خلقنا الإنسان في كبدٍ.

-لا والله إنَّ الإنسانَ لفي خُسْرٍ!

-ولكنَّ الله عزيزٌ قديرٌ.

-إنَّ اللهَ يُحبّ الذين يُقاتلون في سبيلِه.

-ما زلنا في سكرةِ المفاجأة، لكن علينا أنْ نتروّى، خفّف عنك.

-ونحن مقيّدون بهذا الشّكل! مالي أراكَ هادئًا هكذا؟!

-لكلّ قيدٍ تدبيرٌ والله خيرُ مَنْ يُدبّرُ، فيَّ أضعافُ ما فيكَ مِنْ غضبٍ، لكنَّ الغضب لنْ يُجدي، ليس يُجدي سوى التّفكّر في مثْل اللّحظة الرّاهنة!

رفع «سليم» عينيه للسّماء:

-أعنّا يا رب وأغثنَا مِنْ «بابك» الذي كفر بكَ ويجادل في فردانيتكَ.

دنا اللّيلُ، لا طيورَ في السّماء، وقدْ صرفها الدُّخانُ الكثيفُ الذي أحاط بقريتِنا كمظلّةٍ ضبابيّةٍ، كنّا أوشكنا أنْ نختنق والدُّخانُ مِنْ حولِنا، وكانتْ نساؤنا قدْ اجتمعنَ في بيتٍ أو اثنين وتركْنَ البيوتَ للفرسان خشيةَ بَغْيِهم، الفرسان استحوذوا على البيوت، تمركّزوا وأقاموا فيها عبر فترة النّهار التي مرّتْ ببطءٍ، ظلَّ «سليم» يهذي في سخطٍ وغلٍّ، يكزّ على أسنانِه مغتاظًا، لا سلاحَ لدينا وليست المقاومة ذات طائلٍ، إنّ الأحداث التي جرتْ على مدار اليوم كأنّما تاريخ يُسطَر مِنْ جديدٍ، وفي حين خَطَتْ قدماي خارج بيتي كان الجحيم، تُرِكتْ حياتي السّابقة داخل هذا البيت الذي احتلّه الجنود، أتطلّع إليه، لا أُبصِر غير اللّيالي الهانئة، غاج فؤادي، وقدْ استُبْدِلَ الذي هو معتدٍ بأصحابِ الدّيارِ ومُنْشِئوها!

قتلةُ معشَر قريتنا يتمشّون بيننا إمعانًا في إذلالنا، يشيرون نحونا هازئين من قيدِنا وهوانِنا وقلّةِ حيلتِنا، يثرثرون بلغةٍ لا نفهمها، لكنّ رأسي مشغولة بزوجتي و«محمّد»، أخشى مْنْ اللّحظة القادمة، أخشى مِنْ غدرِها، أنْ يستأنِف الجنودُ بطشَهم في نسائِنا إذا جعلوهنَّ سبايا، فتراءى لي ما تراءى مِنْ همٍّ وجُزّتْ روحي، فارتْ رأسي، إنْ قُتلَ الرّجالُ جميعهم فليبقَ أبناؤهم ونساؤهم يحملون ذكراهم بأقلِّ تقديرٍ!

اللّيلُ يضرب في عتمتِه، شعلاتُ القناديلِ تتراقص في بدنِ قريتنا والنّارُ واهنةٌ، شخير الجنود يصل إلى مسامعنا، عاثوا في بيوتِنا واستطابوا أسرّتَنا، الخيول هاجعة، وصرير الحشرات يأتي متقطّعًا من جهة الحقول، موجُ النّهر يرفُّ بين الجيف ولمْ تكنْ كلّها قدْ جرفها التّيارُ بعْد.

الرّجالُ صامتون، والحرسُ يتناوبون على مراقبتِنا، تنكسر نظراتُنا داخل أعينِ بعضنا البعض، لسنا بارعين في القتال وفي الزّود عن أنفسِنا، كنّا مسالمين، نزرع ونتناسل ونهنأ بخيراتِ قريتِنا وندرس الدّين والفقه ولمْ نستعدّ لمجيء يومٍ كهذا، لمْ يُستدعَ أحدُنا إلى حربٍ أو معركةٍ ولا جهاد، كأنّنا ساقطون مِنْ حسابات الخليفة، لا يعرفنا ولا نعرفه، لا يشاركنا أمرًا ولا نشكو شيئًا ولا يصلنا من بيتِ

المال ما يصل إلى كلّ الأصقاع.

يشرُع «سليم» في مناوشاتٍ خافتةٍ مع قيدِه يريد حلَّه، ساعده جسمه النحيل على توسعةِ الحبل، شيئًا فشيئًا وبعْد منازعةٍ يُفلت يدًا، فأخرى، أخذتِ الدّماءُ تسيل على معصمِه خيوطًا وقد تورّم، رفع إصبعه نحو فمه وأشار لي ألّا أُبدي حركةً، حدّق بعينيه في الرّجال أنْ أعدّوا أنفسَكُم وتأهّبوا، كان الحرسُ يسيرون على ارتيابٍ فيما بيننا، تصنّعنا الهدوء، أوحينا إليهم بالخنوعِ التّامِ والاستسلام لمَا وقع علينا، مرّتْ ساعةٌ ويزيد، وبمجرّد أنْ اطمأنَ الحرسُ وبدأوا يستديرون عنّا ويتخفّفون من دروعِهم حللنا قيودنا واحدًا بعد الآخر، علَى حذرٍ وحيطةٍ.

في حرصٍ يتحرّك «سليم»، يسحب بلطةً معلّقةً في نخلةٍ كان يعرف مكانها، تبعناه نخشى أن نُصدِر صوتًا، يشاهدنا واحدٌ من الحَرس، وقبْل أن يصيح يشجّ «سليم» رأسَه، فتنكتم صيحتُه، يتسمّر الرّجال، لكنّ «سليم» يقودنا بإيماءةٍ، اختبأنا تحت تعريشةٍ من العنب عندما لمحنا بعضَ الفرسان يسدّون طريقنا إلى البيوت، الدّرب فيه شعلتان لا تكفيان لرصدِ أطيافِ الفرسان المتشابكة الذين يقفون خارج البيوت وتعلوهم فروعُ الأشجارِ، على ضوء القمر توجّهنا نحو النّهر من الجهةِ الأخرى، كانتْ خطّةُ «سليم» أنْ نلتفّ مع الضفّةِ فنباغتهم من حيث لا يحتسبون، لكنّنا مَنْ بوغِت، ثمّة فارسان يمشّطان ضفّة النّهر جيئةً وذهابًا!

رصدنَا أحدُهما، صاحَ وهمَّ يعدو باتّجاهِ البيوت، فتكالبنا عليهما، بالبلطةِ هوَى «سليم» علَى رأسِ واحدٍ فانفلقتْ، وسقطنا على الآخر ودفّسنا جسمه بأقدامِنا فانزلقَ في النّهر متدحرجًا، لكنّ الأمرَ احتدم، وهرع الجنودُ نحونا من عند البيوت وهم ينادون أحدهم الآخر، يحملون رماحهم وسيوفهم.

تصهل الجيادُ، تتلاحم الأجسادُ، يسقط منّا رجلان أو ثلاثة عندما نشتبك، إنّما ننفذ من بينهم إلى بيوتنا عبر المعركةِ، نتناول ما طالته أيدينا وقدر المستطاع مِنْ العصيّ والبِلط والفؤوس والسّكاكين والمناجل، نهبّ، نطيح فيهم، تتناثر الدّماء، ووقت أنْ أدركوا واستفاقوا كنّا قدْ نلنا منهم عددًا لا بأس به، رأيتُ قائدَهم واقفًا خلف نافذةٍ يخشى الخروج، في عينيه روعٌ وارتجافٌ، وأنا قابعٌ فوق رأس أحدهم أنسّرها، أتوحّش على غير طبعي، أستخرج

عظامه، أنتزع قلبه، أمزّقه بأسناني، وأصرخ مِنْ سخطي، والبقيةُ حولي يتناحرون، لكنّهم سرعان ما يلملمون أنفسَهم ويشكّلون حولنا دائرةً، و«سليم» يزبد، ويرغي، وتأتيه الضّربات من كلّ اتّجاه، ويقع، ويهبّ، ويقع، ولا يبدو له قيام، وقدْ تسلّختْ قدماه.

أرمي نفسي عليه، فيقلبني ويعتليني ويرقد عليَّ خوفًا مِنْ الضربات الطّائشة التي تغافلنا مِنْ كلّ اتّجاه، لمْ أعد قادرًا علَى الاستدراك، وهو يجاهد أنْ يحميني، لا أرى السّماء ولا أرى البيوت ولا هواءَ يدخل إلَى صدري، فقط الدّم يغرقنا، أحاول التشبّث بأيّ شيءٍ، دون جدوى، وفي ظلّ المعمعة تحشّ السّيوفُ الرّقابَ، وتنهمر دماءٌ أكثر، «سليم» تنبض عروقُه، وينتفخ وجهُه، ولا يهدأ، ولا يكترث بالضّربات القادمة إليه تستهدفَهُ، يقاتل كأنّه اليوم الأخير على الأرض، وسيفٌ غادر ينغمس في ظهره.

يتحشرج صوتي، يستدير «سليم» إليّ وفي عينيه دمٌ، تنفتح قريتُنا على الجنون، أقدام الجنود ترمي جثث الرّجال في مجرى النّهر، وأرى زوجتي، رغم وهنها، قادمةً نحوي تعدو من قلب أحد البيوت، وتعوي.

أحاول الفكاك من حصار الجنود، وقدْ سيطروا على تمردّنا سيطرة كاملة، لا صوتَ يُمكنه الخروج ولا شيءَ غير الحسرة، المشاعلُ تترامى على البيوت من جديدٍ، وزوجتي النّارُ مشتعلةٌ في جسمها،

أين «محمّد»؟! لا أعرف!

أستندُ على مرفقيّ وأكابدُ أنْ أكبُّ الألمَ مِنْ أحشائي قيئًا، وإنّما الألمُ ليس يخرج، لا قيءَ يُمكنه نزعَ ما يمور في نفسي، تستغرقني مزقةٌ في روحي، كان الموتُ محلّقًا هناك في الأفق، وبدا عجوزًا مُتعبًا وهو يلملم الأرواح ويودّ لو اكتفَى، الرّيح والنّار يتطايران مِنْ حولِنا علَى اتّفاقٍ، لمْ يعُد أحدٌ يبحث عَنْ النّجاة لأنّها صارتْ أملًا فاقد المعنى، إنّنا نبحث فقط عَنْ التّلهي أو الهلاك، أيّهما أقرَب، هل مِنْ شيءٍ سوف يرمّم هذه النّدوب؟! هل باستطاعةِ الموتِ أنْ يحسم هذا النّزيف مِنْ الأرواح؟! آه ما الذي كانتْ عليه قريتُنا ثمّ لم يعُد؟!

السّماءُ علَى احمرارٍ، والجنونُ شرعُ البَطش، الأحداثُ ستستقرّ جميعها إلى فوضى، فوضى في نفوسِنا وفي مستقبلنا، هذا إذا قُرّر لنا قادمٌ!

نحتشدُ أمام المأساةِ كأنّما نستسقَى مذاقَها المُرّ مثْل رضّعٍ، الجثث محمولة إلى النّهر، والنّهرُ لونُه بلونِ المأساة، والمأساةُ ستصبح نسق الحياةِ مِنْ بعْد، والحياةُ والموتُ كلاهما مُرهقٌ، لو أنَّ الزّمنَ يتوقّف!

فلنَمُتْ جميعًا إنْ كان لهذا معنى يا الله!

الدّماءُ جرت على بصري، آخر ما رأيتُه كان رمحًا يطير في الهواء وينغرس في جسد زوجتي فيشطره، لم تتحرّك من مكانها، تجمّدتْ، ثمّ وهي ترفع يدَها بضعفٍ تستنجد بي سقطتْ، تحاوطها الألسنة المشتعلة، وحيثما ظلّتْ النّار تلتهم ملامحها، لمْ أعُد أرى شيئًا، فقط ظللتُ أستصرخُ نفسي وكان صوتي المبحوح يناضل أنْ يطلع:

-«محمّد».. «محمّد»!

جعفرُ بنْ أبي الحافظ 248 هـ

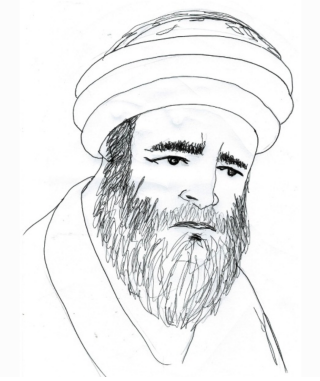

بلغنَا قريةً تقف بيْن جبلين، أحدُهما تكاد تقفز الصّخور مِنْ صدرِه نحونا لولا أنّه استمسك بها فبدتْ مشدودةً إليه علَى إرغامٍ، والآخر يلفّه الضّباب ولا يبدو منه غير كتلة خابية، سافرنا شهريْن للقاء واحد مِنْ الأئمة الزّاهدين الذين اعتزلوا السّفر والنّاس ووهبوا حياتهم للعبادة، قال «أبو عيسَى» عنه: «آراؤه خطيرة وفارقة»، وتكبّد مشقّة الرّحلة لسماع هذه الآراء وتفنيدها.

دخلنا إلَى القرية في ساعة نهوض الصّبح، غبشةُ دخان متراكمة فوق البيوت، والنّخيلُ يعانق أسقفها كأنّه يتسامر معها، السّحبُ تمرُّ في السّماء فوقنا متهادية لا علَى إسراعٍ ولا علَى علوٍ، شخص «أبو عيسَى» بعينيه نحو وداعة القرية وبيئتها في مثْل هذه السّاعة، وتمتم وشهَّد واستغفر، ثمَّ نظر لي:

-إنَّ الطّبيعةَ تبارك خطونا يا «جعفر».

القريةُ بدت غافية، يلفّها سكون موحش، شعرتُ به فارتجفتُ، ربّت «أبو عيسَى» علَى كتفي وهو يتقدّمني، لمْ يكنْ يعرف دار الإمام وليس مِنْ عابرٍ في هذا الوقت نسأله، وبدا يريد أنْ يستدلّ بحسِّه، فاستغربتُه، ظلَّ يمشي بي بين البيوت ويفحصها كأنّما سيعرف دار الإمام مِنْ تلقاء نفسِه،

ظللنا نسير طويلًا، ثمَّ ظهر رجلٌ عجوزٌ يتوكأ علَى عصا، حدجتُ «أبا عيسَى» كأنِّي أقول: «ها! فلتسل!»، اقترب مِنْ الرّجل.

-السّلام عليكَ، أنا غريبٌ وأبحث عنْ دار الإمام «زيد بنْ إبراهيم»، فهلا أرشدتني!

تفرّس فيه الرّجل، وهمهم:

-مَنْ أنتَ ومِنْ أين تعرفه؟!

محمّد بن عيسَى طشقند - 218 هـ

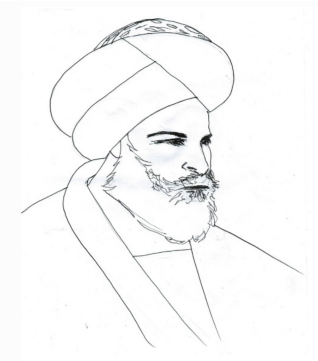

اسمي «محمّد بن عيسَى».

أبي واحدٌ مِنْ كِبار «بوغ»؛ أو كانتْ حالُه في القديمِ هكذا، «بوغ» التي وُلِدتُ فيها ولا أعرف عنها شيئًا، وإنّما كان لي نصيبٌ مِنْ الإعجازِ علَى أرضِها، معجزتي لمْ يحكِها لي أبي، ولمْ تُذكَر أمامي، معجزتي لا يعرفها أحدٌ فلمْ يكنْ أجهل بنا مِنْ أهل «طشقند» عندما ارتحلنا وأقمنا فيها، غير أنَّهم أنزلوا أبي منزلتَه عندما شهدوا خُلقه وعلمه واستفاض في الحديث معهم عَنْ الفقه والدّين واستعدَل بعضَ سلوكِهم واستعدَلوا، وقدْ كانوا أهلَ علمٍ وتفقّهٍ، فاستراحوا إليه واستراح معهم.

لكنّ المعجزةَ في قلبي، أستشعرها، ولو علَى غموضٍ، غصّة أبي حين يتحدّث عَنْ أمّي، رقرقة عينيه، انقطاعه عنْ النّساء وانصرافه

عنهنّ وفاءً لأمّي ومحبةً وحفظًا لذكراها، على إثر هذه الذّكرى انقطع أبي للعبادة وبدا لا يرغب في أنْ يقوم إلّا علَى ما كان مِنْ حياتِه القديمة، انبرَى لقراءة القرآن وصلاة اللّيل، وفيما كان يتهدّج كنتُ أسمع صوتَه إذ يُغالبه البُكاء فيترقّق.

كلّما ألححتُ عليه أنْ يُفصِح عمّا جرَى هناك، في «بوغ»، شقّ عليه الحديثُ، كأنّما بينه وبين البوحِ لعنةٌ مقيمةٌ بداخلِه، ثمَّ إنَّ الأمورَ قدْ استقامت في «بوغٍ» مِنْ جديدٍ، واستعادتْ ما كانتْ عليه مِنْ سيرةٍ أولى، وكانتْ تبلغنا أنباؤها بين الحين والآخر، بيدَ أنَّ أبي باتْ يفرّ من سيرتِها، لا يجري بلسانِه كلامٌ عنها ولا يأتي لها ذكرٌ إلّا وقاطعه بحديثٍ بديلٍ، ليس نفورًا ولا بغضًا لكنّه تحاشٍ، قال في مرّةٍ:

-تركتُ هناك في «بوغ» عمرًا ليستْ تسترجعه إلّا الذّكريات الموجعة، كيف يُمكن أنْ نعود لأرضٍ حشّوا أرواحنا فيها؟!

دفعني للكُتّاب، حفظتُ القرآن علَى صِغر سنّي وعرِفتُ الفقه فأُغرِمتُ به، صادفتْ للمعرفةِ طريقًا وأخرى، وكنتُ أطوّف في «طشقند» بين مجالسِ الأئمةِ الكِبار ودروسهم؛ أولئك الذين نهَجوا التّمرّدَ علَى أصقاعِهم واستأثرتْ بنفوسِهم غواية التّرحال مِنْ بلدٍ لغيرِها ونشروا العلم.

«طشقند» أرض المساجد والدّروس وحلقات العلم، أرض الدّراويش وأولياء الله وأحبّتهم، إحدى عواصم طريق الحرير وتمرّ منها تجارتُه، أنشأني أبي فيها علَى طلب المعرفةِ ووهبني لذلك وبدا يعدّني لمَا استشرفه فيَّ مِنْ انكباب علَى الحفظِ ونزوعٍ إلَى الفهم، لمْ أكنْ أعرِف عنْ الغبطةِ غير البيت الذي نسكنه والكتب التي يجلبها لي أبي ومجالس العلم والانخراط فيها، وكان إذا نبغَ طالبٌ في مجلسٍ أو درسٍ ينتخبونه مِنْ بيننا فيرتقي إلى مجلس الإمام «إسحاق بن راهويه»، كان مجلسُه خاصًّا حيث يُدرّس فيه مِنْ بحورِ الفقه المُستغلقة علَى مِنْ في مثْل سنّي والتي لا يُمكن استيعابها أو تحليلها إلّا عبر فطرةٍ متأهّبةٍ وعقلٍ راجحٍ منفتحٍ علَى قبول كافّة الآراء والاشتغال علَى تفنيدها، فإنْ اختاروا واحدًا مِنْ بيننا لمجلسِه هُيئِتْ له الفرصُ ومُهّدتْ السُّبل، وما كنّا نلتقي أحدَ أولئك إلّا ورأينا فيه اختلافًا ونضوجًا ورسوخًا وحكمةً، وهذا ممّا أثار في نفسِي غيرةً ولويتُ إلّا أنْ أصير واحدًا منهم.

أحتذي بهؤلاء الطّلبة وأتقفّى أثرهم في النّبوغِ، وأُنجِز في الحفظِ

وأكدّ، ولا يكاد يشغِل وقتي شاغلٌ عنْ التّوق إلَى مجلس الإمام «إسحاق»، إذ أراني هناك منهم وبينهم، أجلس إليه أستمع منه وأسترسل في شرحِ ما استقرّ في فهمي مِنْ مسائلٍ وما أعجزني منها.

مجلسُه ملحقٌ بمسجدٍ لا يفصل بينه وبين بيتِنا غير شارعٍ عتيق تشقّق آجره، وفي سنّي لمْ يكنْ يرهبني أنْ أُشرِف علَى المجلس خلسةً، وإنْ غُلّقت الأبوابُ أسترق السمع وأُنصِت أكثر، يدفعني الشّغفُ وتذهب بي الرّغبةُ إلَى حيث لمْ تذهب بأحدٍ، أقضي ساعات أمام بابِ حلقة الإمام «إسحاق» ولو فوّتُ درسًا أو درسين مِنْ دروسي في الحلقات الأخرى، أحاول النّفاذ ببصري متصيّدًا فرصةً كي ألمح الإمام وأتملّى مِنْ ملامحه، وأتحيّن يومَ أقابله وأجلس إليه.

وعلَى ما اقتنصتُ النّوبات التي أتابع فيها مِنْ الخارج حلقة الإمام «إسحاق»، كان هو، وفي نفس الوقت، قدْ انتبه لي وأدركني، وبدأ يُراقب حضوري المتخفّي بدورِه، فسأل عنّي واستفسر، ووقعتْ في قلبي رهبة حين أنبأني أحدُ طلّابه بذلك، وتحيّرتُ هل أستكمل هذا الحضور المتلصّص أم أنقطع بإرادتي خشية أنْ أُرغَم علَى الانقطاع؟!

فأرسَل لي، وقتذاك لمْ أتمكّن مِنْ تصديق الأمر، وفي طريقي إلى حلقتِه قابلني الطلّاب وهنأوني وربّتوا عليَّ في حسدٍ وقالوا لي: «قدْ جاء وقتُكَ فانتهز».

وقفتُ علَى باب الحلقةِ، أفسحوا لي، تردّدتُ في الدّخول مِنْ المهابة والوجل، كان قاعدًا علَى الأرض وحوله طلّابه، رفع عينيه إليَّ ولاحتْ ابتسامة علَى شفتيه، مدَّ يدَه نحوي:

-تقدّم.

فعلتُ علَى عدم ثباتٍ، كنتُ أرتجف، همز مَنْ يجلس بجوارِه يُبعده وقال:

-تعال اجلس هنا.

جلستُ بجانبه لا يفصل بيننا شيءٌ، نظرتُ إليه علَى استغراقٍ، سألني:

-أنتَ مِنْ «ترمذ»؟!

هززتُ رأسِي دون أنْ أنطق، كان جسدي ما زال يرتجف.

-والله إنّها بلدُ شيوخ العلماء.

وانصرف يستكمل درسَه، كنتُ أستمع إليه ولا أكاد أعي ما أنا فيه مِنْ مكانةٍ هذا النّهار، لمْ أُنتخَب إلّا منه، كأنّي اصطُفيتُ مِنْ بين الجميع، ابتسمتُ وأنا أتذكّر أنَّ أبي ينتظرني علَى شوقٍ للإلمام بتفاصيلِ هذا اللّقاء.

عندما انتهى الدّرس وراح الطلّاب ينصرفون واحدًا بعْد الآخر استبقاني، حطَّ يدَه علَى ساقي فمكثتُ مكاني، وعندما فرغتُ الحلقةُ استدار لي يحدّثني:

-أخبرني لمَنْ تقرأ مِنْ العلماء!

-«البخاري».

-وحدَه!

-و«نصر بن علي» و«سويد بن نصر المروزي» وغيرهم.

شدّ لحيته في إعجابٍ، وربّت على كتفي:

-انضممتُ إلى درسِي فلا تَغِب.

ولمْ أغِب، كنتُ مداومًا علَى حضورِ الدّرس، وكان إعجابُه بي يزداد يومًا بعْد يوم، بلْ وكان يدلّل بمنطقي في فهم الدّروس أمام الطلّاب، أدهشتُه ذاكرتي القوّية وذهني الحاضر، فإذا طرح عليَّ سؤالًا كان أشقَّ في جوابِه ممّا يطرح علَى البقيّة، ومع ذلك ظلّتْ إجاباتي تثير إعجابه ومحبّته وعزّزت ثقته فيَّ، فاختصّني، وصار مولعًا بنباهتي، وواظب علَى رفقتي، وزار بيتِنا مرّاتٍ

ومرّاتٍ، وكبرتُ في مجلسِه وعلَى يديه، وكان علَى قناعةٍ أنَّ ثمّة منهجًا سأناله وأُعجِز عنه الآخرين، قال لي مرّةً:

-إنّك والله لتُحصّل العلم أسرع ممّا يفعل الفتيان الكِبار، وشأنُكَ عظيمٌ.

مع الوقتِ تشرّبتُ في مجلسِه الآداب الفقهية وعلوم الدّين، يصبر علَى إلحاحي، ويُمعن في إفهامي، لا كتلميذٍ في حلقتِه بلْ كابنٍ في بيتِه، حجّته في الاكتفاء بي والإيمان بنبوغي أنَّ لا نظيرَ لي في الحفظِ علَى فهمٍ واستيعابٍ، ليس هذا الحفظ الذي يطير إذا تراكم عليه حفظٌ آخر، إنّما الحفظ الذي يترسّخ إذا مرّت عليه الأعوام، أرشدني إلَى مسائلٍ ما خطرتْ علَى بالي، ونصحني باقتناءِ كتبٍ

لشيوخٍ لمْ أكنْ قدْ سمعتُ بهم، وبدتْ روحه كاشفةً وهو يقول:

-لا تُخالف ما يُجبلك عليه الله في رحلتِكَ، بلْ سِرْ معه، إنّه ليس مصيرًا بلْ هداية، والهدايةُ لا تأتي إلّا بعْد عُسرٍ ومنازعةٍ وتخبّطٍ بين المشاربِ.

وذات مجلسٍ قال لي:

-علَى عمركَ هذا بلغتَ ما لمْ يبلغه أقرانُكَ ممّنْ يزيدون عنكَ في السّنِّ بضعًا! والله لأنتَ واحدٌ ممّنْ يُبشَّرون، وأنا أبشّركَ، عليك بالإمام «البخاري» فاستزِد، أنتَ تلميذه بإذن الله، وقدْ انتهى درسُكَ عندي.

أرشدني ثمّ صرفني.

بعْدها، وفي إجلالٍ تُخالطه الرّهبة ظللتُ أمتلأ بالعلمِ وعلَى مختلفِ درجاتِه، كأنَّ كلامَه قدْ أوقد روحي، فبدتْ سهلًا منبسطًا تجري عليه المعرفةُ وتنساب، أعظمُ ذُرَا المعرفة لم آتِها بعْد، بلْ تأتي علَى يدِ الإمامِ الذي بشّرني به الإمام «إسحاق»، قرأتُه علَى سعةٍ وأدركتُ مناقبَه وإنْ كانتْ بيننا السّبل البعيدة؛ الإمام «البخاريّ»، حفظتُ كتبَه، وكان نبراسًا، أتقصّى رحلاته وسيرته مِنْ علَى ألسنةِ النّاس، فأُلحّ علَى أبي أنْ نرتحل إليه، وما استقامت الأمور، في كلّ مرّةٍ نُكابد الوصول إليه

ولا نصل، إمّا القافلة تتأخّر وإمّا العواصفُ تُؤخّر خروجها، وإمّا يُلغى درس الإمام ويؤجّل لعارضٍ طرأ، فاضطّرُ إلى الانتظارِ علَى شوقٍ، وكان طيفه يسكن جوارحي، أراه في صحوي وفي نومي، لستُ أحفظ مِنْ ملامحه شيئًا غير أنّي صنعتُ له الملامحَ، ورأيتُني بين يديه غير مرّةٍ، تلميذًا يحفظ ويعمَل بحفظِه، ولمّا ارتحلنا إلى «نيسابور» للقائه ظننتُ أنّي سأؤتَى المعرفة التي طمحتُ، لمْ يخطر بحسباني أنّ نخّاسًا سوف يبيعني في السّوق، وقد أبَى القدرُ إلّا أنْ أكون غلامًا يخدِم في بلاطِ «عمّوريّة»!

المُعتَصْمُ بالله بنْ الرّشيد طرسوس - 218 هـ

مِنْ بعيدٍ، وفيما نتهادى قُربًا، غبشةٌ مِنْ الضّبابِ تطوّق أقدام الجبل، لا حركةَ، لا صوتَ، السّكونُ يعمُّ، الكثبان رماديةٌ في هذا التّوقيت، فرسي تتقدّمُ الرّكب، وتخطو علَى مهلٍ، الدّليلُ يمضي بنا بين تقاطعات الرّمل، لسعةُ بردٍ، وسور «طرسوس» يتضاءل خلفنا، يبتلعه الضّباب، بينما الخواطر لا تترك رأسي حتّى تعاود اجتياحَها.

في المساء ستُقام الاحتفالات داخل دار الإمارة في «طرسوس» تنصيبًا لي أميرًا للمؤمنين مِنْ بعْد «المأمون»، ثمّ ستكون الرّحلة

إلى «بغداد» حيث احتفالات أخرى في قصر الخلافة، لكنّ في رأسي همًّا، لا أدري! أخشى أنْ أغفل عَنْ هؤلاء الفرس فيكيدون لي علَى ما كادوا!

لا بدّ أنَّ في أنفسِهم شوائبَ باقية وركامًا ممّا لا يُمكن نسيانه، إلى الآن هم قوام الجيش علَى أكثرية، كانوا عضد الدّولة في زمنٍ مِنْ الأزمنةِ ثمّ ثبّتهُم «المأمون» علَى عربِ الجيش برابطِ الدّم مَعْ أمّه الفارسية عندما كان يخشى مِنْ نفوذ بعض القادة! أعانوه ومهّدوا له البلدان وأخلصوا له فتوسّع في مُلكِه، هذا في أوان «المأمون»، غير أنّهم يضمرون لي سوءًا وقدْ استباح سيفي بعضَهم

ولمْ أُمكّن ابنهم «العبّاس» مِنْ الخلافة، أتساءل متى يأتي أوان انقلابهم عليَّ؟! وكيف أردّ عنّي وأحمي نفسي فتستتبُّ لي الخلافة؟! أيُّ مؤامرةٍ تُدار فيما لا أعلم؟!

كون «العبّاس» صغير السنّ ومالتْ رأسُه بالياقوت والزّمرد أو أرهبتُه فبايعني وخلص أمره، لا يعني أنّه سيصفو لي أو أصفو له، لمْ يترك الخلافة مع ذلك إلّا ليقينه بغلبة جنودي علَى جنوده ولعلّه الآن يوطّنُ شيئًا في خفاءٍ! ثمّ إنَّ العرب في الجيش، مَنْ ينبغي أنْ أتعاضد بهم، لا يؤخذون إلّا بالشدّة، إنّه طبعُهم، وقدْ يُطمعهم اللّين فيستعصون عليَّ، ما السّبيل إلى راحةِ البال إذن؟!

مِنْ قبْل، وقدْ عاصرتُ هذا، ضعفت ثقة «المأمون» في أولئك العرب بعدما استعذبوا الخيرات واستطابوا المغانم فخملوا وخابوا، ما عادوا يتحمّسون للقتال حماسة الفرس، فأوكلني «المأمون» لاستقدامِ الفرس من «خراسان» وبلاد ما وراء النّهر ليضاعف الجيش، وقدْ خلد الرّعية إلى الرّاحة في ظلّ القادة الذين سيطروا على مقاليد الجيش، فجلبتُ أعدادًا مِنْ الجنود الفرس مِنْ الممالك التي لمْ تُفسِدها حياة المدينة بعْد، وجلبتُ معهم العرب مِنْ «ربيعة» و«مضر» واليمن» علَى قلّةٍ، فربّاهم «المأمون» على يديه تربية عسكرية قاسية كي يكونوا طوع يديه يحصّن بهم الثّغور ويقارع بهم خصوم دولتِه في الدّاخل، والآن يضاربونني في مُلكي!

التّفكير، التّفكير سيأكل رأسَكَ يا «أبا العبّاس»، بالأمس عاهدتَ نفسَك ألّا تغرّنكَ بهرجة الخلافة وألّا يسلبك بريقها، اليوم أنتَ هالكٌ دونها وتُسرِف في التّدبير لها، فما أغربكَ بين الأمس واليوم!

ندنو مِنْ الجبل، الصّحراء رمالُها حمراء، الفجرُ يؤذّنُ في الأنحاء،

أترجّل، أفرش حصيرةً وأركع، وأدعو مِنْ الله أنْ يحرسني، أدمدم بالدّعاء، يقف «معبد» على مقربةٍ ويؤمّنُ علَى دعائي.

قلتُ فلأخرج للصّيد، فلأقتطع جزءًا مِنْ وقتي للتّسرية، إنَّ البالَ المنشغل في حاجةٍ إلَى بعضِ التّرف والنّشوة، الجيش بعيدٌ والاحتراز ليس مُتاحًا في مثْل هذا الوقت، اللذّة ولو علَى قِصَرٍ.

في الرّكب خيولٌ وإبلٌ وفهود وكلاب سلوقية مدرّبة، هل أحتاجُ حقًّا إلى كلّ هذا العدد؟!

«معبد» يرفع طرف عباءتي عَنْ الرّمل فأربّت علَى رأسِه امتنانًا، إنّه أمَهر مَنْ يرافق في رحلةِ صيدٍ، وقدْ تعلّم رياضات الصّيد والقنص في دار البيزرة علَى يدِ كبير بيازرة الدّيوان منْذ اختصصتُه، فصار خليلًا لي في رحلات الصّيد، وما أكثر ما أخرج إليها، وكان «معبد» متدرّبًا كفؤًا فلمْ يكنْ يراجعني رئيس الدّيوان في شأنٍ مِنْ شئونِه، بلْ أكرمه وقرّبه إليه وفضّله علَى بقيّة الغلمان، واختصّه بمهارات وفنون لمْ يختصّ بها غيره، وأفردَه معه في الخروج إلى البراري في مواسم اعتدال الجوّ مُجدًّا في تدريبه، واثقًا مَنْ مهاراتِه، وعلّمه طُرق علاج ضواري الطّير مِنْ الشّياهين والصّقور وكيفية تربيتها واستخدام المعدّات حتّى صار يقوم بتعليم الضّواري وتدريبها.

بازٌ على يدِ «معبد» يضمّ جناحيه، أمتطي الفرس، يتحرّك الدّليل، نتقدّم نحو الجبل أكثر، شعاعُ شمسٍ ينفلتْ مِنْ وراء الجبل، يناولني «معبد» قربة الماء حيث شعر بعطشي.

الضبابُ يكسو سنّ الجبل، الغيمُ يبدو كندفٍ بيضاء، أراقب الطيورَ التي تحلّق قُربًا مِنْ رأسِ الجبل، صخور تهالكتْ وتحوّلتْ إلَى حصى، ندوس عليه ونحن نقترب أكثر، مِنْ السّماء تهوي أفكاري، أراها وامضةً أمام عينيَّ كأنّها أفلتتْ مِنْ رأسِي وتجسّدتْ، أتّصل مع أفكاري وأستغرق، يهتزّ جسدي فوق الفرس و«معبد» يراقب شرودي، يربّت علَى ساقي:

-مولاي.

أنتبه له.

-هل بكوبٍ مِنْ شراب التّمر!

أومئ له وأعود ببصري إلَى حيث أفكاري المتساقطة عليَّ، أقول

وأنا أجرع الشّراب:

-تُرى يا غلام، كيف يُمكن أن نجد الرّاحة!

-العفو يا مولاي، إنّما راحتُكَ في فؤادك، اطمئن يا مولاي فالعمر أمامك وستعيشه في رغدٍ وراحةٍ وستكون لك الصّولات والجولات والفتوح.

-وكأنّك بتَّ فيلسوفًا وأحطتَ بالأشياء يا فتى!

-بل أحطتُها علَى ما أحاطتْ بكَ يا مولاي.

-لسانُكَ عذب يا «معبد»، وقدْ وصلنا، هيّا أقم الخيمة.

لمْ نستغرق كثيرًا في خيمتِنا، أشعل «معبد» النّار، والتففنا حولها، وجلس المنجّم يستطلع، وصنع خرائط علَى الرّمل، ثمّ مسحها بيده وأعاد رسمها، وضع كفّه علَى جبهتي، أغمض عينيه يستشرف، قال:

-طالعُكَ خير فأبشِر.

-في الصّيد؟!

-فيما هو آتٍ كلّه بأمرِ الله.

-نفسِي تميل إليكَ وعقلي يحيد.

-وقلبُكَ يا مولاي!

-دعَ ما فيه فلستَ بمطّلعٍ.

-إنّما الأفئدة يا أمير المؤمنين قوام صنعتنا.

-أتقرأ القلوب معْ النّجوم!

-بلْ أقرأ النّجوم عبر القلوب.

-ما أغربكَ يا رجل!

-أبشّركَ بمُلكٍ عظيمٍ سيركع تحت قدميكَ ولي حظوة البشارة إذا آن الأوان!

-لكَ ما هو أكثر مِنْ الحظوة لعلّ طالعك يصيب!

وها هو الكلب السّلوقي يشبّ، يتحفّز، تتدلّى أذناه الطّويلتان ويشدّ بطنه علَى ضمورِها، إذ به يلمح غزالًا يتسكّع بمدقٍّ نافذٍ لعُمقِ الجبل، فينطلق يُطارده.

يُحاصر السّلوقي الغزال، يتتّبعه صاعدًا خلفه علَى الصّخور، أنتشي، أضع يدي علَى ظهر «معبد»:

-سأجزل لكَ العطاء يا «معبد» اليوم إذا كُللنا بصيدٍ وفيرٍ!

-ومنذ متى خذلكَ سلوقيكَ يا أميرَ المؤمنين؟!

-بلى والله، لمْ تُفلت طريدةٌ لي مع هذا السّلوقي مِنْ قبْل.

السّلوقي يناوش الغزال، يجيئه مِنْ يمينه، يساره، لا يكاد يهرب حتّى يقطع عليه طريقه، ثمّ علَى مقربةٍ منه يقف يلهث وأنيابه بارزةٌ، كأنّما ينبِئُه بالهلاك المُحتَمل، لا يُفسِح له سكّةً، يأتيه علَى جانبيه، مِنْ أمامٍ، ثمّ ينقضّ عليه مباغتًا، يطرحه أرضًا، يُمسكه بفمه ولا يجرحه، يهبط به، الغزال يخور بين أنيابِه، لكنّه يجلبه لي، أنزل مِنْ فوق الفرس، أرفع السّكين، أنظر إلى «معبد»:

-حلال بأمرِ الله.

أكبّله بركبتي، أسقط علَى رقبته أجزّها، أخضّب يديّ بالدّماء، تنفجر علَى وجهي، علَى الرّمل، أنهض برأسِه، أستديرُ نحو «معبد»:

-لو أنّها رأس «العبّاس» يا غلام! ما زال خطرُه محدِقًا!

عيسَى بن سَورَة بن الضّحّاك بوغ - 209 هـ

ذوّبوكِ حبيبتي، تُركتِ جثّةً متفحّمةً في عرضِ شارعٍ! ومثلكِ تُركوا في شوارع «بوغ» كي تتحسّر علَى أبنائِها ما دام التحسّرُ!

الجثثُ متراميةٌ في كلِّ ناحيةٍ، ما زالوا يكوّمونها علَى جوانب الطّرقات ثمّ يكسحونها بالتّوالي ووفق جهدهم حيث يتلقّطها النّهر! لكنّ امرأتي لمْ تزل هناك، ساح جسدُها والتصق بآجرِ الدّرب، الدُّخان لا يزال يتصاعد منها ولم تكنْ قدْ انطفأتْ لتمامِها، شاهت ملامحها، تفحّمتْ ويدُها تشير إليَّ أنْ انجدني من النّار! آه حبيبتي، النّار في أحشائي فمَنْ يطفؤني؟!

البيوتُ ما انطفأتْ بدورِها، والقرميدُ مسمّجٌ، كلّ شيءٍ إلَى بددٍ! حالوا بيننا وبين دفنِ أحبّتنا!

آه عليكَ يا «عيسَى»، هيئتُكَ القديمةُ تلك لا تعني فقط أنّ الأيّام مرّتْ عليكَ وانقضتْ بكلّ عسلِها فانتهى أمرُكَ، إنّها تعني أيضًا أنّكَ لمْ تستعدّ على الإطلاق لهيئتِكَ الحالية ولا للعذاب، أليس كذلك؟!

الموتُ مقيمٌ، بينما الفقد يا «عيسى»!

أنْ ليس للمرء خيارٌ إذا فقدَ، نوضّب ذكرياتنا علَى قدر الفقد، نفنّدها، نستخلص منها ما يُبكينا على ضياعِها، كنتُ أرى الموتَ على شكله النّوراني، اليوم رأيتُه علَى شكله النّاريّ، لمْ أرَه قَط مخيفًا مثلما روته الأساطير، بلْ تخيّلتُه زائرًا خفيفًا سرعان ما يمضي إذا زارَ، لكن بمَ أمنّي نفسي؟! باستعادتِها من بين ألسنةِ اللّهب!

ولدي، «محمّد»، تُرى إلى أيِّ فاجعةٍ آل مصيرُكَ؟! هل التهمتكَ النّيران مثْل أمّك؟! هل لفظتَ أنفاسَكَ مِنْ كثافةِ الأبخرةِ قبلها أم كان عليكَ أنْ تقاسيَ آلام الاحتراق؟! هل دهستكَ خيولُهم يا ولدي؟!

أُستَنزَف، الدّموع تسحّ ولا تُفارقني المرارة، مكتوبٌ أنْ أفقد كلّ شيءٍ في لحظةٍ غاشمةٍ ودون تكهّنٍ!

يصفّدوننا، هذه المرّةِ، بسلاسلٍ حديديّةٍ، خشيةَ أنْ نغدر بهم مجدّدًا أو نتجاسر علَى التّمرّد، يُعمِلون سياطهم على أجسادِنا، عرّونا كي تُلهبِنا السّياطُ علَى لهيبِ دواخلِنا، بدوا قرّروا ألّا يُزهقوا أرواحَنا انتفاعًا بنا كعبيدٍ لمِلكهُم أو جنودٍ في الجيشِ، لكنّهم جمعوا أولادنا وسط بكاء الأمهات وثورتنا وصياحنا واعتراضنا، ظننّا أنّهم سيكوون قلوبنا بإعدام الأولاد أو حرماننا منهم بالارتحال بهم في قوافل الجِلابةِ لتجنيدهم في جيش الرّوم، ثمّ لمْ نفهم لماذا صحبوهم إلى الصّحراء الممتدة قُرب الجبل، وصحبونا معهم، إلّا عندما أرغمونا على أنْ نشاهد بأعينِنا ما سيجرونه علَى أولادِنا.

عندما جمعوا الأولاد لمْ يقتلوهم، تركونا نشاهد إخصاءهم كي يحوّلونهم إلَى غلمانٍ يُركَبون، فقتُلنا نحن وهم يُباشرون عمليّة الإخصاء.

السّلاسل أقوى من إرادتِنا علَى الدّفاع عَنْ أولادنا، أعينُ الأولاد تنظر إلى عجزنا لكنّها لا تستوعب، هم صغارٌ علَى مثْل هذه المعرفة المبكّرة بالألم!

رصّوهم بعْد أنْ صنعوا حفرةً في الرّمل أمام كلّ ولدٍ، وصنعوا لنا حُفرًا أيضًا، أزالوا السّلاسل وقاموا بطمر أجسامِنا في الرّملِ إلَى

الرّؤوس، هنا علينا أنْ نشاهد فقط، وستصبح أطرافُنا عاجزةً عَنْ التّشنّج ألمًا، عاجزةً عَنْ التلوّي ممّا سيجري أمام أعينِنا!

قام قائدُهم بتعيين بعض الجنود لإحكام السّيطرة علَى كلّ واحدٍ منْ الأولاد، ثمّ جبّوا أعضاءهم.

صُراخ الأولادِ وبصاقهم اللا إراديّ وبكاؤهم أبكانا عليهم، مطموسون في الرّمل غير قادرين علَى نجدةِ ولدٍ، لكنّ أعصابَنا فلتتْ، وسابتْ أطرافُنا وإنْ كانتْ لا تتحرّك، توسّلنا إليهم دون طائلٍ، صُراخنا عبرَ الصّحراء، وهم يجزّون بالأمواسِ جميع الأجزاء البارزة المرتبطة بأعضاء الأولاد، الدّماءُ جرتْ إلى الرّمل فخضّلته، كما خضّلتْ الدّموعُ أعينَنا، وانسابتْ فسقتْ الرّمل.

تُستَنفد الأبصارُ، تبيضّ أعينُ الآباء، ينفجر بياضُها في وجهِ الصّحراء، الصّراخ طليقٌ، واللّعاب يسيل دون إرادةٍ مِنْ الأفواه، تحلّق الغربان فوقنا كأثوابِ حِدادٍ سوداء ترفرف، إنّها تتحرّز للولائمِ، النّعيق يصمّ الآذان، والأنفاس تنكتم، وحواف الجبل البعيد بدتْ تذوب، والتّفاصيل تمتزج بعضها ببعضٍ، كأنّ المشاهد أمام أعينِنا تتخلّى عَنْ ألوانها وتكتسب لون الفحم، تمامًا كقلوبِنا التي أُحرِقتْ، لحظاتنا القادمة كانتْ حسراتٍ مرجأةً إذن ولمْ نستشفّ!

صبّوا على مواضعِ البترِ زيتًا مغليًا فزام الأولاد وبُحَّت أصواتُهم من شدّة العذاب، ودهنوا فوق الزّيت مساحيق الحنّاء، وثبّتوا أنابيبَ في الأجزاء الباقية من مجاري البول!

دفنوا الأولاد في الحُفر إلى ما بعْد بطونهم وغطّوهم بالرّمل بعْد أنْ أغشيَ على أكثرِهم.

كان الأولادُ تهالكوا، وكنّا تهالكنا، ظللنا علَى تلك الحال يومًا كاملًا ورؤوسنا تغلي مِنْ الحرّ ومِنْ فجيعتنا عليهم، في اليوم التّالي أخرجونا، دهنوا أماكن الجروح في الأولادِ بعجائنٍ مِنْ الطّين الإبليز مخلوطة بالزّيت.

ها هم يعدّونهم، من اليوم أصبح أولادُنا خصيانًا، سيخدمون نساء القصور ورجالاتها وينامون في فراشِهم ويفرغون عبرهم نزاوتهم، كيف كُتبَ عليهم هذا المصير؟! لماذا ارتضَى الله أنْ نشهد ضياع أولادنا وقدْ أبقَى علينا علَى هذا القهر وهذا الهوان؟!

وأصبحنا صفّين مصفّدين، صفًّا للرّجال وصفًّا للأطفال، جرجرونا مِنْ الصّحراء إلى قلب القرية، كيما يُمكن للنّساء أنْ يثكلنَ علينا

للأبد.

يلاحقون ظهورنا بالسّياطِ، والنّسوة يلاحقننا بالدّمع والتّأوّهات.

وهناك، عنْد البيوتِ، كانتْ الأوتادُ تتقاطع معْ الأوتادِ، لتصنع صلبانًا خشبيّة، سيعلّقوننا عليها، ونحن عرايا، والغربان ستسعى إلى رؤوسنا لتمزّعها!

محمّد بن عيسَى نيسابور - 218 هـ

لا أعرِفُ ما دهاني فجئتُ إلَى هنا دون مقاومةٍ تُذكَر ولا كيف أضعتُ أبي؟! مَنْ أضاعَ الآخر في حقيقةِ الأمر؟! بمَنْ أستجير وليس يُجارُ تائهٌ في هذا الشّتات والهرج؟! وماذا كان عليَّ أنْ أفعل لأتفادَى هذا؟!

شُدّتْ يدي عنوةً مِنْ داخل السّوق، سار بي الرّجل، صحتُ ونازعتُ بين يديه لكنّه أحكَم قبضته علَى ذراعي، أتخبّط في الأجساد إنّما لا أحدَ يكترث بأمرِ الآخر، الرّيح غشتْ الأبصار وأثقلتْ الأسماع، أخذتُ أنازِع فشال جسدي الضئيل فوق كتفِه، طوّقني بساعدِه، ركلتُ بساقيّ النّحيلتين دون طائلٍ، وظلَّ يُسرِع بي إلى أطراف «نيسابور»، فحصتُ السّائرين ولمْ أميّز وجهًا، الأقدامُ يركب

بعضُها علَى بعضٍ، والأثواب ترفرف مِنْ فِعل الرّياح، والأصواتُ المتقاطعةُ المحذّرةُ تنادي علَى الخلق أنْ اختبئوا وأغلِقوا، ونحن نمضي بينهم، لا يأبه نفرٌ ولا يلتفت نفرٌ إلينا، بيديّ لكمتُه علَى ظهره علّه يتراجع أو يُفلتني، وصار صوتي واهنًا مبحوحًا مِنْ كثرة ما صحتُ، ولمّا تطرّفنا أدركتُ أنّي لستُ بعائدٍ ولا ناجٍ، فقدتُ أبي، ربّما للأبدِ، وتخيّلتُه يبحث عنّي بحسرةٍ، وتخيّلتُه يدعو في المسجد، وتخيّلتُه حائرًا يستوقف المارّةَ بسؤالِه، وفي كلِّ ما تخيّلتُه عليها رأيتُ هيئتَه مفزوعةً

وملامحه مرتعشة مِنْ روعِه، رأيتُه باكيًا، و«نيسابور» فسيحة واسعة إذا فقدتَ فيها شيئًا ما استعدتَه!

حبسني خاطفي في قبوٍ له بابٌ مقضبنٌ غير موصد، لكنّه يقف عليه يحرسنا، كنّا مجموعة من الأولاد وبنت واحدة، تساندنا علَى جدار القبو وفحصنا بعضنا البعض، بينما كان فؤادي قدْ غاض مِنْ المرارة.

أمام القبو في الخارجِ طاولة نحاسية، مرصوص فوقها أدوات معدنية متنوّعة، وجوارها مجمرة تنفث البخار، لمْ أفسّر شيئًا ممّا أرى، ولا أتكهّن بشيءٍ ممّا سيحدث، وفي القبو صينية موضوع عليها خبزٌ جافٌّ وأوانيَ مياه ولفائفٌ مِنْ الخيش محفوظٌ بداخلها أطعمة وخضروات، وفي زاويةٍ مِنْ القفص قنديلٌ مُطفأ، غير أنَّ الانطفاء كان في عينيّ، لستُ أرى شيئًا، وها أنا أبدأ في تقريعِ نفسي، لولا طموحي ما سقتُ أبي معي إلى هذه الرّحلة، ما كان خسرني ولا خسرتُه!

رائحةُ القبو خانقة، ومِنْ سياج الباب ينفذ ضوء، تبصّرنا بعضنا البعض، تعرّفتُ إلَى أحد الأولاد؛ «جعفر»، ظلَّ يتهامس معي وبدا خائفًا ممّا سيأتي، قال:

-تُرى كيف سيكون مصيرنا؟!

-في علمِ الله.

-هل سيقتلوننا؟!

-بلْ سينتفعون بنا، سيتاجرون فينا.

-بئس التّجارة.

أبعدتُ عينيّ عنه، رأيتُ الفتاةَ تجلس بجوارنا وقدْ غرست رأسها بين ركبتيها، بدا عليها الإنهاك، شعرها هائثٌ ورائحة جسمها نفّاذة،

وكانتْ تنهنه، وفيما يمرّ الوقت بنا كان بعضُ الفتية الجالسون حولي قدْ غفوا، وخاطفنا ما زال يقف خارج القبو دون أنْ يُصدر صوتًا، لكنّه بين الفينة والفينة يستدير يفحصنا بعينيه، ويعاود وضعيته، وبعْد قليلٍ هبط إليه أحد الأشخاص، تهمهما ثمّ مضى، فدخل إلينا خاطفنا، زعق فينا:

-انهضوا واخلعوا ثيابكم.

هدّدنا بمهازيم غليظة في يدِه فأطعناه مِنْ خوفِنا، كنّا مذهولين، نهضنا، أطرقنا قليلًا فحدّق فينا مُنذِرًا وقدْ كشف عَنْ أسنانِه التي تآكل معظمُها، كان طويلًا وعريضًا فبدا مثْل العمالقة، ملابسه مرتّقة، ولا يرتدي خفّين، البنتُ نظرتْ إليَّ واحتمى جسدُها بجسدي، جعلتُها خلفي، فلحق بها «جعفر» ولاذ بي، احتقنتْ عينا خاطفنا وقدْ استشعر مروءتي، فدنا منّا وانتزع البنتَ للمقدّمة، ولطمني:

-إنّها أوّل مَنْ سيخلع ملابسه!

وعلا صوتُه وهو يخاطبنا ويقلّب فينا عينيه:

-علَى قدرِ شجاعتكم ترون الويل!

ومدَّ ذراعه إلى البنتِ وجرّدها، حاولتْ أنْ تستر عريها فصفعها، شقَّ ملابسها قطعةً قطعةً، حسّس علَى جسدِها الأبيض مشتهيًا وهو يقضم خدّها بأسنانِه وضربها، ثمّ نحّاها بذراعِه فارتكنتْ إلَى جانبٍ تشهق مِنْ البُكاء، لكنّه كان قدْ عرّاها تمامًا، فتكوّرتْ علَى نفسِها واستترتْ بظُلمةِ القبو، عرّانا بعْدها، واحدًا فالآخر، ضممنا أكفّنا علَى أعضائِنا مِنْ الخجل، إنّما أخذ يدلق علينا الماء البارد فارتجفنا.

-تشطّفوا ونظّفوا أجسامكم يغلو ثمنكم.

وشطّف كلّ واحدٍ بنفسِه، دعك جسدَه بليفة نخلٍ، وأثناء ذلك كان يقول:

-انسوا أسماءكم القديمة وآباءكم وبلادكم، منْذ اليوم أنتم مملوكون لدار النّخاسة في «نيسابور»، وستوزّعون علَى الشّراة وفق أثمانهم وتقديرهم، منْذ اليوم ستبدأ حياتكم، فلا تغضبوني والزموا طاعتي إلى أنْ أسلّمكم بيدي إلَى ولاتكم الجُدد، وإلّا..

لمْ يكُمل، أدركنا أنَّ العقاب سيكون عظيمًا لمَنْ يشاكس ويعاند،

انتهى التّحمّم فأشار إلَى صينية الطّعام:

-تقوّتوا كي لا يبدو عليكم الضعف.

-وهل فينا مَنْ في جسمه طاقة للطّعام؟! نحن جوعى لديارِنا وأهلِنا، ولسنا جوعى للطّعام ولا عطشَى للشّراب!

قال «جعفر»، بينما يخرج النخّاس، تركنا فتناولنا ثيابنا ارتديناها، كانت البنت تجلس مقرفصة وقدْ راح جسمها ينتفض، اقتربت منها ووضعت الثّياب على جسمها، لمْ تنظر لي، انتحبتْ، وظلّتْ تنتحب فجلستُ مكاني مُشفقًا عليها وعليَّ، وعلَى جميع الأولاد الذين سيصبحون غلمانًا وعبيدًا وخدمًا.

هبط اللّيلُ، فيما كنّا تهالكنا فسقط «جعفر» علَى كتفي مِنْ ضيق القبو، لمْ أكنْ أعرف إنْ كانت الرّيحُ هدأت، لكنّي فكّرتُ أنَّ أبي لا بدّ وقدْ أصابه اليأسُ أو لعلّه لمْ يزل يبحث عنّي، تُرَى علَى أيِّ حالٍ أنتَ يا أبي الآن؟! هل تصرخ جوارحكَ مِنْ فقدي؟! هل ستقعد في «نيسابور» إلى أنْ تتّصل بنا السّبلُ أم ستعود إلى «طشقند» وقدْ أوكلتَ أمري لله؟! هل سأصبحُ جزءًا مِنْ ذكرياتكَ مثْل أمّي و«بوغ»؟! هل قُدّر لكَ فقد أحبّتكَ يا أبي هكذا دومًا ودون أنْ تحتسب؟! كيف يُمكنكَ تحمّل هذا يا أبي؟!

في الصّباح التّالي طلعنا مِنْ القبو، لطمت الشّمسُ أعينَنا، لمْ تكنْ هناك ريح، كان الجو صافيًا، النّخّاسُ جلس على كرسي وأخرج مِنْ جلبابِه الرّث قارورة خمر، بصق وتجشأ ثمّ ابتلع شربةً

طويلة، مسح بكمّه شفتيه، حوله يقف بعضُ أشباهه، ملابسهم رثّة، لحاهم طويلة علَى غير تهذيب، لا ينتعلون في أرجلهم أخفافًا بدورِهم، حرّك جسمه الممتلئ فارتجّ، واستدار يحدّثنا:

-انظروا.. إنَّ هذه الصّحراء أمامكم..

وأشار بإصبعه، جرع وتجشأ ثانيةً وقال:

-فمَنْ أراد منكم أنْ يستأسد وفي نفسه شيءٌ فليفعله الآن ولنرين إلى أين يُمكن أنْ تصل به قدماه!

طوّفتُ بعينيّ، كان القبو أسفل بيتٍ مِنْ طابقٍ واحدٍ مسقوف بجريد وسعف النّخل، وليس حوله بيوت ولا عَمار، مُحاطٌ بأشجارٍ ذابلة الأوراق ومصفرّة، والرّمال مِنْ بعْدها، رمال تنصرف إلى حيث لمْ يبلغ بصري، أدركتُ أنّنا لن نستطيع فرارًا، ولنْ يعثر عليَّ أبي

مهما اجتهد!

المجمرةُ مشتعلةٌ، دسّوا فيها الأدوات المعدنية المسنونة، تركوها حتّى وجّتْ مِنْ الاحمرار، ثمّ أشار النّخّاسُ إلى رجاله، قدموا نحونا وجلبوا أوّلنا، كان «جعفر»، صاح فيه:

-اكشف عنْ ذراعكَ.

ساورتنا المخاوف، ارتعد «جعفر»، لكنّه برّق فيه بعينيه، فلمْ يستجب، كرّر:

-اكشف عنها أم لعلّك تفضّل أنْ أكشفها بنفسي!

وشدّ ذراعَه، ثمّ أولى بصره للبنت ودمدم:

-سنتركَكَ للنّهاية يا صغيرة.

لفّ علّى يدِه قماشة مبلولة وأمسك الأداة مِنْ مقبضها الخشبي وسحبها من المجمرة، ودبغ بها جلد «جعفر»، فانقبضتْ عضلاتُه وصرخ، دفعه وأشار إلَى آخر، وكان كلّما انتهى مِنْ أحدنا قال لأحد

رجاله:

-فلتعطِه اسمًا يليق بهيئتِه.

جاء دوري، لمْ أكنْ أخشى النّار ولا الدّبغ، أخشى فقط مِنْ الوشم الذي سيبقَى علَى ذراعي ما بقيتُ، وسيوسمني بسمةِ العبيد والغلمان ما حييتُ!

حوّلتُ عينيّ عنْ فمِه الذي تفوح منه رائحة الخمر الرّخيص، كانتْ ملامحه جامدة وهو يطبع علَى ذراعي الختمَ المعدنيّ، تذكّرتُ أبي وهو يربّت هذه الذّراع ويباركها، تذكّرتُه وهو يقرأ علَى رأسِي القرآن، وفيما تجتاحني الذّكريات معْ أبي كانتْ قواي خارتْ، فسقطتُ أرضًا، حملني أحدُهم، ظلّت البنتُ تنظر إليَّ في ألمٍ ورفقٍ.

وعندما حانتْ لحظتُها استوقفهم بيديه واستطرد وهو ينظر لها:

-لا لا، هذه فاتركوها، أريد أنْ أتذوّقها قبلما يتذوّقها وليُّها.

المُعتَصْمُ بالله بنْ الرّشيد بغداد - 218 هـ

الشّمسُ تفلت مِنْ زمامِ السّماء خلفي، والمُلكُ يقع علَى يدي، يُمسِي خاتمًا في إصبعي، الفرسُ تتهادى بي وأنا أداعبُ خاتمَ الخليفةِ كأنّي علَى ريبٍ، ما أسرَع نحبكَ يا «مأمون» وما أطول ما انتظرتُكَ! هل آن الأوان بالفعل يا منجّم؟!

الموكب يحملني مِنْ بيتِ المالِ بعْد الإشرافِ علَى مخازنِه إلى قصرِ الخلافةِ في «بغداد».

أيا «بغداد»! أيا مدينة «المنصور» وجنّته! لكم شغفتُ بكِ وحفّتني

الظّنون والأحلام وها أنا جئتُكِ أميرًا للمؤمنين وخليفة!

عاصمة السّلام وقلب هذه الدّنيا «بغداد»، تقف علَى يمينِ نهر «دجلة» وتستدير أسوارها فتبدو كأسورةٍ مِنْ ذهبٍ في أعينِ الجوارح والطّيورِ المحلّقة مِنْ علٍ، «بغداد» مدينة الطّوائف والدّرجات والأعراق والشّعراء والمجاذيب والزّنادقة والماجنين، ومدينة الأئمة والصّالحين.

أيا «بغداد»!

يوسع النّاس الطّريق للموكب، الأعلام ترفرف، المدينة تعجّ بالهتافات، الجماهيرُ متخالطة، حلقات مِنْ البشر يدنون نحو أقدام الفرس يلثّمونها بينما تمرّ بينهم، يلاحقونني بالمُباركات، كلُّ هؤلاء يحتفلون بي أميرًا للمؤمنين، وقدْ احتفلوا مِنْ قبلي وسيفعلون مِنْ بعْدِي، كادوا يحتفِلون بابن أخي «العبّاس» لولا قدر الله، إنّهم يتبدّلون ووجوههم لا تتبدّل، رعية في نهاية الأمر.

الجموعُ تضجّ، يُباح اليوم كلّ نزقٍ وكلّ ترف، دار الخلافة تتلألأ بالسُّرُجِ فيما يدنو منها الموكب، الفرسُ ترتقي الدّرجات وصولًا إلَى بوّابة القصرِ الأماميّة، أترجّل، الغلمان والحَرس يطوّقونني، يرفعون ردائي علَى أيديهم، قلّموا أظافري وهذّبوا لحيتي وقصّصوا شعري إعدادًا لهذا الاحتفال.

أخطو فيستقبلونني بالدّفوف، الجواري يرقصن، في أيديهنَ المشاعلُ وشعورهنَ تنسدل علَى أكتافهنَ، أجلس علَى العرش المُذّهب وحلقة الرّقص دائرةٌ فوق البُساط، أُغمِض عينيّ وأحاول تذكّر عدد المرّات التي تخيّلتُ نفسي فيها في هذا المقام، لا تُحصَى.

أفرد ساقيّ ويشرع مطربٌ في الغناء، المناضد تحمِل كؤوس الشّراب، والكؤوس تدور بين رجال القصر والوزراء والقادة، يجلس «ابن أبي دؤاد» جواري، يهزّ رأسَه مطروبًا، لكنّ عينيه كانتا لا تتركان أجساد الجواري اللّواتي يتلوينَ ويدرن مِنْ حولِه، يأتيني «معبد» بكأس نبيذٍ، يذوقه أولًا ثمّ يرفعه إليّ فأحتسيه فيأتيني بآخر.

يدلف «أبو تمام» ويهرع إلَى الخاتم في يدي يقبّله، ابتسمتُ فجلس، تناول مِنْ فورِه كأسَ شرابٍ، وأطال في جرعتِه.

-إنّما دعواتكَ إلَى المجيء تحتفل معنا لتُنشِد لا لتسكَر.

سنَد في سرعةٍ كأسَه واستدار لي هالعًا:

-عفوكَ يا مولاي فإنّي شاعرُكَ ومُنشِدُكَ وخادمكَ وطوعُ أمرِكَ.

-هيّا افعل إذن.

وأشرتُ له بيدي.

فردَ راحتيه وهو ينظر إلى «ابن أبي دؤاد» في خبثٍ:

-أوليست اللّيلةُ يُباحُ فيها ما ليس يُباح في غيرها يا أميرَ المؤمنين!

-بلَى.

-لي غرضٌ مِنْ المُزاحِ أنْ أهجو قاضي القضاة ورأسي مختمرةٌ بمثْل هذا النبيذ الذي لمْ يؤتَ مثله في البلاد، فهلا أذنتَ لي يا مولاي!

التفتَ إليه «ابن أبي دؤاد» وقدْ جهم وجهُه ولمْ ينطق، فضحكتُ ضحكةً عاليةً وقلتُ:

-أذنتُ لكَ.

-اعلم وأنتَ المرءُ غير معلِّم..

أشعَر، ثمّ دنا بعينيه منه وأكمَل:

-وافهم.. جعلت فداك.. غير مفهّم.

صفّقتُ فصفّق الجميعُ مِنْ بعدِي وانفجروا في الضّحكِ، أمّا «ابن أبي دؤاد» فقدْ أشاح بوجهِه وقطّب جبينه.

استطبتُ النّبيذَ وطالت اللّيلةُ، وفيما أُستسقَى بهجة الخلافة وأرتشف مِنْ الشّراب إذا بشيخِ الحلم العجوز يدخل إلَى القاعةِ، كان يلبس رداءً أبيض ووجهه ساطع لكنّ الأغلال في يديه وقدميه، الكفنُ علَى ساعديه الملتصقين بعضهما ببعض، وكأنّه تبعني مِنْ «طرسوس» إلَى «بغداد»!

تحجّرتُ وكأسُ النّبيذِ في يدي، اقترب منّي، جاوز الحرس والجواري الرّاقصات والجالسين مِنْ حولي ولمْ يبق بيني وبينه إلّا مسافة ذراعٍ، رمَى الكفن علَى وجهي فانتثرت الدّماءُ، الدّماءُ دخلتْ

في عينيَّ فسقط كأسُ الشّراب وصرختُ وأنا أسقط بدورِي أرضًا علَى ركبتيَّ، وبينما أهزُّ رأسِي وأحاول أنْ أستدركُ نفسي رفعتُ عينيَّ ووجدتُ الجميعَ ملتّفين حولي، صحتُ أنادي في الحرس:

-اقبضوا علَى هذا الرّجل!

دوّروا رؤوسهم وازدرد «ابن أبي دؤاد» لعابه وهو يهمهم:

-أيُّ رجلٍ يا خليفة المسلمين؟!

ثمَّ أضاف وهو يشدّني بيدِه ليرفعني عنْ الأرض:

-أأنتَ بخيرٍ يا مولاي؟!

العبّاسُ بنْ المأمون سامراء - 223 هـ

الجيادُ تجري وفي الخلفِ الغبار الثّائرُ، كان «حيدر بنْ كاوس» شديد الحذر -وحصانُه يركض- أنْ أسقط فأسقطه معي، أو تختلّ يدُه التي تقبض علَى السّيف فتهتزّ ومنها تسنح فرصتي لتبديل

الوضع، فطواني علَى صدرِه لحدّ الالتصاق، وعقر حول بطني عباءته فصرنا ملفوفين بربطةٍ واحدةٍ مُحكمةٍ، كان جسدُه ضخمًا وقدماه ثابتتين علَى سرج الحصان، الفرسان مثلّثٌ هو رأسُه، وعجبتُ مِنْ عمّي الذي أرسل قلّةً كي يقبضوا عليَّ! إنّما لعلّه يُدرك أنّي ساذجٌ في كلِّ الحالات! ما أكثرَ ما غرّر بي!

ومِنْ خلفِنا سحابة مِنْ الرّمل مُقبلة، صاح «حيدر» في فرسانه:

-أسرِعوا إنّهم جُنده و«سامراء» أشرفتْ!

الخيول في أوجّ عافيتها، الصّحراءُ وجّتْ مِنْ اشتداد الركض والغبارُ طوّف حولنا، جنودي يقتربون، يلاحقوننا بعزمٍ وتصميمٍ، «حيدر» ليس يخاف، لكنّه يحاول قدر إمكانه ألّا يتورّط في

معركةٍ ستهدر الوقت، خطّان مِنْ الدّخان يعبران الصّحراء أحدُهما يطارد الآخر، وفيما قليل بدت المطاردةُ انتهت، تناسج الغباران، غيمةٌ أقبلتْ مِنْ خلفٍ وابتلعتْ بداخلها الأخرى، جاء فرساني من وراء «حيدر» ثمّ حاوطوه، تنازعت الجياد وحمحمتْ، ناوش بعضها بعضًا، قلّبتْ الرّملَ بحوافرِها، السّيوفُ تلاقتْ، تضاربتْ، وبين هذا وذاك استطعت أنْ أنزع جسدي مِنْ زمام العباءة وأثب من فوق الحصان، مشتركًا في المعركة، رمى لي أحد فرساني سيفًا، التقطتُه وهرعتُ به نحو «حيدر»، قبل أنْ يحشّ رأسه تفادى، انتبه لي فاستدار بينما اختفى من أمامي في لحظة، الغبارُ أعمى الأعين، وبتنا نتحسّس، قرع السّيوف واحتدام التّلاحم أشعراني بأنّي لمْ أعد أسيرًا، إلّا وتقطّعت أصوات التّلاحم شيئًا فشيئًا، وراحت سحب الغبار تنقشع، ووجدت جنودي يبلّلون الرّمل بدمائهم، وقفت في ذهولٍ و«حيدر» يتقدّم نحوي، ضرب سيفي بسيفه فرماه، كانت ابتسامته واثقة وفيها شماتة وهو يلوّح بيده باتّجاه الشّمال:

-هذه بوّابة «سامراء»، انتهى الأمر يا ابن «المأمون»!

ومضى بعينيه إلى جنوده وهو يشير إلى جثث فرساني:

-لا تدفنوهم، دعوهم للنّسور الجائعة.

عيسَى بن سَورَة بن الضّحّاك بوغ - 209 هـ

الطّقسُ حارٌّ ويلفحَ وجوهنا، قطرات العرقِ تتقاطر مِنْ جبيني إلى عينيَّ، ثمَّ تنحدر نحو فمي، عيناي ليستا ترَيان إلّا غيمًا داكنًا يغلّلهما، مشهدُنا ونحن معلّقون علَى الصّلبان الخشبية لا يُشبه مشهدًا آخر مررنا به، انكسرنا وقدْ مات أحبّتُنا، وقدْ غيل أولادنا وأهرِقوا، وها نحن عرايا في وجهِ كلّ أفكارِنا عنْ الخبايا التي لا نعرف مِنْ أيّ جهةٍ ستتكشّف!

الخشب يطقطق بينما أحرّك جسمي، الدّماءُ تسيل مِنْ الجروح، وإنّما جروح الأفئدة بلا دماء، ظلّتْ أجسادُنا علَى حالها تلك ليومين، لمْ نُطعَم ولمْ نُسقَى، الرّوم لا يبدون سلوكًا تجاه نسائِنا، وهذا أراح صدورنا قليلًا، تركوهنَ في البيتين اللّذين آوين إليهما

ولمْ يمسسهنَ، وبدوا أوشكوا أنْ يفرغوا منّا بدورِنا، لمْ تعُد لهم حاجةٌ أخرى فينا.

دمّروا «بوغ»، وصلت الرّسالة للخليفة، وغنموا الأولاد، ونحن لسنا رجالَ قتالٍ فينتفعون بنا في جيشِهم، فلأيّ غرضٍ آخر يرهقون أنفسَهم ويبذلون الجيش!

فكّونا مِنْ على الصّلبان، زحفنا على الأرض مِنْ شدّة إعيائِنا، وبمجرّد دخولنا إلى نسائِنا ارتمينا عليهنَ، ظللن يطبّبن ما أدمته أيدي الرّوم في أجسادِنا، وقدْ اكتوينَ بفقد أولادهنَ، بعْد قليلٍ، وبعْد أنْ أكلتُ بعضَ الطّعام وشربت ماءً فاستفقتُ، دنتْ القابلةُ منّي وفي حضنها «محمّد».

انهرتُ باكيًا، قبّلتُه وكان ينظر لي مبتسمًا، قلتُ بوهنٍ:

-كيف عثرتِ عليه؟!

-إنّها إرادة الله، ومِنْ بعْدها لمْ يفارق يديَّ.

امتناني دفعني للبكاء أكثر، إنَّ الله لا يُفقدنا الأشياء جميعها، ففيما نفقد شيئًا يعوّضنا بآخر، وكنتُ قدْ تيقّنتُ مِنْ هلاكِه مثلما هلكتْ أمّه.

قائد الرّوم أرسل مبعوثًا مِنْ جُندِه يُنذرنا أنْ نرحل ونترك القرية، كانتْ غاية «بابُك» أنْ يُمعن في إبلاغِ الرّسالة إلى «المأمون»، لقدْ غزونا مِصرًا مِنْ أمصارك وتركناه أرضًا محروقةً، بلا زرعٍ ولا بيوتٍ ولا بشرٍ أيضًا!

ليس لنا بغية في القرية على كلّ حالٍ، ولا متاعَ سينفعنا ولا حمولَ، وضّبنا أنفسنا، وقد أمهلونا – كرمًا منهم!- حتّى ندفن البقية الباقية مِنْ الجثث، ثمّ فلنشدّ رحالَنا إلى حيث أراد لنا الله.

خرجنا نودِع الجثامين مثواها، بكينا بحرقةٍ، عليهم وعلى أنفسنا، تباكى بعضنا على تاريخ «بوغ» الذي كان وما صارتْ إليه، تباكى آخرون على أنَّ كلَّ شيء قدْ طاع لنا مِنْ قبْل ولمْ يخطر على خيالنا ما جرى، إنَّ قصّة «بوغ» في نهاية الأمر لا تعدو كونها أكثر مِنْ مجرّد قصّةٍ في المعترك، التّناحر عماد الدّولة، وما جرى على «بوغ» جرى على غيرها قبْل ذاك، آلاف القصص المماثلة، آلاف الضحايا.

وقفنا على القبور ولمْ نتصافح، لمْ نتجاوب مع هذا الموت الغرائبيّ، بعضُنا يقرأ القرآن وبعضُنا يترحّم وأكثرُنا لاذ بالصّمت،

وقفتُ ورفيف الذّكريات في رأسي، المقبورون استراحوا، أمّا نحن سنمضي إلى ما هو آتٍ دون شعورٍ، كأنّنا موتى نمشي على قدمين!

النّخلُ انحنى، الجبل أصبح كهلًا، الرّمل بلون الدّم.

على أيّة حالٍ أُرغِمنا على تأريخ المشهد هكذا: «العبثيّة».

لمْ نستغرق أكثر مِنْ نصف يومٍ وكنّا دفنّا الجميع، الرّوم ما زالوا يعسكرون في بيوتِنا لكنْ علَى ظفرٍ وراحةِ بالٍ، يحتسون الشّراب ويحتفلون بما أصابتْ أيديهم فينا.

حالوا بيننا وبين توديع أولادنا، حظروا علينا مجرّد الاقتراب من خيمتِهم، ظللنا نسمع أنينُهم فيما نغادر.

اتّفقتُ مع أحد الصّيادين علَى أنْ أستأجره مع مركبه، حملتُ «محمّدًا» على صدري واتّجهتُ معه إلى النّهر، كنّا تحت ستارِ اللّيل.

يقوم النّهر بالمراكب التي لا يتّسع الواحد منها لأكثر مِنْ نفرين خلاف صاحبها، اصطحبتُ معي القابلة، كان النّهر يتنفّس الهواء البارد نحو وجوهنا، ضممتُ «محمّدًا» إلى صدري أكثر، لا شيءَ سوى أطلال البيوت وسكون الجبل وروائح القرية التي لا تريد أنْ تفارق أنفي.

لا شيءَ سوى الصّمت، لا يوجد ما يُقال، إنّنا نعزّي أنفسَنا بالصّمت.

السّماءُ دانيةٌ، كلُّ شيءٍ مِنْ حولي يُطبِق علَى صدري، تموّجات التّيار تنتهي إلى جانبي المركب تضربهما، الصّيادُ يشقّ بها الموج ليسير في منتصف النّهر، أستوقفه:

-دعنا نحاذي الضفّة.

-لا موجَ على الضفّة يا «عيسى»!

-لا أرغبُ في أنْ يكشفني الضوء.

-سيكشفك لمَنْ؟! إنّنا نخرج مِنْ القريةِ بعِلم الرّوم!

-سيكشفني لنفسي، لا أريدُ أنْ أراني على هيئتي هذه مِنْ الضّعةِ والذّل.

وسالت دموعي فهزّ كتفيه، أمال مركبه وجدّف ودنا مِنْ الضفّة فسارت المركب على بطءٍ والحشائشُ تخروش بجنبِها.

أضواء المشاعل خافتة، نتركها خلفنا، لا يكاد يُرى شيءٌ منْ هنا

والأشجار تغطّينا، لا أريد أنْ أرى شيئًا، أريد أنْ أتستّر بالظّلام، وإنّما ظللتُ أتابع فقط بعينيّ غياب «بوغ» في الأفق، غياب عمري القديم.

الجبل يذوب فيما تنوء بنا المركب عن القريةِ، يصبح كتلةً سوداء مرتعشة لا تكاد تُبدي إلّا سنّه البعيد.

انتهى كلُّ شيءٍ يا «بوغ» إذن!

تهطل الأمطار قطرات متقطّعة كأنَّ القرية تودّعنا، ألمُّ «محمّدًا» إليَّ، ينهمر المطرُ علَى رؤوسِنا لكنَّ الأشجار تحمينا، «جيحون» يُباشِر تدفّقه، لا يكترث.

يقول الصّياد:

-لعلّ «بوغ» تخضرُّ مجدّدًا!

أبتسمُ في حسرةٍ، أيُّ اخضرارٍ وقدْ تلاشى كلّ جذرٍ؟! بلْ إنَّ شوارعها ستبقى موحلةً، فقط نحن مَنْ سيكابد الاخضرار مِنْ جديدٍ ولنْ نخضرَّ، لا أحد سيتأسّى غيرنا.

نتأرجح في الماء، القابلة أغمضت عينيها وظلّت ساكتة، كلّ ما حدث يدفع إلى الصّمت بغير نهايةٍ، فقاعات الماء تزبد تحت مجرى المركب، التي تجنح مختلّةً نحو منتصف النّهر فيجدّف الصّياد ويسيطر عليها ويستعيدها، تنهّدت القابلة، أشارت بيدِها إلى «بوغ» التي بدأت تتفتّتْ مبتعدةً:

-هذه الأرض..

وعزّ عليها الكلامُ فأدمعتْ، قلتُ:

-لمْ تعُد أرضَنا.

-وهؤلاء..

-ذمّة الله أرحم مِنْ ذمّة البشر.

ووسّدتُ «محمّدًا» في حضني أكثر، مالتْ نحوه القابلة وكشفتْ وجهه، همهمتْ:

-لقدْ نجا بأعجوبةٍ.

لمْ تكنْ قدْ حكتْ لي شيئًا عنْ إنقاذه، لكنّ الهواء والسّكون مِنْ حولنا، وابتعادنا لهذه الدّرجة عن أرض «بوغ»، وربّما التّحايل علَى فكرةِ اقتلاعنا منها بإلهاء النّفس، حملوها أنْ تشرع في الحديث:

-انتشلتُه مِنْ الحريق، كانت النّار تلتهم كلّ ما حوله، تلتهم كلّ شيءٍ، إلّا هو، كان بموضعِه ولمْ يزل على ابتسامته، حاولتُ الوصول إليه غير مرّةٍ، خشيتُ أنْ تبلغه النّيران، لكن كأنَّ الله لمْ يرد له إلّا مثْل ما أراد لنبيّه «إبراهيم»، أحاطه بهالةٍ حالت دونه ودون الحريق، كانت النّار بردًا وسلامًا على ولدك يا «عيسى»..

وزفرتْ ثمّ أكملتْ:

-لمْ أشهد كهذا مِنْ قبْل، تفحّم بيتُكَ لكنّ ولدكَ عاش، لمْ تحرقه نار ولمْ يكتم أنفاسه دخان، إنَّ الله إذا شاء أمرًا قضى به فكان، ولمّا تمكّنتُ منه وخرجتُ به أهرول كان جسده باردًا رطبًا، وكأنّ الحرارةَ ما وصلتْ إليه!

ومصمصتْ شفتيها وذكرتْ الله ثمّ أدارتْ وجهَها وراحتْ تراقب الماء وهو يدفعنا معه نحو الهجرة القسرية، تقوقع الصّياد في مكانِه مِنْ الهواء البارد وبدا يجدّف علَى غير حماسٍ تاركًا للتّيار قيادتَنا، السّحبُ تُخفي فيما خلفها النّجوم، ضوء القمر يتسرّب مهتزًّا، يلمع سطح الماء في ارتعاشٍ، قدْ خمد كلّ شيءٍ وراءنا.

بدأتْ رأسُ القابلة ترتخي شيئًا فشيئًا كلّما ابتعدنا عن «بوغ»، لمْ تحتمل هذا الانتزاع، كأنّها متجذّرةٌ بأرضِ «بوغ» وإنْ اجتُزّتْ منها ذبُلتْ، عندما وضعتُ يدي علَى يدِها أحرّكها كانتْ يدُها باردةً برودة الموت.

لمْ أقلُ شيئًا، لمْ يقل الصّيادُ شيئًا، اكتفينا بمطالعة بعضنا الآخر للحظاتٍ، ثمّ قرأنا علَى رأسِها القرآنَ وأسدلنا طرحتَها على وجهها، ولمّا هُيّئَ موضعٌ ملائمٌ علَى الضفّة، هبطنا كي ندفنها.

محمّد بن عيسَى نيسابور - 218 هـ

(لمْ أنم، كلّما كدتُ أفعل أطبقتْ علَى رأسِي الخيالات، في تلك اللّيلة رأيتُ أبي، وكأنَّ روحينا فاضتا، كنّا في مرمى سماويٍّ بعيد، الأشياءُ مِنْ حولنا مسكونةٌ بالضّباب، كان يهمس: «لا معنى مِنْ تجميل الحقيقة»، قلتُ: «وما هي الحقيقة؟»، «إنَّ العالم انحرف»، «وما يغيّر هذا؟!»، ابتسم ومضى بي يصعد، قال: «سننجو بأمرِ الله».

«النّجاةُ معجزتكَ فلا تقنط»؛ حدّثني واختفى).

ولئن كانت النّجاةُ معجزتي فكيف لا أنجو ممّا أنا فيه؟! غير أنَّ إحساسي الذي يساورني بقُرب نجاتي أمرٌ ليس يُخطئِه فؤادي.

مِنْ اليوم اسمي «التّرمذيّ»، حار النّخّاس فيما يُطلِق عليّ

فأكناني.

عقد مجلسًا معنا وتحاكينا عنْ جذرِ كلِّ واحدٍ فينا وأصلِه وإلَى أيِّ بلد ينتسب، قصد أنْ يكون رقيقًا في حديثِه، فعلَى ذاك العلم بنا نفرًا نفرًا سيُبرِم بيوعَه ويوضّب تجارتَه، وإذا بقدرِ ما يصف الواحد

منّا أمام الشُّراةِ يغلو ثمنُه أو يُبخَس!

يصطحبنا النّخّاس إلى السّوق، يضرب السّلاسل في أعناقِنا، يهنئه التُّجّار كأنّه علَى مغنمٍ باهظٍ، ما زلتُ أبحث عنْ أبي ولو إلَى حدِّ اليأس، لكنّي جُعلتُ غلامًا وانقضى الأمر.

وبينما نقطع الطّريق إلَى السّوق وأمسح الطّريق ببصري تداعتْ إليَّ الذّكريات، ما أبعْد الفارق بين اليوم والأمس! قال لي أبي مْنْ قبل: «نبوغكَ سيُمكّنُكَ مِنْ أخذ مكانكَ في التّاريخ»، أيُّ نبوغٍ يا أبتاه وأيُّ مكانٍ! بلْ أيُّ تاريخٍ! إنَّ التّاريخ سيبدأ مِنْ هذه اللّحظة، قدْ تحطّم كلّ ما أعددتني لأجلِه، لمْ أعُد «محمّدًا» الذي قضى سنوات عمره في الدّرس والتّلقّي.

يطوّف وجه الإمام «إسحاق» علَى خاطري، قال لي مرّةً: «إنَّ الله يمتحن ابن آدم في الرّحلة، ارتحل، وكلّما شقّتْ رحلتُكَ ازددتُ قُربًا ممّا تبتغي».

المصيرُ مُبهمٌ، والله إذا شاء أنْ يكون الفرجُ كان، وإذا شاء أنْ يكون الضّيقُ كان، ثمّة مشاعرٌ تحول بيني وبين استدعاء الأمل، إنّما الله أكبر منّا ومِنْ مصائرنا التي نظنّ أنّنا متّجهون إليها.

بلغنا سوق النّخاسة، خيّمَ بنا وسط الشُّراة فاقتربوا يفحصون، اطمئنوا لسلامة أسنانِنا وأفواهنا وشعورنا، عرّونا وجسّوا جسومَنا، وكان يختارون منّا علَى حسبِ البُنيان والمهنة التي سيمتهنها الواحد فينا، أمّا الفتاة فجاء شارٍ عسّس جسدَها كلّه وقرص ثديها ولعب في فرجها وأعجب بها فاشتراها، أوهمه النّخّاس أنّها بِكر، لمْ يعرف الرّجل أنَّ هذا النّخّاس بالأمس ضاجعها أمامنا، هبط عليها بجسدِه وغطّاها وربض، وكان أنينُها خافتًا، نزع ملابسها وفتح ساقيها عنوةً وأقحم ذكره فيها، صرختْ، وسمعناه يجأر منتشيًا، ويئزّ ويدمدم، ويلطم فرجها بثُقلِه، ويروح فيها ويجيء، تتأوّه، فيتكسّر صوتُها أكثر وتنشب أظافرها في لحمِ ظهره، ولا حيلة أمامنا غير الفُرجة في عجزٍ، لكنْ سالت دماؤها، وكان كلّما أولغ فيها تألّمتْ علَى رضا كأنّما استحسنتْ ما لمْ يأتِها مِنْ قبلِه، قام مِنْ

عليها وقبّلها وخرج، مسحتْ الدّم بيدِها ورفعت إصبعها إلَى عينيها تنظره، لمْ تبكِ، لمْ تقل شيئًا، لكنّها أيقنتْ أنَّ عليها أنْ تستعدّ لمَا هو مُقبِلٌ.

اقترب منّي نصرانيٌّ، قلّبني، رفع ذراعيَّ وضرب علَى ظهري وبطني وأمسك خصيتيَّ هزّهما، ثمّ ناول النّخّاس ثمني وقال لي:

-ما أسعدكَ! مِنْ هذه اللّحظة أنتَ خادم في قصرِ «مناطس»؛ نائب «عمّوريّة» وكبيرها.

قلتُ في غلظةٍ مفتعلةٍ:

-وصاحبي «جعفر».

أشرتُ إليه فرمقني بامتنانٍ، هزَّ النّصرانيُّ كتفيه في لا مبالاة وغمز بعينِه:

-لا بأس إنْ كان لكَ صاحب، كلاكما ستنفعان.

المعتصم بالله بن الرّشيد بغداد - 219 هـ

«سجينٌ لكنّه يكتب ضدّكَ يا أميرَ المؤمنين ويهيّج العامّة فيما لا يفقه»؛ هذا ما أبلغوني به، يقول: «إنَّ أهل البِدع طلقاء بينما امتلأت السّجون بالفقهاء والأئمة!».

وصلَهُ ما استُحدِث مِنْ الأنباء والأحوال وهو في سجنِه مِنْ مصدرٍ مجهولٍ -لستُ أعرفه إلَى الآن- فوضعَ كتابًا، جلاءُ الأمرِ عندي يقتصر فقط علَى الأدلّة، وسأجمعها بنفسي، وفيما أريدُ أنْ أقف علَى حقيقةِ هذا الكتاب عليَّ أنْ أعدُّ ترتيبًا، لا يُنقصني إلّا أنْ يقوم النّاس عليَّ!

لمْ أر «ابن حنبل» ولمْ أضلع في سجنِه، كانتْ قصّته مع «المأمون» هو وغيره مِنْ الأئمة لا معي، ولا خلاف بيننا وليس مِنْ ثمّة ما نتنازع عليه، النّاس يزعمون أنّه راضٍ بقضاء الله وصابر على

بلواه وثابتٌ علَى الحقّ وثباتُهم مِنْ ثباتِه! أيُّ حقٍّ؟!

ركنتُ إلَى «ابن أبي دؤاد» أشاوره، جمع الأئمة وعقد مجلسًا، قال:

-والله لبقاء «ابن حنبل» في سجنِكَ يا خليفتنا قدْ جرّأ علينا عموم النّاس وضلّلهم، إنّهم يستقوون به.

-لأنّه لمْ يطع «المأمون»، فماذا بيدي أنْ أفعل كي أدفعه أنْ يراجع قولَه وهو الشّيخ المسنّ؟!

-لكنَّ شأنَه يكبر بينهم وهو في السّجن والنّاس يعظّمونه وذلك يجلب الفِتن والضّلال يا أمير المؤمنين!

-فما ترَى في شأنِه؟! لا علمَ لي بما تقولون أو تفعلون، فأشِر عليَّ.

-السّجنُ كرامةٌ له، أرى أنْ ننُهي مسألة «ابن حنبل» مِنْ جذرها ونخلص، فتموت الفِتن في مهدِها.

داعبتُ لحيتي وفكّرت، إلامَ تسيّرني يا «ابن أبي دؤاد»؟! هل تُحرّضني؟!

أمرتُ أنْ يخرج إليَّ في الصّباح للمسائلة والمحاكمة ومناظرته فيما يسوق إليه النّاس، قضى الله أمرًا كان مفعولًا يا «ابن حنبل».

أرسلتُ إليه في سجنِه، كان المجلسُ مقامًا، صرفتُ الجواري والغلمان عنْد دخولِه.

الأغلال تصل ما بين ساقيه ويديه، يتوكّأ علَى حارسٍ، يدلف إليَّ يمشي ببطءٍ، إنّه شيخُ الحلم الذي كبَّ عليَّ الدّم! تعرّقتُ، ألهذه الدّرجةِ أخشاه؟! إنّه مجرّد عجوزٍ لا حيلةَ له، وماذا إنْ جاءني في الحلمِ؟! جميعُنا يحلم بما هو دون الحقيقة.

تقدّمَ نحوي، ظللتُ جالسًا، حولي حلقةٌ مِنْ قضاة القصر وعلمائه يترأسها «ابن أبي دؤاد»، قال:

-السّلام على أمير المؤمنين.

والتفتَ إلى «ابن أبي دؤاد»:

-ومَنْ معه.

صرفتُ الحارسَ، أشرتُ إلى «ابن حنبل» أنْ يدنو أكثر، ففعلَ، دوّرتُ بصري عليه أتأمّله، شيخ الحلم! هو شيخ الحلم لا محالة! ليس يبدو عليه رهبةٌ أو مهابةٌ، قلتُ:

-وعليك مثله.

همهم:

-نسأل الله الثّباتَ في شهر الصّومِ المُبارك.

وظلَّ يبتهل.

-ألا تسأله العفو!

-كلُّ قدرٍ نافذ.

أجاب، فعاجلتُه:

-ألا تسألني العفو فأنظُر!

أخفَض بصره وابتسم:

-إنّما استجداء العفو ممّن يملك يا أمير المؤمنين.

قمتُ إليه أفحصه، فقال:

-لو يسمح لي مولاي..

هززتُ رأسِي، فاستكمل:

-قال ابن عمّك «محمّد رسول الله» عليه الصّلاة والسّلام: أتدرون ما الإيمان، فقالوا: وما الإيمان يا رسول الله، فقال: شهادة ألّا إله إلّا الله وأنَّ «محمّدًا» رسول الله، وإنّي يا أميرَ المؤمنين لأشهد ألّا إله إلّا الله وأنَّ «محمّدًا» رسول الله وأقرّ بما جاء في الإسلامِ ومِنْ السّنةِ والقرآن عملًا وقولًا وعقيدةً، فلمَ أنا في حضرةِ أمير المؤمنين وعلَى أيّ أمرٍ انعقد مجلسُه؟!

-أتبادرني يا «ابن حنبل»؟! أرغب في سماعِ قولِكَ في القرآنِ.

-يا أميرَ المؤمنين إنَّ آبائي لأسبق في هذه الدّعوة وليسعني ما وسِع أصحاب رسول الله عليه الصّلاة والسّلام مِنْ الرّضا بأنَّ القرآنَ كلامُ الله، القرآن غير مخلوق يا أمير المؤمنين ويا قاضي القضاة، هو كلامُ الله ذي الفردانيّة المُطلقة، كيف يُمكن أنْ نبدّل كلامَ الله؟! هكذا نشذُّ عنْ فطرة الدّين وتعاليم الإسلام يا مولاي!

ثمّ حدّق فيَّ:

-هل ثمّة ما يبرهن علَى قولِكم مِنْ كتاب الله وسنّةِ رسولِه حتّى أقول مثلما تقولون يا أمير المؤمنين؟!

دنا منه «ابن أبي دؤاد» وتمتم وهو ينظر لي:

-لو يأذن لي أمير المؤمنين أناظره!

-أذنتُ لكَ فافعل.

قال «ابن حنبل»:

-يا أميرَ المؤمنين لا أعرف أنَّ «ابن أبي دؤاد» مِنْ أهل العلم فأناظره!

-هو عندي كذلكَ.

-كما تشاء يا مولاي، أمرُ الله نافذ.

واستدار إلى «ابن أبي دؤاد»:

-ما قولكَ في علم الله أهو مخلوقٌ أم غير مخلوق يا «ابن أبي دؤاد»؟

صمتَ، نظرَ إلى رجال المجلس ونظر لي لكنّي أعدتُ بصري إلى «ابن حنبل».

-القرآنُ مِنْ علمِ الله، فإذا كان علمُ الله غير مخلوقٍ فالقرآن غير مخلوق، وإنْ كان علمُ الله مخلوقًا فهذا يذهب بنا إلَى أنَّ الله كان في الأزل بغير علمٍ ثمّ خلق علمَه فصار ذا علمٍ، معنى ذلك أنَّ الله يجهَل، وأستغفرُه عنْ قولِ هذا، فكيف يقول المؤمنون بهذا القول الذي لا يليق بجلال الله؟! فالله أحدٌ صمدٌ، لا مثيلَ له، لا شبيه له ولا عدل، وهو كما وصف نفسَه سبحانه وتعالى.

قال «ابن أبي دؤاد»:

-يا «ابن حنبل» القرآن شيءٌ أم غير شيءٍ؟

-هو شيءٌ.

-وقال الله عزَّ وجلَّ: «الله خالقُ كلَّ شيءٍ»، والقرآن شيءٌ، ألا يدخل هذا فيما خلق الله؟!

-كذلك أورَد اللهُ قولَه في الرّيح التي أهلكت قومَ «عاد»، قال سبحانه وتعالى: «تدمّر كلَّ شيءٍ بأمرِ ربّها»، فهل دمّرتَ السّماء والأرض أم دمّرتْ ما أراد الله فقط مِنْ الأشياء؟! قس تلك على هذه، إنَّ الاستغراق في الآيتين يشمل ما أراد الله فقط.

وتنهّد:

-ثمّ علينا أنْ نفرّق بين الأمر والخلق، القرآن أمر، وقد أبان الله بين خلقِه وأمرِه بقوله تعالي: «له الخلق والأمر».

أعجبني قولَه واشتدادَ بيانه علَى ما يدّعون، تلاقتْ أعيننا، بدا

هذا الإعجاب علَى وجهي، وتحيّرتُ في أمرِ «ابن حنبلٍ» هذا، والله ليس منه أذى ولا شرّ، ففيمَ يتقوّل عليه المعتزلةُ ويخشونه؟! ذكروا أنَّ الرّجلَ جاهلٌ ولستُ أراه إلّا فصيحًا معرّبًا وقدْ أنعم الله عليه وأكرمه!

كانتْ الجماهير قدْ بدأتْ تحتشد تحت سور القصر، وقفتْ في الشّرفة أطالعهم، قلتُ وأنا أُسدِل الستّار وأعود إلَى «ابن حنبل»:

-يا «ابن حنبل» أيأتون يناصرونكَ أم يستميلون الخليفةَ في مصيركَ؟! أتراهم بهذا يؤثّرون عليَّ ويغلّبون علَى أمري إرادتَهم فينازعونني فيكَ!

راح ببصرِه إلَى السّلاسل التي تقيّده وقال:

-إنّما مصيري ليس أبعد مِنْ عينيكَ يا أميرَ المؤمنين، وليس لي إلّا ما أراد الله، وأمّا هؤلاء فإذا خرجتَ إليهم وحدّثتَهم انصرفوا، أنتَ خليفتُهُم.

هاديٌ، لا يخشاني والقيدُ في يديه وقدميه! تمشّيتُ إلى كرسيَّ وقعدتُ، عبثتُ بلحيتي قليلًا، كان «ابن أبي دؤاد» والمجلس قدْ احمرّتْ وجوهُهم وما عادتْ لهم حُجّة أمام قول «ابن حنبل»، بلْ ها هم يتهامسون والغضبُ يعتريهم، لقدْ غلبهم وهو المُغلّل، ردّ عليهم حججهم وألجمهم!

-ها يا «ابن أبي دؤاد»! أسكتكُم «ابن حنبل» وأفحمكم ولستم تستطيعون معه قولًا!

-إنّه والله مبتدعٌ وضالٌّ وعلَى غير الحقّ.

-ما أكثر مزاعمكَ يا قاضي القضاة! أريدُ حُجّة علَى الرّجل، لا توجد حُجّةٌ إلّا ورماها علَى وجوهِكم فأعادها عليكُم!

الجموعُ تحت القصرِ تتصايح وتغلي وتشتبك معْ الحَرس، و«ابن أبي دؤاد» يعاود الوقوفَ ليستكمل معْ «ابن حنبل»:

-ما قولكَ يا «أحمد» فيما قال الله تعالى: «ما يأتيهم مِنْ ذكرٍ مِنْ ربّهم محدَثٍ»، أفيكون مُحدَثًا إنْ لمْ يكنْ مخلوقًا؟!

-ألا تُكمِل؟! بلْ قال الله عزَّ وجلَّ: «ما يأتيهم مِنْ ذِكرٍ مِنْ ربِّهم مُحدثٍ إلّا استمعُوه وهم يلعبون»، فإنّما هو ما يُحدِثُ الله مِنْ العلم عنْد المؤمنين ما لمْ يسمعوه ولمْ يأتِهم به كتابٌ قبله ولا أتاهم به رسولٌ، ألا تعرِفَ قولَه تعالى: «وإذا سمعوا ما أُنزِل إلَى الرّسولِ ترَى

أعينَهم تفيض مِنْ الدّمع ممّا عرَفوا مِنْ الحقّ»، فعلمُ نزولِ القرآن إذن مُحدَثٌ عندنا وغير مُحدَثٍ عنْد ربّنا.

-الفِقه لا يستقيم بالقرآن والسّنّة فقط بلْ يجب علينا أنْ نُعمِلَ العقل.

-ما أعجبكَ يا «ابن أبي دؤاد»! وهل ينهض الإسلام إلّا بالقرآن والسّنّة؟! وهل نأخذ العقيدةَ إلّا مِنْ القرآن والسّنّة؟! ألمْ يخاطب الله عقولَنا في قرآنِه؟! أولسنا أولو الألباب؟!

الجماهيرُ تضجُّ بالدّعاءِ ويهتفون باسم «ابن حنبل» ويُرسلون بعض الحرس للسّؤال عليه والاطمئنان أنّه بخيرٍ، الرّايات تتراقص في أيديهم وتبزغ مِنْ وراء سور القصر، الحمَام يطير فوق رؤوسِهم ويحطّ عنْد الشّرفة كأنّه يترقّب ما يترقّبون.

نفختُ وأنا علَى قلقلةٍ مِنْ أمري، كيف يُحاصَر قصر الخليفةِ ويترَك لهم؟! وحرسي أيضًا يميلون إلَى الجموعِ فلا يتّخذون حيالِهم شدّةً أو تقريعًا! مَنْ أؤدّب؟! حرّاسِي أم العامّة أم أؤدّب نفسي علَى ما ابتليتُها به؟!

صحتُ علَى «ابن أبي دؤاد» في غضبٍ:

-ناظره أو اصرف مَنْ يتجيّشون لأجلِه تحت القصر أيّهما استطعتَ! انتهِ مِنْ هذا يا «ابن أبي دؤاد» وإلّا صرفتُه وانتهيتُ!

كنتُ قدْ اتّخذتُ في «ابن حنبل» قرارًا، بدا علَى وجهي، أحسّ به «ابن أبي دؤاد» فمال عليَّ محذّرًا:

-إذا أطلقتَ سراحَه يا مولاي سيقولون إنّ إمامهم «أبا عبد الله» قدْ انتصر على خليفتين، وستشتعل الفِتن في الدّولة ويقع علينا ما لا احتسبنا.

دنوتُ مِنْ «ابن حنبل» وهمستُ في أذنِه:

-أرِح صدري، يريدون موتكَ وأريدُ أنْ أرحمكَ!

نظر لي مبتسمًا:

-رحمةُ الله وسِعتْ كلّ رحمةٍ يا مولاي، أنا ميّتٌ لا مناص، إمّا اليوم علَى الحقّ أو غدًا علَى الباطل، الموتُ علَى الحقّ أولَى وأبقَى يا أمير المؤمنين، الحقّ صفة الله، والله سيبدلني أجرًا حسنًا بإذنه.

وحدّق في عينيَّ، أردفتُ:

-فيمَ تُعانِد؟! يا رجل دع لي فرصةً لإخلائكَ، تنازل قليلًا، أنا أبحث عنْ سببٍ للعفو عنكَ، ستعود إلَى السّجن!

-لنْ أبيعَ ديني بزائلٍ مِنْ الدّنيا، ووالله إنَّ السّجنَ لأحبُّ إليَّ ممّا تدعوني إليه.

واستدار عنّي.

دنوت منه، أرحتُ يدي علَى منكبه، صحتُ ثائرًا عليه:

-ألا تريد أنْ تنهي الأمر يا رجل؟! إنْ هي لكلمة تحسم كلّ هذه المسألة! أشفِق عليكَ مِنْ صلابةِ رأسِكَ ومثابرتكَ، سينقضي شهر رمضان ونحن مستغرقون في جدلٍ لا طائلَ منه!

-يا أمير المؤمنين دلِّلَ مِنْ السّنّة والقرآن علَى ما تريدني أنْ أقول به وسأفعل! أكثيرٌ ما أطلب؟! إنَّ القول المُرسل الذي لا برهان عليه مطعون فيه ومشكوك يا مولاي!

طالعتُ وجهَه وكان ثابتًا علَى قناعتِه مُخلصًا لمَا يؤمن، إنّه ليس صاحب بدعةٍ وليس بعاميٍّ جاهلٍ ضالٍّ كما تزعم حاشية القصر، لكنّهم رجال هذا الأمر ويعلمونه، لمْ أعرِف في حياتي شيئًا عنْ الفقه بلْ عرفتُ الخيلَ والسّيفَ والقتال ولا أبعْد مِنْ ذلك، وقد اجتمعوا علَى بدعه وكفره، لمْ يثبتوا أمام أدّلته ولمْ يملكوا أمامه ردًّا بلى، غلب جموعَهم وهو الوحيد وقدْ رأيتُ بعينيَّ بلى، لكنْ ما الحيلة؟! يا للحيرة! يريدون أنْ يشركوني في إثمٍ لستُ أتبيّنه، وأنا الخليفة، إنْ عارضتهم خسرتُ، وإنْ أُكرِهتُ علَى ما يدّعون وقعتُ في خطيئةٍ ستقلّب عليَّ ليلي وقدْ أحاسبُ عليها أمام الله!

أعدتُ عليه:

-يا «ابن حنبل» الدّماء حرمات فاستجب!

أولى عنّي وجهه ولمْ يردّ.

نفد صبري معه، لا حُجّةَ أمامه نكسبه بها، يراوغنا بالعقلِ مرّةٍ وبالقلبِ مرّةٍ ويغالبنا بصمتِه، وليس فيهم مَنْ هو ألسن فصيحٌ يُناظره.

دنا «ابن أبي دؤاد» وقال:

-لا بديلَ عنْ الشّدّة، اللّينُ سيُعشّم النّاسَ فيكَ يا أمير المؤمنين فتزداد أقوالهم عنك وأفعالهم ضدّك، احسم يا أمير المؤمنين ولا تقتصد في أمره.

قلتُ بعْد تفكيرٍ:

-لله الأمر، والله إنَّكَ يا «ابن حنبل» لعصيٌّ متشدّدٌ وما أعجب أمرك!

وخاطبت الحرس:

-اذهبوا فعلّقوه وليستعدّ الجلّادون.

أمرتُ الحرّاسَ وأدرتُ عنه وجهي وأنا أزفر في مرارةٍ مِنْ قسوة القرار، تقدّموا إليه وجرّوه إلَى ساحةِ القصر، أغمضتُ عينيّ عنْ رنين السّلاسل في قدميه، لمْ يضف «ابن حنبل» ولمْ يسأل عفوًا، بلْ مضى معهم مستسلمًا، كأنَّ الله أمدَّه بالعزم والقوّة وما جعلني إلّا متحيّرًا متشكّكًا في كلّ ما يجري.

كانتْ الأصوات تأتيني مِنْ الخارجِ غاضبةً، وبدوا أُخبِروا أنّي علَى وشك إهلاكه، بعضُ حاشيتي في جانبي والحرس في جانب الجموع، ثمَّ إنَّ بعضَ حاشيتي الآخر وإخوتي يتعاطفون مع «ابن حنبل» ويجادلونني في أمرَه، ما العمل أمام كلّ هؤلاء؟! شيءٌ بقرارةِ نفسي يلحّ أنَّ «ابن حنبل» لا يستحق ما هو فيه، لكنّي الخليفة، ممّا يُلزمني ما ليس علَى هواي ولا أرغب فيه، ويحك يا «ابن حنبل»، أألاقيكَ أم ألاقي أولئك «الهنود الزّط» الذين يهدّدون «العراق» وموارده أم ألاقي «بابك الخرميّ» أم أفرغ لشئون الحُكم أم أهبِط إلَى هؤلاء النّاس الثّائرين؟! كلُّ هذا في رأسِي! الدّولة تتقلّب علَى كلّ جانبٍ ولا أكاد أجد مهربًا مِنْ الاعتراك في كلّ هذا وتأمين الخلافة، ويحك يا «ابن حنبل»! ما أعظم عنادكَ!

قيّدوه إلَى شجرةٍ في جانب السّاحة، طفتُ عليه للمرّةِ الأخيرةِ أستعيده مِنْ عنادِه، بلا جدوى، قال:

-لله ما يقضي به.

أمرتُ الحارسَ أنْ يسقيه ماءً، فرفض، قال:

-أنا علَى صومٍ وأريدُ أنْ ألقى ربّي عليه.

نزل عليه الجلّاد بالسّوط، ترفّق في ضربتِه، لكنَّ «ابن حنبل» أزَّ، نزل عليه بأخرى، بدتْ انتزعتْ لحم ظهره، تلوّى، وقع عليه بضربتين آخرتين وتنحّى فنزل آخر، وهو بين هذا وذاك يبسمل، ويصيح: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله»، ويصيح: «القرآنُ كلامُ الله غير مخلوق»، إلَى أنْ بدأ يتهالك، فانخفض صوته، نظر لي:

-يا أميرَ المؤمنين ستقف بين يدي الله وستُسأل علَى أيّ إثمٍ أخذتَ «ابن حنبل»!

أشحتُ عنه بصري فاستكمل الجلّاد الضّرب، همهم «ابن حنبل»: «قُلْ لَن يُصيبنَا إلّا ما كتبَ الله لنا».

وفيما يهبط عليه السّوط كانتْ دماؤه تطقّ مِنْ ظهرِه، وددتُ لو أعفو عنه الآن، لكنَّ عينيَّ «ابن أبي دؤاد» وصحبه تُلاحقني.

انخلع سرواله فكادتْ عانته تظهر، رفع رأسَه للسّماء: «اللّهم استرني، اللّهم استرني».

وسقط علَى الأرض مغشيًا عليه، سقط وسط دمائِه، عنْدها لمْ أحتمَل أكثر، أبلغَ الحدُّ انكشاف السّوأة؟! إنَّ الله كريم عزيز فما غرّني؟! ما كلّ هذا الكبرياء؟! صحتُ في قائد الحرس وليحدث ما يحدث:

-فليأتِ عمُّه «إسحق بن حنبل» ليتسلّمه، إنّي والله عفوتُ عنه.

عيسَى بن سَورَة بن الضّحّاك نيسابور - 218 هـ

جامدٌ مثْل صنمٍ، عظامي كأنّما ركب بعضُها علَى بعضٍ فتقاطعتْ داخل جسدي علَى غير استقامةٍ، دمي بدا تجلّط، فعجزتُ عنْ الحركة، عيناي تدوران علَى غير ثباتٍ، بُحّ صوتي مِنْ النّداء.

كان في يدي، والله في يدي! كيف أفلتُّه؟! كيف هان عليَّ ألّا أستمسك به؟! في لحظة انفصلنا وتباعدتْ بيننا السّكك! منْذ متى يا ربّي وأنا أهرب مِنْ حسرةٍ إلَى حسرةٍ؟! أما كفاني كلّ هذه الحسرات حتّى تباغتني حسرتي علَى ولدي؟!

«نيسابور»؛ مدينةُ صرتُ أنتسب إليها بالفقد أيضًا، اندثرتْ فيها آخر آمالي ولمْ يعُد لها أثر، ثمّة صرخةٌ بداخلي ما بين انتزاع الرّوح والإبقاء عليها رهينة الحسرة، تقلّبني، لا تريد الخروج ولا تريد

الدّخول، معلّقة مثْل ذهني المعلّق علَى ألف خاطرٍ.

-«محمّد»!

بين البيوت دُرتُ، المخازن والثّكنات والحمّامات والدّكاكين والأسواق، لمْ أترك رجلًا إلّا وسألته:

-فتى في التّاسعة طوله هكذا..

وأصف بيدي.

-وعرضه بهذا الحجم..

وأصف بيدي.

-وشعرُه أسود طويل منسدلٌ علَى منكبيه.

ثمّة خواء مِنْ حولي، حصيرة مِنْ الدّموع يقف عليها بصري، هل أحتمل مزيدًا مِنْ الأسى؟! أيا بني! ليس يسمعني أحد، أنكفئ أرضًا حيث لا قدمَ يُمكن أنْ تحملني، أغطسُ في ظلامٍ دامس، أرتجف، فقدتُ كلَّ شيءٍ، أرتجف والعرق ينزّ مِنْ جبهتي، أتمرّغ في التّراب حسيرًا، أستنفد الدّموع بلا هُدى، أين ولدي؟! يا الله ألَا رحمةً! ثمّ يدٌ تمتدّ إليَّ، أشعر بها، أتحامل علَى نفسِي، أنهض، قدماي عاجزتان عنْ حملي، ينازع الرّجل أنْ يرفعني مِنْ علَى الأرض، يخبط علَى ثوبي فيتعفّر، يتسنّد علَى عصاه ليقيمني.

-رافقني أعرف منجّمًا لعلّه يعينك.

قال لي، فأدركتُ ملامحه، كان شيخًا عجوزًا، ساعدني طواعيةً، وضّب ظهر بغله، شدّ نفسَه وامتطاه، ركبتُ خلفه علَى ظهر البغل، ودلف بي إلَى السّوق، عند مرمى البصر كانتْ الأجساد متشابكةً، والرّجل يستحثّ البغل فيضربه علَى جنبيه، ونعبر بين النّاس، كلّ المشاهد ليستْ تتجانس أمام بصري ولا أميّز شيئًا، لهفتي علَى «محمّد» ممضّة، وقلبي مخضوضٌ عليه، لا أستطيع أنْ أدبّر حالي، رفعتُ عينيَّ للسّماء: «يا رب عفوك وكرمك، العون علَى البلاء!».

الطّريق طالتْ إلَى المنجّم، أو تمنّعتْ علينا، لا أعرف! البغل ينفذ بين الجموع المتكدّسة في الأسواق حولنا، يلكزه صاحبه بالعصا، أمشّطُ الزّحامَ ببصري، وأرتعدُ، بتُّ أخشى هذا الزّحام، لقد سلبني ابني، صحتُ في ألمٍ: «محمّد»، كأنَّ به يُنصت وسيسمع ندائي!

ينازع البغل، وصوت الحمام المتقطّع يأتي مِنْ أسقف البيوت المنخفضة، النّساء يقلّبن في البضائع والزّينة والحُليّ بينما نتصادم

فيهنَ ونحن نخلق طريقًا بينهنَ علَى مثْل تلك المشقّة.

يمضي النّهار بنا، والوجوه يبدو عليها التّعب مِنْ شدّة القيظ، يتململون وهم يحملون البضائع يعرضونها علَى المارّة، والشّمسُ كآتونٍ مُشرعٍ علَى الرؤوس، فيما يبدو أنّ الطّريق إلَى المنجّم ليس لها آخر، أسلمتُ نفسِي للظّلام، أغمضتُ عينيَّ مطوّفًا في الذّكريات، وبعْد ساعةٍ أو أقلّ كنّا تسرّبنا خارج حدود الزّحام وبدأتْ البيوت المختبئة تلوح، وأمسكنا طريقًا رمليةً غاصتْ فيها قدما البغل فتباطأ علَى بطئِه، يخبّ، ينزع قدميه بصعوبةٍ، وبنثر الرّمل مِنْ حولِه.

كان العَصرُ يؤذّن، ذلك عندما قال الرّجل:

-أوشكنا فاهدأ، أشعر برعشة جسدك.

ننتهي إلَى ضيعةٍ نائيةٍ عنْد أحد أطرافِ المدينة، يهبط مِنْ فوق البغل:

-وصلنا يا شيخ.

يقول، فأتبعه وهو يلج إلَى ممرّ محاطٍ بأشجارِ الزّيتون، يتسنّد علَى ذراعي مِنْ كبر سنّه، يقف أمام أحد الأبواب ويطرق بعصاه، فؤادي يدقّ بسرعة ويضطرب.

هسيس مِنْ حولي، هسيس مياه تجري، سحابٌ يتدحرج في السّماء، ووجه هزيل يفتح الباب مستفسرًا، يتعرّف إلَى الرّجل فيبشّ وجهه، يتحاضنا ويُفسِح لنا كي ندخل.

هناك؛ في القرى وفي المُدن، في البيوت وفي القصور، هناك بين الحدائق وبين تعاريج الصّحاري، في الجبال وفي التّلال، ووسط آلاف البشر، نفقد أولادنا، يتوهون، لا نعود نعرفهم ولا نستدلّ علَى أماكنهم، يستعبدونهم ويفرّقون بينهم وبين ذويهم، أهكذا يكون العدل يا الله؟!

تغالبني دموعي مرّةً أخرى ونحن ندلف إلَى حيث يجلس المنجّم فوق حصيرٍ علَى الأرض، بجواره موقد يطقطق، وجدران بيته ملوّنة، يدخّن نرجيلةً ويرفع وجهه إلينا يفحصنا، لا يبدو علَى وجهه أثرٌ لصحّةٍ، تجويفا عينيه مغلقان بهدبٍ رمادية، ولا يكاد يظهر مِنْ عينيه غير خطّين رفيعين، وندفٌ مِنْ الشّرر تتطاير محترقة حوله مِنْ النّرجيلة، كان ضئيل الحجم ومكوّرًا وهو قاعد ولمْ يبد أنّه

اكترث لدخولنا إليه!

جلسنا، فصبّ المنجّم شرابًا مِنْ إناء وناولني إيّاه، نظرتُ إلَى رفيقي متردّدًا فصاح:

-اشرب يا شيخ، لا رفضَ هنا.

كرّر المنجّم عليَّ متبرّمًا:

-اشرب إنّه حليب، سيجلو التّشويش عنْ رأسِك.

ورغم ما أعاني، شعرتُ أنَّ شرابَه قدْ أراح صدري، اتّسعتْ الرّؤية أمام بصري، وغصتُ في الخيالِ، رأيتُ «بوغ» ووجوه النّاس الآنسة وهم يجرّون الماشية كي يباشروا يوم عملٍ طويلٍ يبدأ قبْل أنْ تتمطأ الشّمس في منصّة السّماء، وشاهدتني وأنا جالسٌ علَى الحشائش أغمس ساقيَّ في ماء «جيحون» ومِنْ ورائي زوجتي تتدلّل، ورأيتُ «محمّدًا» وهو يودّعني متّجهًا إلى دروسِه، فساب جسمي وأحسستُ كأنّ أطرافي قدْ يبستْ.

هزّني المنجّم، رفيقي مسح دموعًا قدْ سالتْ علَى خديَّ، وقال في عطفٍ:

-علَى رِسلك يا رجل، لكلِّ قدر أوان.

شدَّ المنجّم يدي وأطبق عليها، وفتح صندوقًا وأخرج بعض الأدوات والأجهزة، غزَّ في ذراعي إبرةً ومصّ بفمه الدم النّازف مِنْ الجرح، همهم:

-اسمك وكنيتك.

-«عيسَى بن سورة بن موسى بن الضّحّاك».

-«محمّد» مَنْ يكون؟!

انتفضتُ كالملسوع:

-هذا مِنْ جئتُكَ لأجلِه! إنّه ولدي.

-دعه.

وابتسم وهو يترك ذراعي:

-والله لإنّي أرى ما صار عليه وما سيكون ووالله ليس يصل إلى مبلغه الذي وصل مخلوقٌ مِنْ الإنس.

-فقدتُه اليوم!

-وفي الغد يأتيكَ ظافرًا مظفّرًا كبيرًا مِنْ كِبار القوم.

-إنّما أريده اليوم وليبق علَى ما هو عليه.

-أنتَ لا تنصت!

ثمّ انهمك في النّرجيلة وقال وهو يشيح بيدِه:

-هيا اذهبا.

خرجنا، استوقفتُ رفيقي:

-هذا الرّجل مجنون، أريدُ أنْ أجد ولدي، كلامُ المنجّمين لنْ ينفعني.

ضرب كفّيه:

-لا حول ولا قوّة إلّا بالله، أين بحثت عنه؟!

-في كلّ «نيسابور»، لمْ أترك مكانًا إلّا وذهبتُ إليه.

-وسوق النّخاسة!

-لا أعرفه.

وقبْل أنْ أمتطي البغل خلفه رفع إصبعه ينبّهني:

-نهايتي معك هناك، لدي أشغال يا شيخ.

أومأتُ برأسي وركبتُ، كان اللّيل يترجّل مِنْ صهوة السّماء ليفترش الأرض حولنا، يترك البغل الطّريقَ الواسعةَ ثمّ يواصل الهبوط في منحدرٍ ترابيٍّ حتّى نجد نفسينا بين بيوتٍ طينيّةٍ غير منسّقة تقابل بعضها بعضًا، نغوص مع الظّلمة الضّاربة ونلتفّ مع الدّرب الذي يشقّ البيوت ضيّقًا مرصوفًا علَى غير تساوٍ، إلَى أنْ ينفتح علَى وادٍ رمليٍّ، أرَى أطياف الأشياء والمشاعل تتراقص في نقطةٍ قريبةٍ خلف كثيبٍ، وفيما يُبطئ البغل مِنْ سيرِه تقابلنا جماعات بدتْ عائدةً مِنْ سوق النّخاسة، ينظرون نحونا، يحيّون رفيقي، أفواج تختفي في الظّلام مِنْ وراءنا ويظهر غيرها، روائحهم رائحة شقاء، ندخل إلى السّوق، أوشك أنْ يغلق، نزلتُ مهرولًا، استفسرت عنْ «محمّد»، وصفته، لمْ يتعرّف عليه أحد، قلّبتُ في الأولاد الذين تمّ شراؤهم، أبعدني بعض الشّراة وتعاطف معي آخرون، وتُركتُ أبحث عن «محمّد»، بدا صوتي محبوسًا، غصّة في قلبي، لا أحدَ يعرفه، لا أحدَ رآه، لكنَّ واحدًا مِنْ الشّراة أوقفني وهو يشير باتّجاه الشّرق:

-منذ ساعات خرجتْ قافلة إلَى «عمّورية» تحمل بعض الأولاد،

اشترى النّصارى أولادًا كُثرًا اليوم، لربّما كان ولدك بينهم.

ثمّ تنهّد وهو يقول:

-لكن حتّى إنْ كان ولدك ارتحل إلَى «عمّوريّة»، فأنتَ فقدتُه علَى أيّة حالٍ وانتهى الأمر، لا أملَ لكَ يا رجل، استعض الله فيه.

وعندما عدتُ إلَى المدينة متخاذلًا مقهورًا كانتْ الضجّة في الشّوارع، النّاسُ تجري مِنْ حولي، كانوا يهتفون بأصواتٍ عاليةٍ فرِحةٍ كأنّهم يهنئّنون بعضهم البعض:

-«المأمون» مات.. «المأمون» مات.

محمّد بن عيسَى الصّحراء - 218 هـ

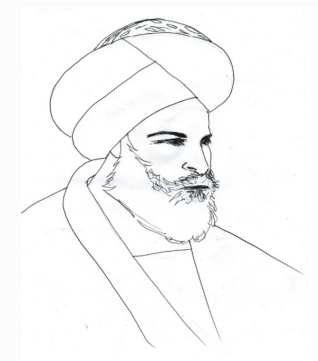

أسرابُ الطّيور تمرق في لونِ السّماء الأحمر فتقطعه بخيوطٍ سوداء متّصلة نازلة إلَى أسفلٍ لتتجمّع علَى أكمّة الأشجار، الشّمسُ تشدّ الضّوء إليها وتغطس خلف الجبل، كلُّ مَنْ له غرضٌ اقتناه ومضى، كلُّ مَنْ اكترَى بغية غادر المكان، فرغ النّاسُ مِنْ الأشغالِ، ها هم يدخلون إلَى قلب «نيسابور» فيما ننذرف خارجها، صفوفٌ مِنْ العساكر والحرس والتّجار علَى أقدامهم، بعضُهم سيركب دابّته فيما قليلٍ ولحين الانتهاء مِنْ مراسم وداع المدينة، وبعضُهم سيصل إلَى وجهته عنْد مدينةٍ أخرى قادمة، بعضهم ظفر، بعضهم خسر، وبعضنا يتأسّى علَى بعضٍ.

خيولٌ تجرُّ صناديق خشبيّة مربوطة بالحبال المجدولة علَى إحكامٍ وفي أكثر مِنْ موضعٍ، الصّناديق فيها ثقوب متفرّقة استطعنا

أنْ نرَى التّفاصيل مِنْ خلالِها، والصّناديق علَى عجلاتٍ، والعجلاتُ تطحن الحصى وتهرسه فيما حرّاس المدينة يفتحون البّوابة إيذانًا برحيل قافلتنا، زئير الضّواري غاضبٌ بداخل الأقفاص الموجودة فوق العربات الخشبيّة، الضّواري تخمش، تنازع أنْ تجد فرصةً للفرار، مثلها مثلنا، القافلة محمّلة بالجوارح والضّواري والدّواب علَى أنواعها، والأقمشة والمجوهرات والأطعمة والتّوابل والجواري والإماء والغلمان والخدم.

نترك «نيسابور» وراءنا، يتصاغر سورُها، تتلاشى الأصوات، يصبح النّاسُ نطفًا بعيدة لا نكاد نميّز ملامحها إلّى أنْ يبلعهم المدى، تختفي البيوت وتختفي المزارع وتختفي قمم الجبال، لا زحامَ ها هنا ولا مجادلة ولا أبي، ضاع أبي، أو ضعتُ، أوليس يجمعنا قدرٌ! لستُ أعرف! أنا في صندوق خشبيّ، والصّندوق مُغلقٌ علينا نحن الأولاد، في رقابنا سلاسل، وعلَى أيدينا وشوم، والقافلة تسير بنا إلَى مجهولٍ.

علَى أعتابٍ المدينة الوحيدة بعْد «نيسابور» يتركنا بعضُ الرّحل، ونستكمل مسيرَنا، ولا يعود شيءٌ في الأفق، لا مدنَ أخرى ولا قُرى ولا مكانَ آهلًا، الصّحراء تشفطنا، نصبح خطًّا رفيعًا يقطع بحر الرّمال، الصّحراء تنحدر بنا إلَى حيث رمالٍ أنعم منبسطة تتعثّر فيها الدّواب والجياد ويتعطّل السّير، الهواء باردٌ واللّيل يستبيح البشر في الصّحراء، هذه الصّحراء وليلها تآخيا علَى إهلاك العابرين، هكذا قيل لنا، القوافل بعضُها يصل وأكثرها يضيع، لا واحةَ فيها ولا آبار مياه، رمال تسلّم لرمالٍ، دليلُها شحيحٌ وقوافلها نادرة وأخطارها قريبة، لكنَّها الطّريق الوحيدة النّافذة إلَى «عمّوريّة»، وإلّا ركبنا البحر وتضاعف وقت رحلتنا.

عرّجت القافلة بين الكثبان لنخيّم، سنقضي اللّيلَ حول المشاعل وفي السّمر ثمّ عنْد أوّل خيوط الصّبح نعاود الارتحال، ضربوا الخيام وأخرجونا مِنْ الصّناديق، لمْ يفكّوا قيودنا لكنّهم أوسعوها قليلًا كي نجالسهم، انتزع الجنود دروعهم وتخفّفوا، كوّموا سيوفهم ورماحهم فوق بعضِها البعض علَى مقربةٍ، أشعلوا المجامر وفرشوا الحُصر أمام الخيام، خرج أحدُهم يلاعب نسناسًا فأضحك الجميع، وخرج حاوٍ يلاعب يديه فأدهشهم، وبعْد قليلٍ التهبت الأكفّ بالتّصفيق لجاريةٍ ترقص، الدّفوف تضرب، والجارية تدور بين التّجار والحرّاس والعساكر، يتبادلون قناني الشّراب، وأدمغتهم

تختمر، وعلَى مقربةٍ جلس بعض القساوسة يصلّون أمام خيمتهم، كأنّهم يتقرّبون للصّحراء ويصلّون لها كي يأمنوا شرّها.

عكف بعضُ العساكر المرافقون لنا يصطادون السّحالي والحيّات والجرذان وأرانب الجبل، يتسلّون لمضي اللّيل، يلعبون بالسّيوف، يتقافزون بين الكثبان، يلاحقون بعضهم البعض، ثمّ يختفون، ولا

يعودون إلّا وغزال في أيديهم!

يكدّسون في الموقد حطبًا علَى إكثارٍ استعدادًا لوليمة الصّدفة، تضطرم النّار، تتّقد الشّهية، يسيل اللّعاب.

رائحة الشّواء تعبقنا، والدّخان يدفئنا، وفيما قليل سيكون الغزال كافيًا لإطعام القافلة كلّها، يتركون أحد خدّام القافلة يشرف علَى الشّواء وينهمكون مع الرّاقصة، الأيدي تخبط جسمها في أكثر مِنْ موضعٍ، علَى أفخاذها وثدييها وظهرها، تتمايل بينهم علَى نغم الدّفوف، توزّع حبّات الرّمل بقدميها علَى ملابسِهم وعلَى وجوههم، النّشوة تستغرقهم، والدّفء يسكرهم.

-غنّي.

يأمرها وليّها، فتبدأ في الغناء، كان صوتُها علَى عكس جمالها، لكنّها غنّتْ علَى أيّة حالٍ امتثالًا لأمر صاحبها، وبدا صوتُها مغموسًا في الأنين والمرارة، لكأنّما أقسرتْ -مثلما أقسرنا- علَى هذه الرّحلة.

وانكبّوا علَى الطّعام إذ تحضّر، في حين توقّف الغناء والطّبل، وبينما هم منشغلون بحثوا عنْ الجارية فلمْ يجدوها، فُزع وليُّها، صاح:

-الصّحراء لا مهرب فيها! بالله أين ذهبت هذه الجارية؟!

أدركنا أنّها لمْ تهرب ولمْ يخطر ذلك علَى رأسِها، كان أحد العساكر السّكارى قد اختلى بها وراء خيمةٍ ليقضي منها وطرًا، ذلك عندما بلغ مسامعنا صيحاتها المتفرّقة، كان صوتُها مبتهجًا وهي تئنّ مِنْ النّشوة، العسكري فحل، ووليُّها استبدّ به الغضب، هبَّ إليهما، وسمعنا زعاقًا، ثمّ تقهقرت المعركة نحونا، كانت الجارية لا تكاد تلبس شيئًا، وبدتْ هي الأخرى غاضبة، لكن لانقطاع اللّحظة، ووليُّها أمسك في رقبة العسكري، واحتدم بينهما الخلاف، حاولوا أنْ يفرّقوا بينهما دون جدوى، كلاهما ثائرٌ، كلاهما فحل، واليدان متخشّبتان علَى اليدين، العسكري يركل بساقِه والآخر يضرب بجبهته، ثمّ انفلت أحدهما عنْ الآخر، قام وليّها بشدّ وتد خيمة

فأسقطها، وهاش الرّمل حولنا، اندفع نحو العسكري بالوتد، ورفعه يهوي به علَى رأسِه، وبمقدار وهلةٍ استطاع العسكري أنْ يرمي نفسه بعيدًا عنْ مرمى الوتد، وهرول إلَى سيفه، تدخّل القساوسة والتّجّار والأدلّة وحاول إبعادهما، الخمر عقرت الرّؤوس، لا فائدة مِنْ فكّ التّلاحم، العسكري وجهه يكبّ الدّم، جرى إلى الآخر، قطع رأسَه بالسّيف، فجمد الجميع.

تدحرجت الرّأس إلَى موضعنا، كان عيناها لا تزالان متّسعتين علَى هلعٍ واندهاشٍ، صرخت الجارية بلوعةٍ، وبالكاد استفاقتْ فارتدت ثوبها، وقف الجميع ملجّمين يتلقّطون أنفاسهم، ولئن أهلكت الصّحراء واحدًا فكم ستهلك بعْد؟!

لا شعورَ بالذّنب قُد يعيد ما اقترفته يداه، كلّ هذا واللّيل لمْ ينتصف، الجارية ساكتة وتجلس أمام خيمتها واضعة رأسها بين ركبتيها، وليّها صار قطعتين، أشلاؤه ستبقى في الصّحراء، عرضة للنّهش، للذّئاب الجائعة والضّواري وثعابين الأرض والجوارح!

قسّيسٌ ينصح بالدّفن، العسكري يستعين بآخر فيحفران حفرة، يشرعان في دفن القتيل، تصيح الجارية فيهما:

-ألَا نغسّله؟! ألا نكفّنه؟! ألا نصلّي عليه؟! لقد عاش مسلمًا ومات مسلمًا!

ينظران إلى القسّيس، يهزّ رأسَه موافقًا، العسكري نصرانيّ، يدعو المسلمين في القافلة لفعل ما هو متّبع، مسلمان يقومان، يدخلان خيمة بالجثمان، أحدهما بالجسم والآخر بالرّأس، لا يستغرقان إلّا أنْ يخرجا وهما يحملانه ملفوفًا في كفنٍ أبيض.

أبسمل وأقرأ القرآن وأستعيذ بالله، ما طالِع هذه الرّحلة الشّؤم!

عنْد إشراقِ الشّمس نمضي، تسير القافلة بين الرّمال والرّياح حاملة معها الدّم والإثم، الجارية صارتْ خاصّة العسكريّ وقد اقتناها علَى وعدٍ بالزّواج فمثله لا جاريةَ له، نصعد مع الرّمل ونهبط معه، ومِنْ جانبي القافلة تظهر جيادٌ يركبها ملثّمون، سيوفهم مرفوعة، وصياحُهم علينا ليس يحتاج إلَى تأويلٍ، قطعوا الطّريق علَى القافلة وأوقفوها، التاع التّجار الأثرياء وحاقتْ بهم البلاهة وانعدام

التّصرف، تقدّم عليهم بعضُ القساوسة، كانوا ثلاثة، وعاد اثنان منهم، حيث رأيناهم وهم يجادلون القاطعة في أمرِ القافلة، بلغ بهم الجدال أنَّ واحدًا زعق فيهم، فدنا منه كبيرُهم،

دسّ السّيف في بطنِه ثمّ دفعه بقدمِه فانكفأ، أمّا الآخران فهرولا نحونا يستنجدان بالحرس والعساكر وبقيّة رجال القافلة، بالطّبع إنّها لمعركة خاسرة، لمْ يتحرّك أحدٌ، التّجار خافوا علَى مقتنياتهم وأحمالهم، لكنَّ العساكر قالوا:

-تخلّوا كي ينجو الجميع!

لمْ يستوعبوا الأمر أو ما أرادوا، لقدْ أنفقوا أموالهم بهذه القافلة، كان مِنْ العُسرِ عليهم أنْ يتركوا ما أنفقوا فيه، فتلاسنوا معْ العساكر، لكنَّ واحدًا فيهم قال:

-أيّهم أبقى؟! أرواحنا أم تجارتُكَ!

إنَّ الاختيارَ محسومٌ، لا بديلَ عنْ التّخلّي إذن، صعبٌ لكنّه مقضٍ، إمّا بالرّضا وإمّا بالإكراه، والرّضا وسيلة الحماية والنّجاة لكلّ القافلة.

اقترب كبيرُ القاطعة مِنْ القسّيس رئيس القافلة وزام، كان جسدُه بعرض مترين وطوله مثلهما، يتدلّى مِنْ جنبِه جراب السّيف، والسّيفُ في يده، سنُّه للأرض لكنّه متأهّب، يتقاطر منه دم القسّيس -الذي قُتِل- بينما كان يحوّم بيننا، صاح:

-مال أم جوارٍ وإماء وغلمان! هكذا نربح وهكذا نربح، عليكم الاختيار بينهم.

تشاوروا وتناقشوا فيما يُمكن أنْ يصرف عنّا شرّ أولئك القاطعة، واستغرقوا، أمرَ كبيرُهم رئيس القافلة:

-عسكروا هنا، سنقضي اللّيلة معكم إلَى أنْ تتّفقوا علَى أمرٍ.

جعفرُ بنْ أبي الحافظ 248 هـ

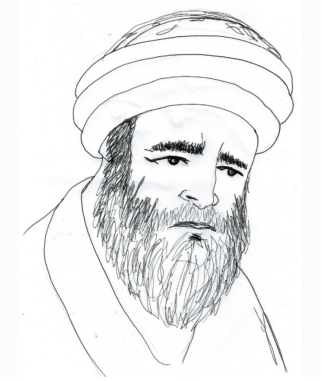

-أنا «زيد بن إبراهيم»، وأنتَ! لا يبدو وجهُكَ غريبًا عليَّ!

-أنا «أبو عيسى بن سوَرة»..

-«التّرمذيّ»!

كان الإمام «زيد» فرحًا وهو يصيح، شال عصاه عنْ الأرض وارتمى متأبّطًا صدر «أبي عيسى»، همهم:

-ما أطول ما انتظرتُكَ!

دوّر «أبو عيسى» عينيه نحوي ورفع حاجبيه مندهشًا، ثمَّ قال حائرًا:

-أو تعرفني يا شيخ «زيد»؟!

-رأيتُكَ مِنْ قبل، رأيتُكَ كثيرًا، أتحسب أنّكَ جئتني بهواك؟! والله ما ساقكَ إليَّ إلّا إنّي دعوتكَ.

ولمْ يضف، مضى بنا رغم اندهاشنا، سرنا وراءه وكان يقطع الطّريق ببطء، تخمش عصاه الأرض، ويمسح ثوبه ترابها، لمْ ينطق «أبو عيسَى»، تبعَ الإمام المرتجَى شاردًا كأنَّ به يرتّب في رأسِه النّقاشات، أمام بيتٍ صغيرٍ توقّف الإمام «زيد»، دفعَ البابَ بيدِه، دعانا للدّخول وراءه بنظرةٍ واحدة، لمّا دخلنا كانت المشاعل مضاءة، البيتُ منسّقٌ علَى أكمل وجهٍ، ورفوفُ الكتب تلمع كأنّها حديثة الوفود، كتب تبلغ سقف البيت بارتفاعها، مرصوصة فوق بعضها البعض، تجمّد أمامها «أبو عيسى» طويلًا، إنّها غايته بنهايةِ المقام، تخلبه وتستحوذ علَى حياتِه مِنْ بدايتِها.

ليس ما يوحي بالفوضى في البيتِ، الكتبُ في أماكنها، المشاعل، الأواني، لولا أنّ كرسيًا واحدًا بدا متهالكًا في زاويةٍ بجوار الجدار، فطنتُ أنّه كرسي الإمام الذي تعوّد أنْ يجلس عليه مستذكرًا فبلَى مِنْ كثرةِ الجلوس.

البخورُ يسبح في فضاء الغرفة، تتداخل فيه ألوانٌ عجيبة، أو كأنَّ له لونًا ممزوجًا مِنْ الألوان جميعها، ليس لونَ الدّخان، بلْ لونَ التّقوى!

موقدُ نارٍ نحاسيٌّ موجود في زاوية الغرفة، بداخله حطبٌ مشتعلٌ تهوّم ندفُه في الهواء أمام أعيننا، يجلس خادمٌ بجوار الموقد يزوّده بالحطب، لمْ ينظر إلينا، كأنّما اعتاد أنْ يكون لمولاه مريدون.

بعينيَّ مضيتُ أتأمّل تفاصيل الغرفة، إنّها تفاصيل تبعث علَى السّكينة، بلْ تدفع إلَى معاقرة الغرفة كأنّكَ لست تريد الخروج إلَى العالم هناك.

بعْدها سحبتني عيناي لتأمّل الإمام «زيد» نفسَه، شخصتُ فيه، لا طويل هو ولا قصير، ولا ممتليء ولا نحيف، بلْ معتدل اعتدالًا ربّانيًّا، صوتًا ووجهًا وجسدًا.

عيناه تتألقان فيما يتحدّث، تألّقًا عفويًّا، ثمّة سرٌّ في هذا الإمام، لعلَّ «أبو عيسى» أدركه، هو يُدرك ومثلي لا يفعل، ثمّة سرٌّ يجعل كلَّ شيءٍ فيه مضبوطًا بالتّمام.

استدار الإمام «زيد» إليَّ يتفقّد اهتمامي به مستشعرًا، ثمَّ جوّل بصرَه بيننا وهمهم مبتسمًا في رزانةٍ:

-رأيتما أنّي أعيش وحيدًا بعدما ارتحل أولادي بين البلاد!

ولمْ يزِد، جلس مباشرةً على مقعده وشدّ مقعدين آخرين كيما نجلس، زفر زفرةَ إعياءٍ وقال:

-إذا أراد أحدكما طعامًا أو شرابًا فليخدم نفسه لأنَّ الخادم مشغولٌ في تدفئتنا..

وأشار إلَى غرفةٍ في الجوارِ تحوي الطّعام والشّراب.

-صحّتي لا تسمح لي بخدمةِ نفسي حتّى فاضطررتُ مرغمًا إلَى الاستعانة بخادمٍ رفض أنْ يتقاضى أجرًا فلازمني تطوّعًا!

وبامتنانٍ نظر إلى خادمِه الذي ابتسم.

عاجله «أبو عيسى»:

-إمامنا، وقعتُ علَى حديثٍ وقالوا إنَّ بيانه عندكَ.

-ألَا تلتقط أنفاسك مِنْ طول الرّحلة!

-بلْ تهدأ أنفاسي إنْ كانتْ لديك بغيتي.

-فافعل ما جئتَ له.

اقترب منه، حدّق في عينيه وقال:

-عنْ «أبي هريرة» رضيَ الله عنه قال، قال رسول الله عليه الصّلاة والسّلام: «ما تصدّق أحدٌ بصدقةٍ مِنْ طيبٍ، ولا يقبل اللهُ إلّا الطّيب، إلّا أخذها الرّحمنُ بيمينه، وإنْ كانتْ تمرةً، فتربو في كفِّ الرّحمن حتّى تكون أعظم مِنْ الجبلِ، كما يربّي أحدُكم فَلُوَّهُ أو فصيلَهُ»، ما رأيُكَ في مسألة الصّفاتِ؟!

ران الإمام «زيد» بعينيه قليلًا ثمَّ حكَّ ذقنه في ظهر يدِه، وقال:

-هذه مسألة قديمة احتدم فيها الخلافُ واشتدّ، وأوّلتْ وفق كلّ مذهبٍ.

-ولمْ تُحسَم!

-الأصلُ فيها عدم التّأويل وهو مذهب السّلف، لأنَّ قدرةَ الله

فاقتْ إدراك مخلوقاته، فكيف نُدرك ما لا يُدرك؟! إنَّ اللهَ لا يجوز تشبيهه بمخلوقاته ولا التّقريب حتّى، فإذا أثبتنا الصّفات وتمَّ إجراؤها علَى ظواهرها ونفينا الكيفية والتّشبيه عنها فإنّنا نبطل ما أثبته الله، وإذا حقّقناها فإنّنا نشبّه ونكيّف، إذن فالكلامُ في الصّفات هو فرع مِنْ الكلام في الذّات، فلنقس هذا علَى ذاك، فإذا كان معلومًا بالضّرورة أنَّ إثبات الله هو إثبات وجود لا إثبات كيفية، فلينصرف هذا علَى إثبات صفاته، هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف، فمثلًا إنْ قلنا لله يد وبصر وسمع، فاليدُ هنا صفة أثبتها الله لنفسه لا تعني القدرة، ولا السّمع والبصر يعنيان العلم، ولا يُقال إنّها جوارح، لذا لا يجوز تشبيهها بالأيدي والأسماع والأبصار التي هي جوارح وأدوات للفعل، بلْ يُقال وجب إثباتها لأنَّ التّوقيف ورَد بها، ووجب نفي التّشبيه عنها لقول الله تعالي: «ليس كمثله شيء»، و«لم يكن له كفوًا أحد».

-إنّما ألا يكون حديثُ «أبي هريرة» إشكالًا لأنّه يجعل لله يدًا، وهو تجسيمٌ وتشبيهٌ، فيما يعارض الأدلّة القطعيّة بتنزيه الله عن ذلك؟!

-بلْ يصير التّشبيه إذا كان يد كيد أو مثْل يد، أو سمع كسمعٍ أو مثْل سمعٍ، فإذا قيل سمعًا كسمعٍ أو مثْل سمعٍ فهنا يقع التّشبيه، أمّا إذا قيل كما قال الله تعالى: يد وبصر وسمع بتجريدٍ مِنْ أدوات التّشبيه ولا يقول كيف، ولا يقول مثْل يد أو كيد، فلا يكون تشبيهًا ولا يخضع لقواعده، كما قال ربُّ العالمين في كتابه: «ليس كمثلِه شيء وهو السّميع البصير».

العبّاسُ بنْ المأمون سامراء - 223 هـ

وقفتُ بين يدي عمّي «المعتصم» والقيدُ يغلّلني، يجلس لا يبدو عليه أيُّ شعورٍ، كأنّما لا يودّ أنْ يعلِن عنْ ظفره بي، ظلَّ هادئًا، ثابتًا في قعدتِه، وكان الحرسُ يحاوطونني، ثمَّ أخذ يحملق فيَّ قليلًا بإمعانٍ، أردف بعْدها:

-تُرى أندمتَ على بيعتكَ لي يا فتى؟!

-وهل يجدي النّدمُ بعْد فواتِ الأوان؟!

قهقه وارتجّ جسمُه:

-يا لجسارتكَ!

قام مِنْ على كرسيه بحركةٍ خاطفةٍ ودنا منّي، تفقّد ملامحي ووضع راحته علَى رأسِي، قال بصوتٍ رقيق:

-مَنْ حرّضك علَى عمّكَ يا ابن أخي؟!

-وهل يحتاج المتفكّر متأمّل الأحوال إلى تحريضٍ؟!

-زدني إذن وسأسمع إليك.

بدتْ محاولتُه لتوريطي في الحديثِ عن نواياي مفضوحةً، لكن هل سأخسر شيئًا بعْد وقدْ خسرتُ بالفعل كلَّ شيءٍ منْذ أُسرِتُ وها أنا أوشك علَى خسران حياتي؟!

قلتُ في تحدٍ:

-استبدالك للجند «التّرك» بالجند «الفرس» حتّى زاد أذاهم في «بغداد» وضيّقوا علَى السكّان!

صاح:

-يا ابن أخي تتحدّث عمّا مضى ولمْ يعُد يلزم الحديث عنه! إنّهم في «سامراء» اليوم وقضي الأمر.

-أقمتها لهم مضطّرًا مكان «القاطول»!

-فليكن، علَى أيّة حالٍ كانت «القاطول» مصيفي وأقضي بها بعض وقتي، ما يضرّك في غير شأنكَ؟!

-الدّولة شأني أيضًا يا أمير المؤمنين!

-دعك مِنْ السّفسطة وأخبرني عمّنْ حرّضكَ ضدّي!

-قلتُ لا أحد.

-تحسبني قدْ كفَّ تدبيري وعدمت الحيلة يا ابن أخي! والأمراء والقادة الذين يجتمعون معك في قصركَ ويحثّونكَ أنْ تخالفني وتفتك بي!

قلتُ له في سخريةٍ:

-تعلم إذن!

-ومَنْ غيري يتاح له العلمُ يا فتى؟!

-لولا أخشى أنْ أحرم المسلمين من غزو الرّوم في عقر دارهم لاستمعت إليهم.

-وأدركت أنباء «عمّوريّة» قبْل وصول «حيدر» أيضًا؟!

-وهل غيري يتاح له الإدراك يا أمير المؤمنين؟!

عاد وجلس علَى كرسيه:

-علَى أيّة حالٍ أمامكَ خياران، إمّا السّجن وإمّا الالتحاق بالجيش إلى «عمّوريّة»، فاختر.

-أو تظنَّ أيّهما أختار يا عمّاه وقدْ تربّيتُ على يديكَ؟!

ابتسم، لوّح للحرّاس قائلًا:

-حلّوا وثاقه طالما اهتدَى.

محمّد بن عيسَى الصّحراء - 218 هـ

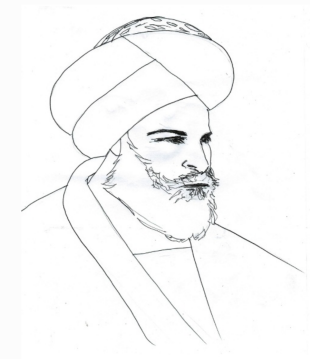

حاصر القاطعةُ خيامنا وتربّصوا انتظارًا للقرار، استملحَ كبيرُهم «جعفر» فنزعه مِنْ بيننا، حدّق فيهم فلمْ يعارضه أحدٌ، كانوا قدْ تمكّنوا مِنْ السّيطرة علَى مفاصل القافلة وأسلحة عساكرها وحرّاسها، دخل كبيرُهم بـ «جعفر» إلَى خيمةٍ، لمْ يُسدِل عليهما فتركنا نشاهد، نزع عنْ «جعفر» سرواله، حسّسَ على جسمِه، ثمّ خلع ما يرتدي وأجهز عليه، «جعفر» يصرخ لكنّه لا يقدر أنْ يقاوم، كبيرُ القاطعة بأوساخه وأسماله المتهرّئة راقدٌ عليه، بصاقه علَى يديه وقضيبه ينغرس فيه ويطلع.

استطعنا أنْ نلمح بياض عينيه اللتين غابتا مِنْ النّشوة، وهو يدخل في «جعفر» بعنفٍ ولا يكاد يخرج منه حتّى يعاجله، ثمّ يجأر جئيرًا متقطّعًا كما لو أنّه يُمارس طقوسًا شيطانيّة، وبينما «جعفر»

ينزف لمْ يبد عليه أنّه يحفل، بلْ ضمّ جسم «جعفر» الضّئيل بين ذراعيه ورفعه معه و«جعفر» مجرّد غلام صغير ها هو يدور بعينيه إلينا ولا يوشك أنْ يبصرنا مِنْ غمامة الدّموع، رفعه، جذبه إلَى جسمِه فجلسا معًا، لكنَّ الوضع انقلب، صار كبيرُ القاطعة تحته، غير أنّه قابضٌ عليه لا يفلته،

يرغمه علَى الطّلوع والنّزول، ليس يشفع شيءٌ ها هنا، وحتّى إنْ راح «جعفر» يستصرخنا لنهبَّ إليه تواطأنا علَى السّكوت بشكلٍ جماعيٍّ مُهين، فيكتم فمه كلّما صاح.

بدا «جعفر» كعصفورٍ تقبض عليه يدُ صيّادٍ، والصّياد لا يكتفي إلّا أنْ يذهب بالفريسة للنّحرِ، لا مرحًا ولا تسليةً، بلْ عادةً، استنّتها الصّحراء علَى قاطنيها؛ عادة البغي، وفي صمتٍ نبكي صاحبنا، في صمتٍ نتابع ما يجري أمام أعيننا ونشهَد علَى انحطاط البشرِ معْ البشر، وبينما يتقلّص ظهر الصّياد، وبينما يدفعه بداخل «جعفر» أكثر كخنجرٍ مسنونٍ، يعضّ علَى شفتيه، ويغرس أظافره الطّويلة في صدرِ «جعفر»، استهلك رغبته في «جعفر» وتنهّد مستريحًا، راح صدرُه يعلو ويهبط، نصفُه الأسفل عارٍ وذكرُه متدلٍّ يقطّر المني، قلوبنا اكتوت، اكتفتْ بالاكتواء علَى مثْل هذا الصّمت.

بالله ليس يُمكن إلّا أنْ نحبس تساؤلاتنا، وسنظلُّ صامتين صمت هذه الصّحراء، صمت هذا اللّيل، متواطئين تواطؤ الجبناء إذا خشوا بطشًا، وسيكون نفس الصّمت، كلّ الصّمت، إذا شيءَ لنا أنْ تستكمل بنا الحياةُ مشوارًا، قال لي أبي مِنْ قبْل: «الصّمتُ سيّد المجالس إذا تجادل الرّجال»، لمْ يقل إنَّ الصّمت سيّد المجالس إذا تناكح الرّجال!

ستمضي الحياة يا «جعفر» لا عليك، لعلّ الله يملك النّجاة مِنْ حيث لا ندري، إنّه يملك كلّ شيءٍ وحده وله الغيب ولنا الصّبر.

أغمضتُ عينيَّ ورجوتُ الله الصّفح، هذا كثيرٌ عليَّ ما أرى، مِنْ دروسِ العلم إلَى مفارقات البغاء والبطش، يا له من انتقالٍ قدريٍّ!

أنهى علَى «جعفر» وخرج، فرك البصاقَ عنْ يديه وحطّ ملابسه عليه وعلّق سيفه، تمشّى بيننا وعلَى شفتيه آثار النّشوة وفي عينيه لمعتها، القساوسة والتّجار والعساكر يهمهمون، يبدو علَى وجوه بعضهم الأسى، بمَ تتأسّون؟! هذا الغلام في الغد سيرقد تحت أحدهم، هل ثمّة فارق بين قاطع طريقٍ وأمير مِنْ الأمراء؟! تسلّمون الغلمان إلَى هؤلاء علَى غير رضا ثمّ إلَى أولئكِ بإرادة كاملةٍ! نفس الأيدي وإنْ تنازعتْ المضارب!

كمن «جعفر» جواري وأطرق ببصره فربّتُ عليه، قلتُ:

-إنّه قضاء الله يا صاحبي..

لكنّه همهم لا يستدرك أنفاسَه:

-لـ.. لـ.. لا.. رادّ.. لـ.. لـ.. لقضائِه.

واندفع في البكاء فأخذته على صدري.

كبيرُ القاطعة يعوي:

-أوشك ينصرف اللّيل، أليس مِنْ طعامٍ؟!

وضعوا أمامه صنوف الطّعام علَى اختلافِها، لحمًا مقدّدًا بتوابلِه، وفاكهة مِنْ التّفاح والعنب والتّين والبرتقال، التهم علَى نهمٍ، عاد إليه أحد الحرس بقنّينة نبيذ، وفيما كان فمه مليئًا بالطّعام ويده مرفوعة بالقنّينة يلحم المضغ بالاجتراع نظر إلَى رئيس القافلة، وقال في تأفّفٍ:

-أدبّرتم أموركم؟!

هزّ القسّيس رأسَه، تمتم:

-خذ مِنْ الجواري والغلمان ما شئتَ، أمّا الأموال والبضائع فاتركها لأصحابِها.

لاحتْ علَى شفتيه ابتسامة ونظر إلَى أصحابه وبدا يتشاور معهم، وافقوا علَى ما عُرضَ عليهم، المغنم مغنم في نهايةِ الأمر، جاؤوا وقلّبوا بيننا يتخيّرون منّا، بدأوا بالجواري واستخلصوا عشر، ثمّ اقتربوا بالمشاعل مِنّا وفحصونا، دنا منّي أحدهم فدمدمتُ:

-«وإنْ يمسسك الله بضرٍّ فلا كاشفَ له إلّا هو وإنْ يردكَ بخيرٍ فهو علَى كلّ شيءٍ قديرٌ».

بدا فوجئ، استدار إلَى كبيرِهم وهتف:

-هذا الغلام يرتّل القرآن!

قام كبيرُهم مِنْ مكانه واقترب منّي، اكفهرّ وجهه وقال وهو يدكّني بقدمِه:

-مَنْ أنتَ يا فتى؟!

-أنا عبدُ الله الذي يحفظ قرآنه.

-والله ليس لنا فيمن يحمِل كلام الله فلا بيعَ فيه ولا شراء!

وانصرف إلَى رفيقه:

-دعك مَنْ هذا واجلب غيره.

أخذوا ما أخذوا وانطلقوا، كانتْ الجوارح تتلاحق مِنْ وراء التّلال معلنةً صعود الضّوء، تحرّكتْ بنا القافلة، وانقضى النّهارُ ونحن نعبر بين المناطق القاحلة التي تتناثر فيها الأشواك وبين الكثبان المختلفة، الصّحراء عارية، والصّخورُ متفتّتة إلَى قطعٍ، شظايا حملتها الرّياح والعواصف وألقتها بغير ترتيبٍ علَى صدور الصّحراء، مكشوطة ناعمة، متراصفة جوار بعضها البعض، تحوّلتْ إلَى كثبانٍ يعلو بعضُها علَى بعضٍ وينبسط بعضُها لبعضٍ، وفي الآماد حولنا عظامٌ متفرّقة، لمْ تكنْ عظامًا للجوارِح والضّواري فحسب، ولكنّها كانتْ عظامَ الذين غيّبتهم الصّحراء مِنْ رجال القوافل ونسائِها، غطّتهم الرّمالُ وبرز بعضُهم عنْ استوائِها.

ضربنا في الصّحراء أكثر وسط الجفاف والحرارة، والزّواحف والحشرات والعناكب تجري مِنْ حولِنا، تتمايل الجِمال بنا، تتهادى الخيول، تسلّمنا طريقنا إلَى كثيبٍ ناعمٍ يُثقِل الرّكب، وبينما كانتْ الدّواب تحاول النفاذ منه أخذ يُصدِر الصّفير والأصوات غير المتجانسة، صاح أحد الحرس في فزعٍ:

-عزيف الجنّ!

التفت إليه أحد القساوسة:

-أيُّ جنٍّ يا رجل! ألا ترَى تلك المشاعل في الأفق؟!

لنْ نخيّم ثانيةً، فحيث كان اللّيل يرفل قادمًا، كانتْ «عمّوريّة» باديةً في الأفق هناك، بأسوارها وأبراج كنائسها الضّاربة عاليًا في السّماء، وكان رنين الأجراس قدْ بلغ مسامعنا.

ها «عمّوريّة» ذات الحصون.

المُعتَصْمُ بالله بنْ الرّشيد سامراء - 222 هـ

(الدّخان طالعٌ مِنْ كلِّ شيءٍ، وفيما أستنشق الدّخان أتحوّل إلَى مبخرةٍ، فيتناوب الرّجال الطّواف بي وأنا بين أيديهم، أعبق أنوفهم، ولا ملامحَ تبقى منّي، لا ملامحَ تبقى وقدْ تسرّبتْ ملامحي بداخلهم عبر أنوفهم، فتشبّعوا بي.

والطّيور تهوي مِنْ السّماء، والعالم يتبدّل، الطّيور لمْ يطاردها أحد أو يقصفها أو يصطدها، هي تتساقط بمحض إرادتها، كأنّ الغيم يلفظها، كأنّ السّحاب يدفع بها للأرض: كوني دخانًا مثْل مَنْ كانوا!

نجوم السّماء مرآتي، النّجوم دعواتي المعلّقة، النّجوم فؤادي الذي تمزّع وصار أشياء، طار إلَى الأفق وضوّى، وإذا ما رأيتُ نفسي أحوّم في البعيد فكيف أستعيدني؟!

الدّخان بالدّخان تخالط، أصبح مجرّد شيءٍ مِنْ كلِّ شيءٍ عابر أو مقيم، كلّ شيءٍ طاع أم لمْ يطع، وشرعُ الدّخان أنْ يذوب الشيءُ في الشيء فيصبحا علَى غير ما كانا من هيئةٍ، والطّير إذا حطّ علَى الرّأس اشتعلتْ به، ومِنْ الدّخان لا يقوم قائمٌ ولا تُستَرد السّيرة الأولى، الدّخان حضور وابتداع

صحوٍ مِنْ جديدٍ، الدّخانُ سيعقرهم فيما انتهوا إليه ولن ينتهوا منه، لا يُطفأ لهبٌ مِنْ الدّخان، ومستصغر الشّرر سيصبح حريقًا يلتهم كلَّ شيءٍ.

وبينما أنا علَى تلك الحال خرج الشّيخ، أهو «ابن حنبل»؟! لمْ أعُد أعرف! خرج وكفني علَى يده، صاح: يا «ابن الرّشيد!» وألقى بالكفن علَى وجهي، تدحرجتْ منه رأس «بابك»، والدّم، نفس الدّم، ينفجر مِنْ رأسِه عليَّ، يُغرقني).

اعتاد «معبد» علَى صحوي بمثْل تلك الحالِ أرطن بالكلام غير المفهوم، دخل إليَّ وسقاني ماءً، ودلّك ظهري، في هذا الحلم شاهدتُ «بابك» لأوّل مرّةٍ، بلْ وكأنّها رؤيا، إنَّ الله يخبرني أنْ أقطع في أمرِ هذا الرّاعي وقد تمادى.

الآن الجيش جاهزٌ علَى تمامِه للفتك بالخرميّ «بابك» وأعوانه مِنْ الرّوم، كنتُ قدْ استقدمتُ جنودًا أتراكًا من «تركستان»، ما وراء النّهر؛ «سمرقند» و«أشروسنة» و«فرغانة» و«بُخارى» وغيرهم، منحتهم العطايا وبذلتُ فيهم المال على وفرةٍ وأنفقتُ ولمْ أدّخر كي أضمن الولاء مقابل ما أمنح، ألبستهم الدّيباج ومنطقتُهم بالذّهب والفضّة، هم مماليكي الجُدد الذين أحبطوا خطط الفرس ومؤامراتهم المتعاقبة وأحكموا عليهم الخناق، أمعنتُ في الشّراء حتّى بلغوا ثلاثين ألفًا وزادوا.

حينذاك ألمَح حاشية القصر وقادة القوّات إلَى إفراطي في الثّقة في أتراك الجيش، وذلك ما فعل الخليفة «المأمون» مع عجم «خراسان» وانقلبوا عليه مرّات، لكنّي كنتُ مستمسّكًا بهم، في مجلس القضاة أبدَى «أحمد بن أبي دؤاد» اعتراضَه، قال:

-يا أمير المؤمنين عندما فتح المسلمون بلاد ما وراء النّهر أخلص البعضُ للإسلام عنْ قناعةٍ، لكنَّ معظمهم ظلّوا يدينون بالمجوسية سرًّا رغم إظهار إسلامهم، كانوا يخشون السّيف!

-وكيف وقفتَ علَى بواطنهم؟!

-ألمْ يفتّتوا الأمصار بثوراتهم ضدّ «المأمون» ومِنْ قبلِه

«الأمين»؟!

-ليس ضدّ «المعتصم بالله».

-هم يكرهون العبّاسيين!

نظرتُ إلَى وزيري «حيدر بن كاوس»، وقائد الجيش «أشناس»، كانا قدْ لاذا بالصّمت، قلتُ:

-أنتما علَى رأس الجيش، ما رأيكما فيما يقول «ابن أبي دؤاد»؟

قال «أشناس»:

-يا أمير المؤمنين هم أهل حرب وولاؤهم كامل لك، تحصّنت بهم وأخلصوا لك، لكنّ أهل «بغداد» لا يطيقونهم.

أكمل «حيدر بن كاوس»:

-يضايقونهم بفرض الجباية ويدخلون بيوتهم ويعيثون في أسواقهم، لم تسلم نساؤهم ولا أطفالهم!

-ألا يفتَرض أنّهم أخوالك يا «حيدر»؟!

أخفض بصرَه فأحسستُ بعدم كياسة تطرّقي لهذا الموضوع خصوصًا أمام المجلس، فأمّ «حيدر بن كاوس» جارية تركية وهذا يعرفه الجميعُ، استدركتُ في سرعةٍ:

-في العموم لقد كسر الأتراك شوكة الرّوم وأوشكوا أنْ يقضوا علَى ما بقيَ مِنْ جيوشهم! «توفيل» يهدّد أطراف الخلافة بمعاونة «بابك»!

تدخّل «ابن أبي دؤاد»:

-مولاي، إنّك تبذل فيهم المال وتمنحهم أكثر ممّا تمنح لبقية الجيش، أتضمن ولاءهم؟! ألا تخشى؟! ماذا إذا انقطعت العطايا؟!

-أنا أثق فيهم يا «ابن أبي دؤاد»، وقدْ اختبرتُهم عنْد القتال.

-ثلاثون ألفًا مِنْ عرقٍ واحدٍ خطر علَى الدّولة وقدْ يطبّخون لنا أمرًا لسنا نعرفه!

-وأربعون وخمسون ولو بيدي لاستزدت، لا يسفك «الرّوم» غيرهم، ووالله لقد آنستُ فيهم قوّةً وولاءً ما شهدتهما فيمن سبقهم من جُند، ثمّ أيُّ خطرٍ تتحدّث عنه وأيُّ تطبيخٍ! إنّهم جنودي المخلصين يا «ابن أبي دؤاد».

-مطامعهم لا يُمكن الوقوف عليها.

-هم ذوو همّة وقوّة ونفع، ولي بهم صلة.

تحرّجوا أنْ يذكروا أنّ أمّي «ماردة» مِنْ سغد الأصقاع التركيّة، كما أنَّ خصالي توافق كثيرًا خصال الأتراك، هيئتي على هيئتهم، قوّة الجسم والبأس، لكنّي لمْ أتحرّج مِنْ التّمليح إلّى هذا الأمر، أقلّه كي أُشعِر «حيدر بن كاوس» أنّهم أخوالي أيضًا ونسبنا واحدٌ.

-لا تنس يا أمير المؤمنين أنّهم أصحاب مكرٍ وحيلةٍ ومزاجٍ متقلّب!

فضحكتُ محتدًّا، كان «معبد» يدعك قدميّ، أزحتُه:

-كمزاجي وحقّ الله.

ثمّ قلّبتُ بصري فيهم:

-لكم الشّورى فيما أشوركم عليكم، عدا ذلك لستُ بحاجةٍ لنصحٍ ولا إرشادٍ.

وأعدتُ النّظر إلَى «حيدر بن كاوس» و«أشناس»:

-ماذا نفعل في أمر أهل «بغداد» الذين ضاقوا بجنودي؟!

تنهّد «حيدر بن كاوس»:

-ثمّة اقتراح يا مولاي إنْ أذنت.

-تحدّث.

-أنتَ تنفق فيهم علَى سعةٍ، هم كثرة ولضمان الولاء وضمان أنْ تُشرف عليهم بلا وساطة فلتقم لهم حصنًا بعْد «بغداد» ولتكنْ عاصمة، لقدْ ضجّت «بغداد» بالفتن والأحاديث والشّكاوى والقلاقل والنّاس يتنازعون بشأنِهم وأخشى أنْ يحدث ما لا يُحمد عقباه.

جاء اقتراحه علَى هوى عنْدي، وقُرب «بغداد» أنشأتُ عاصمتي الجديدة؛ «سامراء»، نقلتُ إليها الخلافة وشيّدتُ قصرًا لمْ ترَ الأعين مثيلَه قبلذاك.

أرسلتُ «معبد» في طلب الحرس، جاؤوا ودخلوا المخدع، كان كأسُ الماء في يدي، ولمْ يزل وجه «بابك» يتراقص في خيالي.

-اعقدوا المجلس بحضور «حيدر بن كاوس» و«أشناس»، وليجهّز كاتبي ورقة فيها سيرة «باك الخرميّ»، أريد أنْ أرجع إليها فاستذكر ما فاتني عنه.

عشرون عامًا يا «بابك»! عشرون عامًا وأنتَ تتخفّى بين الجبال والسّهول والوديان، تضرب أطرافنا ثمّ تلتجئ لجيش الرّوم

يحمونك، عشرون عامًا ولمْ نستدلّ إليك ولا عرفنا لك مكانًا!

هبطتُ إلى المجلس، وقفوا لحين جلستُ علَى الكرسي، ابتدأتُ الحديث مخاطبًا الكاتب:

-هل أنهيتَ ما أرسلتُ إليكَ؟

-أجل يا مولاي.

ومدَّ لي يده بصحيفةٍ مطوية، فردتُها أطالع ما جاء فيها:

(«بابك الخرميّ» قائد حركة الخرميّة في «أذربيجان» ضدّ الخلافة العربية، أبوه «بهرام» أنشأه علَى الرّعي في قرية علَى أطراف «أذربيجان» اسمها «بلال آباد»، أمّه نجّمتْ له بالزّعامة عندما رأتْ الدّماء تجري تحت شعر رأسِه وهو نائمٌ، واستطاع أنْ يلتحق بجيش «جاويذان بن سهرك» الذي كان يؤمن بالتّناسخ ويعتقد بوجود إلهين أحدهما للنّور والآخر للظّلام...).

همهمتُ في ضيقٍ:

-أستغفر الله العظيم.

وأكملتُ تصفّحي:

(أباح النّساء فاتّصل به «بابك» ورأى منه الفطنة والدّهاء فأعجب به، قرّبه منه ورقّاه، ورث عنه «بابك» كراهيته لبني العبّاس، وورث أفكاره الخرمية التي تهجّن الإسلام بالمجوسية، ويوم مات «جاويذان» أرسلت امرأته في طلب «بابك»، قالت له: أمّا وقد مات «جاويذان» ولمْ أخبر أحدًا فأنتَ مَنْ يعرف الآن، وذلك حيث أشهد لك بالشّهامة والصبر، فتجهّز لمكانه. أوهمت امرأته الجيش أنَّ «جاويذان» أثناء موته رأى روحه تخرج وتحلّ في جسم «بابك» وأنّه سيبلغ بهم ما لمْ يبلغ بهم أحد، سيهلك جبابرة العرب ويعزّهم بالنّصر، آمن القوم بقول المرأة، وتزوّجها «بابك» فآمنوا به، وفي زفافه أتى ببقرةٍ ذبحها وسلخها وفرد جلدها ووضع فوقه إناءً مليئًا بالخمر، حول الإناء وضع خبزًا، وكان الجنود يأتون فيغمسون الخبز في الخمر ويقولون: آمنا بروح «بابك» كما آمنا بروح «جاويذان».

كثر أتباعه عندما كانتْ رُحى المعارك تطحن أمصار العبّاسيين في عهد الخليفة «المأمون»، وبدأت ثورته بأسر «أحمد بن الجنيد» الذي انتدبه «زريق بن علي بن صدقة الأزدي»؛ والي

«أذربيجان» و«أرمينية»، لقتاله، وقدّمه هدية إلَى «توفيل بن ميخائيل» إمبراطور الرّوم كي يتحالفا ضدّ الخليفة «المأمون».

الآن هو يغتصب النّساء ويقتل الرّجالَ والصّغارَ ويتوسّع عنْد أطراف الخلافة).

انتهت الصّحيفة، ووالله مهما زادتْ ما أساءتني أكثر ممّا فعلتْ تلك الكلمات الموجزة، كانتْ ملامحي قد بدا عليها الانزعاج وارتعش حاجباي، عاجلني «حيدر بن كاوس»:

-خيرًا يا أمير المؤمنين!

-«بابك الخرميّ»، رأيتُه في المنام.

-لي عامان ألحُّ عليكَ يا مولاي أنْ نخرج إليه ونلتقِه بقوّة ضاربة، لنْ يصمد أمام جيش العرب.

-وقدْ آن الأوان، هل يُمكن أنْ نجنّد جاسوسًا نستدلّ به علَى مخبئِه؟!

-جواسيسي في كلِّ الأصقاعِ فاطمئنّ يا مولاي.

قال «أحمد بن أبي دؤاد»:

-والله لقدْ استفحل هذا الكافر يا أمير المؤمنين في ضلاله وطغيانه! لقّن جنوده ألّا يتركوا مسلمًا أو مسلمة شيخًا أو صغيرًا إلّا وقطّعوه ومثّلوا به، قتلوهم أحياء وأحرقوا جثثهم، شرّدوهم، أشعلوا المدن والقرى، عاثوا فسادًا في بلادنا وأهلكوا النّسل والزّرع وأفسدوا علينا جيوشنا، وبلغ ما ناله «بابك» من المسلمين مئتي وخمسين رأسًا! لقدْ ارتعبتْ أصقاع المسلمين بسببِه.

-والله لقدْ أعددتُ العدّة لمثْل هذا اليوم ولقدْ أذن لي ربّي وعليه المددُ والصّلاحُ.

ثمّ جستُ بعينيَّ «حيدر بن كاوس»:

-أنتَ قائد قوّات هذه الحملة، اخرج وافتك به، آتني إيّاه حيًّا، كي أقتصّ مِنْه وأمزّقه بنفسِي.

انفضّ المجلسُ ولمْ تنفضّ رأسِي مِنْ زحامِ هواجسها بعْد، كاتبتُ ولاة الأمصار لإعانة «حيدر بن كاوس» وقوّاته، وإمدادهم عنْد النّقص والحاجة، كانتْ أخبار الحملة قدْ راحتْ تنتشر في «بغداد» و«البصرة» وما حولهما، ذاعت فبلغت «مصر» و«دمشق» ثمّ «خراسان»، وبدأ النّاس يثنون عليَّ في القرى والمدن، في

البيوت والمساجد والكنائس والحانات والدّكاكين والحمّامات، ليس يشغلهم إلّا أنباء هذه الحملة ومدى ما وصلتْ إليه.

الأئمة يدعون لي علَى المنابر وفي المجالس والدّروس، الباعة يهتفون باسمي أمام الرّحل والتّجار الغرباء، صرتُ عنوانًا لنُصرة الإسلام، وأزيحت الغمامات التي ارتبط بها اسم «المعتصم بالله» عنْ الأعين، تكاتف الجميع معي بعْد أنْ تكاتفوا ضدّي، وبلغني أنَّ «أحمد بن حنبل» بنفسِه يحمل النّاس علَى الهتاف والمباركة ويؤجّج حماستَهُم، الأملُ استشرى فانفجرَ بينهم، اجتمعوا عليَّ وجعلوني رمزًا لهم، ورحتُ أستطلع أخبار الحملة، أترقّب انتصارات «حيدر بن كاوس» المتتالية ومطاردته لجيش «بابك الخرميّ»، منْ الصّحراء إلَى النّهر، ومِنْ النّهر إلَى الأحراش، ومِنْ الأحراش إلَى المدن، كان يلاحقه بعزمٍ ودأبٍ، وقدْ انتوى أنْ يأتي به مسلسلًا في القيود.

انهمكتُ في الاحتفالات وجلسات الطّرب واحتساء النّبيذ والخلوة، ليلةً إلَى جارية، وليلةً إلَى إحدى زوجاتي، وليلةً إلَى «معبد»، وما خلوتُ إلّا لانشغال بالي بأمر الحملة التي يقوم عليها «حيدر» ويتعقّب بها «بابك» فرغبتُ في التّلهّي.

ودخلتُ إلَى «بغداد» عقب فترة زمنية طالت، خرجت مِنْ «سامراء» بقافلة تحمل الهدايا مِنْ الذّهب والأقمشة والفاكهة والدّنانير الذّهبية والدّراهم الفضيّة والدّواب علَى اختلافها والجوارح والضّواري على تعدّدها، استقبلني والي «بغداد» فدخلتُ إليها محمولًا علَى الأعناق، يزّفني أهلها ويضعون حول رأسي الأكاليل، فرشوا الأرض بالزّهور ورشّوا في الطّرقات ماء الورد، هلّلوا لي وأحاطوني ولثّموا فرسِي وباركوني، كان يوم جمعاء، فاعتليتُ المنبر أخطب فيهم، كان الأئمةُ جالسين يستمعون لي وعلَى وجوههم تبدّل الحال، إنّهم الطّيور التي رأيتُها في الحلم تتساقط عليَّ طوعًا مِنْ السّماء:

-يا معشر المسلمين جئتُكم اليومَ ويداي مبسوطتان، أطلب غفرانكم إنْ كان أساءكم منّي أمرٌ، وأطلب عونكم، فليس في المُستطاع إلّا أنْ نعاضد فرساننا وجيشنا وجنودنا وندعو لهم النّصر والعودة ظافرين سالمين، وأنْ نكون كما أمرنا الله سبحانه وتعالى؛ كالبنيان المرصوص يشدّ بعضه بعضًا، إنّنا اليوم علَى قلبِ رجلٍ

واحدٍ وعلَى رجاءٍ واحدٍ فخصمنا واحد، اليوم ليس بيننا خلافٌ ولا نزاعٌ ولا جدلٌ، سنشبّك أيدينا ونهبّ إلَى بغية لا غيرها ولا يرضينا سواها: النّصر علَى أعداء الله، فآزروني، الله أكبر، الله أكبر.

وجاشوا في المسجد بصوتٍ واحد زلزل أرجاء «بغداد» وردّدوا مِنْ بعْدي:

-الله أكبر.

وسار النّاس علَى هتافٍ واحد في قلب وأطراف وأنحاء المدينة:

-الله أكبر.

وأقيمت المجالس والتهبت أنفسُ النّاس، وغادرتُ «بغداد» إلَى «سامراء» وقدْ استوطنني الفخر والعزّة، هكذا يكون الخلفاء، هكذا يكون الرّجال، هكذا هم أبناء «عبّاس» رضيَ الله عنه، ولكنّي لستُ أخشَى إلّا أنْ يندحر جيشي بحيلةٍ ما، يحدث ما ليس في الحسبان وما لمْ نعدّ له أنفسنا، يحدث أنْ يريد الله لنا أمرًا غير الذي هممنا إليه!

وخالف الله ظنّي، جاءني رسول يحمل رسالة مِنْ «حيدر بن كاوس»، يخبرني فيها أنَّ جيش «بابك» مُحاصر في ثغرٍ مِنْ ثغور «أذربيجان»، مدينة تُدعى «البذ»، مقرّ «بابك» وحصنه المنيع، وطمأنني: «إنْ هي إلّا مسألة وقت يا أمير المؤمنين، لقدْ نصبتُ له الكمائن في الفجاج بين المرتفعات بعْد أنْ تعرّفت إلى طرقه في الحرب، هو يحارب ليلًا وسنجهز عليه نهارًا، ادع لنا يا مولاي».

أثلَج صدري، خرجت الحملةُ منْذ تسعين يومًا، وها هو الظّفرُ يلوح في الأفق، ألا أعادك الله مكلّلًا بالنّجاحِ يا «ابن كاوس».

وأسرَ «بابك»، قضوا علَى جيشِه وقاده «ابن كاوس» إليَّ، القافلة التي تحمله قادمةٌ في الطّريق، و«سامراء» بأسرِها تتحيّن لقاءه، لا أطيق صبرًا، لا يغفو جفنٌ لي ولا مذاقَ لشرابٍ أو طعامٍ، هو فقط «بابك»، أنتظر أنْ ألقاه ذليلًا أمامي.

أخيرًا، بعْد طولِ صبرٍ، دخل مِنْ بوّابة «سامراء»، رقبته حولها طوقٌ حديديٌّ ويداه مِنْ خلاف تربطهما أصفادٌ إلَى قدميه، واقف يجأر في قفصٍ، العربةُ تدلف به، أقف في شرفة القصر أطالعه، ليس يبدو عليه ما صوّرتُه عنه، لمْ يكنْ طويلًا ولا عريضًا كما أخبرت الحكايات، ولا شعرُه مسترسلًا ولا لحيته كثّة غزيرة، بلْ كان أشبه

بالأقزام، حليق الرّأس أصلع، لا شعر في وجهه، لا حاجبان، عيناه محكّلتان ضئيلتان، الأقراط في أذنيه وأنفه وشفتيه، كالقردة ظلَّ ينطّ داخل القفص مِنْ غيظِه، ويصرخ ويزأر، صوتُه عالٍ كطبلٍ له إيقاعٌ، الحصانُ يجرّه بالعربةِ والنّاس يتهافتون علَى النّظر إليه، «حيدر بن كاوس» يتقدّم الرّكب، يفرد صدره في اعتزازٍ ويجوس في أعينِ النّاسِ علَى افتخارٍ، و«بابك» لمْ يهدأ، ظلَّ يندّد ويهدّد ويتوعّد، ضحكتُ، أو لا يعرف أنّه ملاقٍ ربّه اليوم؟!

النّاس يرمونه بالحجارة ويبصقون عليه، يهتفون:

-كافر.. كافر.

الحرّاسُ يتركونه لغضبةِ النّاس، فيتباطئون وهم يدلفون به إلَى ساحةِ القصر كي يقضي النّاس منه رغبتهم، حطَّ الرّكب أمام بوّابة القصر، هبطتُ الدّرج علَى مهلٍ، عيناي في عينيه، نظراتي متحدّية ظافرة، لكنّه متبجّح، الشّراسة بادية علَى ملامحه، ترجّل «حيدر بن كاوس» مِنْ علَى حصانِه فاستقبلتُه علَى صدري، كانتْ ابتسامتي لا يسعها وجهي، أحطتُه بذراعيَّ:

-مكانتُكَ كبيرة عندي اليومَ يا «أفشين».

-كلّنا طوعكَ يا أمير المؤمنين.

قبّلتُه علَى جبهتِه، فقال:

-العفو منكَ يا مولاي، لقد جعلتُ علَى «أذربيجان» واحدًا مِنْ أقربائي اسمه «مكنجور» ولمْ يكنْ ثمّة وقتٌ لأكاتبك.

-خيرًا فعلت، منْذ اليوم لك القرار يا «ابن كاوس».

ودنوت مِنْ «بابك» أنظر إليه في شماتةٍ وغلٍّ، صرخ:

-أنتَ إذن «المعتصم»!

-أنا خليفة المسلمين الذي ستقضي نحبك علَى يديه اليوم.

-أرواحنا لا تموت، أرواحنا تتبدّل بين الأجساد.

-هذا أمر عظيم..

أدرت ذراعيَّ بين الجموع:

-ها، اختر جسدًا لتقع فيها روحك، ما قولك!

كزَّ علَى أسنانِه، فركتُ لحيتي وطفتُ حوله:

-هل تعلم لمَ دعوت كلّ هؤلاء اليوم؟!

وصحت فيهم:

-لمَ أنتم هنا؟!

علتُ أصواتُهم:

-اقتل الكافر «بابك».

التفتتُ إليه مبتسمًا:

-هل أدركتَ مصيركَ؟!

أشرت بيدي للحرّاس، شدّ أحدهم مزلاج القفص، نازع «بابك» في الخروج لكنّهم ألقموه السّياط بوجهه فسقط علَى ركبتيه وخار مثْل الثّور، لمْ يهبط علَى سلالم العربة، بلْ جذبوه إلَى أسفل فأقعى علَى جبهته، تناهض يبصق التّراب مِنْ فمه وفي عينيه الشّرر، وظلَّ يتلوّى بجسدِه مِنْ فرط إحكام السّلاسل والتفافها عليه.

-فليبق هنا قليلًا.

وبحثتُ بعينيَّ عنْ «أبي تمّام» وكان واقفًا بين الجموع يتفرّج، أشرتُ إليه فركض إليَّ مهرولًا، نزل علَى يدي لثّمها.

-أنشد لنا يا شاعر وقُل قولك في هذا الانتصار.

طلَّ علَى «بابك» وعضّ علَى شفتيه ثمّ أولَى بصره إلى «حيدر بن كاوس» وصدح بصوتٍ عالٍ:

-فَرمَاه بالأفْشِين بالنّجم الذي.. صدعَ الدُّجَى صدعَ الرِّداءِ البالي.

-هكذا والله يكون الكلام.

صفّقتُ فصفّق الجموع بعْدي، لوّحتُ إلَى «ابن كاوس» فدنا منّي.

-اطلب ما شئتَ.

قال في أدبٍ وتحرّجٍ:

-عفوكَ يا أمير المؤمنين ورضاك.

-خلعتُ عليك تاجًا ووشاحين مرصّعين بالذّهبِ وسيفين ومليونًا مِنْ الدّراهم، أيكفيك؟!

-كلُّ عطاياكَ مغانمٌ يا مولاي.

وتراجع متقهقرًا فأدركتُه:

-وولاية «السّند» ومعها «أرمينية» و«أذربيجان»، وهذا والله قليلٌ علَى ما جئتني به اليوم.

ظهر «أحمد ابن أبي دؤاد» فجأة، تنحنح واقترب منّي وهمس في أذني:

-مولاي، ولاية تكفيه.

ربّتُ علَى كتفِه:

-ليس أعزّ عليَّ مِنْ النّصر اليوم يا «ابن ابي دؤاد»، ثمّ أخبرني لمَ كان اختفاؤكَ؟!

ولمْ أنتظر ردّه، زعقتُ في الحرّاس:

-السّيف.

تقدّم أحدهم بسيفي، جرّوا «بابك»، علّقوه علَى الأوتاد، صلبوه، صاح:

-لمْ يبق علَى بابِكَ أحدٌ يا «معتصم»، سيخرج إليك «توفيل» ولن يجد مَنْ يصدّه أو يمنعك.

-وأنا في انتظاره.

ومشقتُ السّيف وأهويتُ به علَى ذراعه الأيسر فصلتُها.

-هذا لأجل القُرى والمدن العبّاسية التي أحرقت.

وجززتُ ذراعه الأيمن.

-وهذا لأجل الأطفال والنّساء والرّجال الذين نحرت.

ثمّ قمتُ علَى ساقيه قطّعتهما.

-وهذا لأجل العبّاسيين الذين تبغض.

ومضى عبر ذلك يتشنّج ويعوي، عواؤه تحوّل إلَى أنين، أنينُه تخافض فبدا يهرطق بالهمهمات، قبضتُ علَى السّيف بيديَّ الاثنتين، رفعتُه عاليًا وانحنى ظهري للوراء مِنْ شدّة انفعالي ورجع معي السّيف حتّى كادت ذؤابتُه تلامس الأرض، وعدتُ به إلَى رأسه مندفعًا به سريعًا يشقّ الهواء وأنا أصرخ فيه:

-وهذا لأجل الإسلام يا عدوّ الله يا كافر.

وتصايح النّاس مِنْ حولي:

-الله أكبر، الله أكبر.

وطارتْ رأسُه ومِنْ حولها رذاذُ الدّم، دارتْ في الفضاء دورتين ثلاث ثمَّ سقطتْ تحت قدميَّ، دست بهما عليها، شهقتُ الهواءَ وأنا

أغمض عينيَّ فانتفخ صدري علَى راحةٍ، بينما كانت الطّبول وكان الزّمر وكان التّهليلُ يقدح داخل القصر وخارجه، ها قدْ تخلّصنا مِنْ واحدٍ ويبقى «توفيل بن ميخائيل» علَى موعدِ الخلاص، ما أقربك يا ابن الرّوم!

عيسَى بن سَورَة بن الضّحّاك طشقند/ بوغ - 222 هـ

إلَى متى ستظلُّ موصدًا علَى نفسِكَ هكذا يا «عيسَى»؟! إلَى أنْ يحين أجلُكَ! ألا تخرج فتبحث عنْ ولدك! وماذا إذا بحثت عنه بين البلاد ولمْ تجده ألا تعاود البحث؟! ألا يستحق «محمّد»؟! كيف يُمكن أنْ تطرد هذه الهلاوس مِنْ رأسِكَ؟! «محمّد» لمْ يمت، «محمّد» هناك ينتظرك أو أنّك هنا تنتظره، أيّهما يسبق الآخر، ألمْ يخبرك المنجّم منْذ أربع سنواتٍ أنّه آتٍ إليك آت، فعلام هذا اليأس الذي يخالج فؤادك ويقارعكَ في صمودكَ؟!

ضقتُ بكلِّ الأشياء، في «طشقند» لمْ يعد لي مكان، كنتُ أشمّ رائحة «محمّد» في كلِّ البِقاع، بلْ كنتُ أتتبّع رائحتَه، في الطّرقات، في المجالسِ التي كان يدرس فيها، بين أصحابِه، في كتبه، أتتبّع

الرّائحة فيستحلب عينيَّ النّحيبُ، أربعُ سنواتٍ وأنا أبكي عليه وعلَى حالي مِنْ بعْدِه، تساءلتُ كثيرًا تُرَى ماذا حلَّ به؟! هل مات حقًّا كما تسوّل لي نفسي؟! هل هو مستعبدٌ عنْد أحدهم؟! هل خصوه كما خصوا أولاد «بوغ» قديمًا؟! ماذا حلَّ به؟! مَنْ بيدِه أنْ ينتشل روحي مِنْ هذا الرّكام؟!

قرّرتُ الخروجَ مِنْ «طشقند» وقدْ ألمّتْ بي لوثةٌ، أخاطب النّاس علَى اسمه، أراه مِنْ حولي، ولدًا صغيرًا يدوّر رأسَه لي ويبتسم فأتوضأ بابتسامته، يبتسم فيشعّ، ويرحل إلَى حيث طموحه في العلم،

يصاحب حلمه ويسعَى إليه لا يخشَى غيلةً ولا إجحافًا، أجل ضقتُ بالمكان، هو فيه وليس فيه، هو منه ولا ينتمي إليه، هو ضاع وتركني أمارس هذا الضّياع علَى روحي كأنّما أتمرّن علَى الفقد وأجدّده يومًا مِنْ بعْد يومٍ.

عاقرتُ المساجد، قمتُ اللّيل كلَّه، قرأتُ القرآنَ مرّة بعْد مرّة بعْد مرّة، دعوتُ الله ورجوته واستغثتُ به، ثمّ لا شيءَ يحدث، نفس الفتور مِنْ الحياة في روحي ونفس الإقبال علَى الدّموع والانكسار، تصفّى جسمي مِنْ طول ما قعدتُ أبكي علَى ولدي.

لملمتُ كتبَه وحاجاته ووضعتُ المخلاة علَى كتفي وخرجتُ ذات ليلٍ مِنْ «طشقند»، لمْ آخذ شيئًا يخصّني، بلْ كلُّ ما يخصّه، كلُّ ما سكنتْ رائحتُه فيه، أرتحل مع قافلةٍ عابرةٍ، عبر البّحر، في الغاباتِ، بين التّلال والجبال، إنّها ليستْ رحلة إلَى «بوغ»، إنّما هي رحلة إليَّ علِّي أتلمّس الرّاحة والسّلوى، هل ثمّة سلوى في الدّخول إلَى عرين الذّكريات مِنْ جديدٍ؟! في «طشقند» ذكريات قديمة، في «بوغ» ذكريات أقدم، العالمُ كلّه لنْ يتّسع لذكرياتي، لكنّها أوجاعٌ في نهاية الأمر ليست ذكريات، ممَ تهرب يا «عيسى» وإلَى أين المقام؟! نضبت الحِيَلُ واستقوتْ عليكَ الحياة، لمْ يعُد هناك ما يسدّ عوز روحكَ!

وها هي «بوغ»، علَى الضفّة الأخرى، كأنّما لم يمسسها ضرٌّ، تركتُها تحت جُنحِ اللّيل وجئتُها في اللّيلِ، استغرقتني رحلتي أيّامًا وأيّامًا، رحلتي الأخيرة عنكِ كانتْ علَى قهرٍ وكان «محمّد» في حضني، اليوم أدخل إليكِ يا «بوغ» بلا «محمّد» ولا عزم ولا «عيسى» نفسه، قدْ ضيّعه الفقد ومحاه، بائسًا، أدخلُ إليكِ بائسًا!

عوارضُ الجسرِ الخشبيّ تطقطق تحت قدميَّ، ثلاثة عشر عامًا مِنْ الغربة يا «بوغ» وفاصلٌ مِنْ الماء فيما بيننا، مَنْ أقصانا عنكِ إلّا

الجبروت يا «بوغ»؟! الآن ها أنا أستحضر كلّ الأحداث وأنا أرمّم ببصري التّفاصيل المُهدَرة، أقف كالمشلولِ والصّور تتداعى إلَى رأسِي دون هوادة، الوجوه تعترك أمام عينيَّ، اللّحظات الرّاسخة في القلب، اللّحظات الخاطفة المتوالية التي دفعتني للغربة، علَى منتصفِ الجسر أقف، لا

قدمَ تتحرّك للأمام ولا قدم تعود للوراء، جوارحي فقط تعود للوراء، الصّراخ يملأ أذنيَّ مِنْ جديدٍ، الحياةُ الغابرة تتدفّق إلَى ذهني، يتصلّب جسمي، الرّعشة تضرب أطرافي، المخلاة تسقط في جوف الماء، أرمي نفسي وراءها بلا تردّد.

تيار نهر «جيحون» يرتطم برأسِي فيُعيد عليَّ ما كان بيننا مِنْ ألفةٍ، تجتاحني أصواتُ الآفلين، تختلط دموعي بالماء، أسبح بالمخلاة إلَى الضفّة، أهبط بجسدي علَى الحشائش، تأتيني زوجتي بكأس اللّبن الدافئ، أتلصّص ببصري فلا أجد أحدًا، أشدّها فتنسكب الكأسُ، أضعها تحتي وننحدر بجسدينا فيما لا يُمكن أنْ ترانا الأعين، أقبّلها، أنزع غطاء رأسها، أشمّم شعرها، الماءُ يلطم أقدامنا، لفحات الهواء الباردة تعبر بين وجهينا، تكزّ علَى أسنانِها: «يا رجل!»، أكبس عليها، تتمتم: «ترفّق علَى بطني!»، أحسّس علَى بطنِها المكوّرة، أستشعر دقّات قلب جنيني بأناملي، تنتفض واقفةً وتجري في دلالٍ، ألاحقها بعينيَّ، عيناي تضربان في الحاجز بين الماضي والحاضر، وعلَى سحّ الدّمع أرَى الجبل لمْ يزل علَى غشيته، والموتُ لمْ يزل واقفًا هناك علَى قمّتِه ورمحٌ في يدِه يقطّر الدّماء، أرفع إليَّ راحتيَّ، عليهما الدّماء، ساخنة، «سليم» يحاوطني لإبعادي عنْ الخطر، لكنَّه مثخنٌ بالجروح، طحين المعركة مِنْ حولي، طنين السّيوف، الصّراخ، في رأسِي الصّراخ، «محمّد»! «محمّد»! زوجتي تشتعل، الحرائق في الأفق، الأولاد ينزفون، «بوغ»، أتحامل إليكِ، فمَنْ يحمِل عنّي؟!

ثلاثة عشر عامًا مِنْ كلّ الآلام، ثلاثة عشر عامًا يا «عيسى» وها هو كلّ ما مضى كأنّما يدور أمام عينيك الآن!

أتسنّد، رأسُ ثعبان تبرز مِنْ جُحرٍ محفورٍ في حشية الضفّة، أجرجر المخلاة وأجرجر قدميَّ والطّميَ، متهالكٌ كالبناء إذا انهدَم، مُعدَمٌ كأنَّ روحي سُحِبتْ، عابرٌ ما بين زمانٍ وزمانٍ، صريرُ الحشرات وخوار الثّيران ومشاعلٌ واهنةٌ تُفسِح مساحاتٍ للإبصارِ في ظلّ العتمة الدّاكنة، أدنو مِنْ بيتي، جدرانه هدد، الممرُّ إلَى مدخلِه مليء بالأتربة والغبار وأوراق الشّجر النّاشفة، لا ثمار علَى

الشّجر، الأفرع متشقّقة ومتكسّرة، الظّلامُ يُحيط به، لا سراجَ ولا قنديلَ، كأنّما ليس مسكونًا إلّا بالذّكريات، أخشى الذّكريات، مالي عُدتُ! أما كان أنْ أنطوي علَى فقدي وأصطبر!

أدفع البابَ، بدا ملتصقًا في حوافِ حلية الجدار بغراءِ الزّمن، أدفع بيديَّ الاثنتين، مستعصٍ، ملتصق، متشبّثٌ بالانغلاق في وجهي، أمرُّ علَى النّوافذ والأسطح بنظري، كلُّ شيءٍ متكوّمٌ علَى بعضه البعض أطلالًا، أنازع مع الباب الذي أوصده الغيابُ، دون جدوى، ثمّ بعْد قليلٍ ينفتح البابُ علَى صريرٍ عالٍ.

يطلُّ عليَّ وجه فتاة صغيرة مِنْ وراء الباب، أقف مندهشًا، تستفهم بعينيها، البابُ مواربٌ، وقدْ صرتُ غريبًا، أحاول استجماع الكلام بلا جدوى، تتفحّص جسمي وثيابي والمخلاة ولا تتحدّث، تنتظر أنْ أبادر بالحديث، وجهُها مغبّشٌ في الظّلمة، لا أتبيّنه، لا أتعرّف عليها، أهمهم أخيرًا:

-هذا بيت...

تقاطعني:

-هذا بيتي.

ولمّا تجدني ساكتًا لا أستطيع الرّد تسألني:

-مَنْ أنت؟!

-«عيسى».

تتبدّل نبرة صوتها وتهتف:

-الشّيخ «عيسى بن سورة»!

-بلى هو.

تُفسح، تُبعد جسمها الضّئيل كي أدلف:

-تفضّل.

ضوء خافت يرتعش مِنْ فوق بابِ المضيفة، تتداعى المشاهد ثانية، وأنا أطوّف برضيعي «محمّد» بين المباخر والرّجال مِنْ حولي، وزغاريد النّساء قادمة مِنْ جوف الدّار، وأعينهنَ تراقبنا مِنْ خلف الجدار الواطئ الفاصل بين جوف الدّار وصحنها، لا أجلس، أتفقّد ما كان وما جرى مِنْ بعْدِه علَى البيتِ، لا شيءَ غادره إلّا ساكنُوه القدماء، فقد البيتُ مَنْ سكنوه، وساكنُه الذي أبقته المآسي

ها هو يأتي إليه شخصًا علَى غير الهيئة.

-اجلس يا شيخ «عيسى».

تقول الفتاة، تنصرف إلَى الدّاخل، تتركني مع اجتياح الذّكريات، أهمهم: «لا حول ولا قوّة إلّا بالله»، تخرج الفتاة وفي يدها طبقُ حساء مِنْ الفخّار:

-كُل يا شيخ يبدو عليك الجهد.

-رحلتي كانت طويلة.

وأتنهّد، تمضي الفتاة لتشعل القناديل المعلّقة علَى الجدران، يضوّي البيت، فقد مع ساكنيه ألوانه، تنتشر مساحات اللّون الرّمادي وتكسو جدرانه، أستكشف وجه الفتاة أكثر، تجلس أمامي، أحتسِي الطّبقَ وأنا أطالعها، لا تجاوز عشرين عامًا.

-مَنْ أنتِ؟!

-عابرة وجدت بيتًا شاغرًا فأقامتْ فيه.

قالتْ وقدْ بدا علَى وجهها تخوّف، سندتُ الطّبقَ وطمأنتُها:

-إنّه ما زال بيتك وأنا ضيفه.

وتأملّتُها:

-تشي ملامحك أنّك لستِ مِنْ هذه الأنحاء!

-هذه حكاية طويلة يا شيخ «عيسى».

وسكتت، فقلتُ:

-عمومًا غرفتي الآن التي سأنزل فيها هي المضيفة وبقية البيت تخصّك.

-إنّما أنتَ صاحبه.

وقامتْ حضّرتْ كأسًا دافئًا مِنْ الزّنجبيل، وقبْل أنْ أفرغ منه كانتْ قدْ أعدّتْ لي المضيفة وعطّرتها، فرشت لي لحافًا وأشعلتْ البّخور وملأت القنديل بالزّيت، وضعتْ بجواري بعض الفاكهة، ثمّ فتحتْ صندوقًا خشبيًّا وأخرجتْ منه مصحفًا:

-أظنُّ أنّه مصحفك، وجدته سليمًا وسط الحُطام.

تناولتُه منها مبتسمًا، قلتُ مهمهمًا:

-أجل هو مصحفي.

وفضضتُ المخلاةَ ونظرتُ إليها دامعًا:

-معي مصحف «محمّد» أيضًا.

محمّد بنْ عيسَى عمّوريّة - 223 هـ

مِنْ ضِمنِ اللّيل أنْ نأتنِس، ومِنْ ضِمنِ الوحدةِ أنْ نستزيد، كان أُنسِي الكُتب وزادي منها، وجلوسي إلى «جعفر» الذي صار رفيقي هنا وصاحبي وعوني، في النّهار أخرج للإشراف علَى المراعي المنبسطة خلف الكنيسة، أباشر تطعيم بعض الأبقار والجاموس والماعز، وأحلب البعض الآخر إذا امتلأتْ ضروعُها بالحليب، اختّصني القسّ «مناطس» رئيس «عمّورية» وولّاني علَى متابعة المزارعين والتّجار والعمّال والجزّارين لما شهد مِنْ أمانتي وإخلاصي في العمل وانكبابي علَى الاهتمام بمخازن الغلال وصوامع القمح وإسطبلات الخيل وحظائر الماشية وتقويم خللها، وقدْ خلع عليَّ غرفةً أسكنُها مع «جعفر» في طابق الكنيسة العلويّ، قال لي ساعتها:

-منذ الآن لمْ تعُد مجرّد غلام في قصري، همّتك ونباهة ذهنك وحفظك للكتب ثمّ أمانتك وخُلقكَ يُدرّجونكَ عندي يا فتى، أنتَ الآن مسئول جرد «عمّورية» المالي مراجعًا وموثّقًا للدّفاتر.

أثار هذا بعضَهم ضدّي، حصولي علَى المنصب الذي وضعني فيه رئيسهم يعني أنّه راضٍ عنّي، وفي ذلك خطرٌ عليهم وعلَى أغلب شئونِهم التي يمارسونها في خفاءٍ فإذا تكشّفتْ كشفتْ معها أطماعَهم ومغانمَهم، كالوا لي، حاولوا غير مرّةٍ أنْ يزرعوا الجفوة والوقيعة فيما بيني وبين الرّئيس

«مناطس»، لكنّه كان فطنًا، أدرك مقاصدَهم نحوي، وكلّما أبغضوني لديه ما استمكنوا ممّا انتهوا إليه، فيكون ردُّه قاطعًا: «لا تداخلونني في مُخلصي ولا تستكبروا عليه».

في اللّيلِ أعود إلَى الاستذكار، كنتُ إذا قرأتُ الكتاب حفظتُه، واستطعتُ عبر إقامتي في القصر في «عمّوريّة» وكسب ثقة كبيرها أنْ أكسب أيضًا ثقة التُّجّار ورؤساء القوافل مِنْ القساوسة والفرسان، وكانوا إذا ارتحلوا إلى «بغداد» أو «مصر» أو «دمشق» ابتاعوا لي كتب الأئمة وما استُجدّ مِنْ تدوينٍ وفق وصايتي رغم استغرابهم مِنْ إقبالي علَى العلومِ، وذلك ممّا جاء علَى هوى في نفسِ الرّئيس «مناطس»، فحسب رأيه: «خادمُ ذو علمٍ أنفعُ مِنْ والٍ بليدٍ».

غرفتي مِنْ الخشبِ، كائنة علَى يمين جرس الكنيسة النّحاسي الضّخم، الذي يطلع إليه خادم الكنيسة ويتعلّق بسلسلتِه ثمّ يضربه بقوّة، فتهتزّ غرفتي، تدوّي أذناي، تتطاير أعشاش اليمام السّاكن علَى أعلَى عارضةِ الجرس الفولاذيّة ويهيش الرّيش، وما أكثر ما انخلع باب غرفتي، وفي كلِّ مرّةٍ أستعين بنجّار الكنيسة كي يثبّته علَى مفاصلِه، وما أكاد أغلق عليَّ بابي حتّى أنهمك في الصّلاةِ وفي القراءة بعْدها، أجلس إلَى الطّاولة المرصوص عليها الكتب، أوقد فتائل المشعل، أزيح السّرير الخشبي ذا القوائم الأربعة إذا افترشتُ الأرض وفردتُ الأوراق والصّحائف ووفّقتُ بين المسائل وكتبتُها، في هذه الغرفة اختُزِلَ عالمي كلّه.

حاولتُ الفرار أكثر مِنْ مرّة، كنتُ أجد الصّحراء في وجهي، وكنت أتراجع حيث لا وجهةَ أعرفها، وإذا ساورتني الأفكار في الارتحال مع قافلة أقول لنفسي: ثمّ إلَى أين؟! سيقبضون عليَّ، أو إذا نجوتُ منهم سيتمكّنون مِنْ اللّحاق بي وسيكون مصيري أحد أمرين: إمّا

الإعدام وإمّا السّجن.

لكنّي في نوبةِ نزوعٍ للحرّية وفي غمرة اليأس فررتُ، التحقتُ بقافلةٍ دبّرتُ أمري مع رئيسها بالمال، لمْ أكد أصل إلى أقربِ مدينةٍ وإذا بي أجد الحربَ مشتعلةً، ظلّتْ عيناي تدوران بين الأبخرةِ والحرائق، تراجعتْ القافلة إيابًا، لكنّنا حوصرنا، كان جيش «المعتصم بالله» قد تمكّن مِنْ هذه المدينة وهو يسعى خلف «بابك الخرميّ»، في الأفق ضبابٌ وصليلُ السّيوف عالٍ، حاولنا التّفاهم

مع الجنود كي يسمحوا لنا بالرّجوع بلا جدوى، حتّى وإنْ كان قوام القافلة معظمه من المسلمين، لم يصدّقونا في بداية الأمر، وتركوا لنا ثغرةً كي نهرب فرادَى وقدْ انشغلوا بالقتال، هرولتُ وحيدًا وسط الجثث، وفيما أركضُ سعيًا إلى منفذٍ بلغتُ واديًا متّصلًا بالصّحراء الممتدّة إلَى «عمّوريّة»، قلتُ في نفسي: «إنَّها مصيري المحتّم!»، ركضتُ وتعثّرتُ واستكملتُ، التّناحر مِنْ حولي، والدّماءُ تطقّ مِنْ الرّقاب، أوار المعركة لا هوادة فيه، والغيومُ تحاصر البصرَ، وحدّثتُ نفسي بأنَّ هذا ذنبُ صاحبي «جعفر» الذي تخلّيتُ عنه محاولًا النّجاة بروحي مِنْ أسر الغلمنة في «عمّوريّة»!

منفذُ الفرارِ مِنْ هنا قريبٌ، ليس أبعْد مِنْ خطواتٍ لكي أختفي بين كثبان الرّمال، عدوتُ بأقصى جهدٍ، وكان اللّيل، اعتصمتُ بكثيبٍ، في البردِ والخلاءِ والخطر، انتظرتُ لحلول الصّباح، قدّر لي الله قافلة مؤنٍ صغيرة عائدة إلَى «عمّوريّة».

بعْد عامٍ أو يزيد لمْ تعُد أفكار الهروب تشغلني، كلُّ المصائر بأقدارها، وسينحو بي مصيري إلَى حيث أريدُ ذات يومٍ، ورغم كلّ شيء لمْ أطمئنُّ لمكوثي في «عمّوريّة» بعْد مرور الأشهر، أدركتُ أنَّ قدرًا سيجري عليَّ سيبدّل ما جرى قديمًا، أفرد سجّادة الصّلاة وأستغرق في الدّعاء الذي يصاحبه بكاء حارق، أفكّر في أبي، هل سيُبقي عليه الفقد أم سيهلكه؟! أصلّي علَى اضطرابٍ وعلَى جنوحٍ إلَى الأمل، إنَّ الله سيختزل المسافات يا أبي، مهما تباعدنا سنلتقي.

وبينما أنشجُ في دعائي ذات صباحٍ إذا بالرّئيس «مناطس» يدفع باب الغرفة بيده، أنهيتُ صلاتي وقمتُ إليه، كان واقفًا ولمْ يجلس، قدّمتْ له فاكهة فرفضها بابتسامة.

-تصلّي كثيرًا يا غلام!

-هذه فروض الإسلام.

-وديننا أيضًا يحتّم علينا الصّلاة.

ثمّ تنهّد تنهيدة طويلة، قال وقدْ تهدّج صوته:

-رغم كلّ ما يحدث!

لمْ أفهم إلام يرمي، لكنّه أدار لي ظهره وهمهم:

-رافقني، أحتاج إلى مَنْ يحمل الأعباء معي.

هبطنا علَى الدّرج وخرجنا مِنْ باب الكنيسة، لمْ يكنْ يتكلّم، كان بصرُه شاخصًا في السّحب البيضاء التي تتهادَى في السّماء، واقتربنا مِنْ سور «عمّوريّة» والتففنا معه، بدا الرّئيس مُثقلًا وهو يمرّ بين البيوت المتلاحمة، وظلَّ يترنّح في خطوِه مِنْ سمنتِه المُفرِطة، طاويًا عباءته السّوداء بين يديه كي لا يوسّخها التّراب، النّاسُ مِنْ حولنا يستوقفونه يقبّلون يده، القساوسة والشمامسة والرّهبان استغربوا خروجه مِنْ القصر في طلعة النّهار، إنّه نادرًا ما يخرج إلّا لأمرٍ عظيمٍ، بلْ نادرًا ما يسير علَى قدميه بين النّاس، فهو إمّا يمتطي حصانه وإمّا جالسًا داخل عربات المواكب، نظر لي واستطرد بعْد طول صمتٍ:

-أنا كبير هذه البلد وقائد جيشها..

ثمّ شدّ لحيته وهزّ رأسه متأسّيًا:

-لكنَّ بداخلي ألمًا.

وانتهينا عنْد جانبٍ مِنْ السّور ناءٍ، أعلاه برج حراسة لا يقف عليه أحد، تناول مِنْ تحت صدريته مفتاحًا نحاسيًا كبيرًا كان معلّقًا في سلسلةٍ، وكنّا وقفنا أمام أحد الأبواب القديمة المتهالكة، دسَّ المفتاح في ثقب الباب وأداره، تحرّك الباب ببطءٍ، دفعه فدلفنا، أغلق وراءنا، هبطنا مع ممرّ ينحدر لأسفل، وظلَّ يُشعل الشّموع علَى جانبيه فيما ننزل معه، جدارا الممرّ مزيّنان بالرّسومات مختلفة الألوان، وبينما نهبط بحذرٍ كان الرّئيس «مناطس» يغمغم ويصلّي ويصلّب وجهه وصدره بيديه، ثمّ انتهي الممرّ الطويل إلَى غرفةٍ تخلو مِنْ هواءٍ، فضاق بي صدري، ورحتُ أحاول أنْ أتنفّس، الغرفة خانقة رطبة، دنا الرّئيس مِنْ سراجٍ كبير في منتصف الغرفة وأشعله، فأضاءت الغرفة، في

زواياها بيوت عنكبوتٍ علَى كثرةٍ، ومِنْ حولنا تتراص تماثيل مِنْ ذهبٍ وفضّةٍ وحجرٍ وعلَى مختلف الأحجام والأشكال، ولوحات وضعت علَى بعضها البعض، تمتم:

-أترَى! إنَّه سرّي.

واسترسل:

-محرّم علينا اقتناء هذه اللّوحات والتّماثيل في الكنائس والأديرة والقصور والبيوت في العلن.

وقفتُ منبهرًا وأنا أتفرّج علَى هذه المقتنيات، رغم التّراب الذي غطّاها كانتْ تلمع، لمْ أدرك ما الذي يتحدّث عنه الرّئيس «مناطس»، فبدا استشرف حيرتي مِنْ كلامه، استفاض شارحًا:

-حرب الأيقونات دائرة علَى أوارٍ بين «البيزنطيين» و«الكارولنجين» في الكنيسة، السّلطات الدّينيّة والسّياسية داخل الكنيسة الأرثوذكسية تعارض استخدام الصّور أو اللّوحات أو الأيقونات الدّينية وفق تفسيرٍ لاهوتيٍّ مِنْ العهد القديم للوصايا العشر، ما يعني منع صنع أو عبادة الصّور المنقوشة، وفرضوا حظرًا على جميع الأيقونات ودمّروها وحطّموها ونكّلوا بمناصري تبجيل هذه الأيقونات وتعظيمها، تفكّك اتّحاد الكنيسة ونشبت الخلافات والانقسامات واستفحلت العداوات.

ثمّ ربّت علَى كتفي:

-دينُكم أيضًا هشّم الأيقونات الشّعائرية، ألمْ تطلقوا عليها أصنامًا؟!

-أجل.

أضاف في حزن:

-تغيّرتْ طرق العبادة الأرثوذكسية، بات مرفوضًا تصوير «المسيح» و«العذراء» و«القدّيسين»!

قلتُ:

-إنّه نقاشٌ لاهوتيّ سرعان ما سينبذه النّاس وتعودون سيرتكم الأولى، إنّها آداب دينكم علَى أية حالٍ وجرى عرف النّاس عليها واستحسنوه.

فابتسم ابتسامة كبيرة:

-لو اكتشفوا هذا المخبأ سيشنقونني.

ثمّ حذّرني بإصبعه:

-هذا سرّي وأنتَ خير مَنْ يؤتَمن!

المُعتَصْمُ بالله بنْ الرّشيد طرسوس - 223 هـ

(«وامعتصماه»؛ تدوّي الصّرخة في أذني غير بعيدة عنها، أصيح: «لبّيكِ»).

يهزّني «أحمد ابن أبي دؤاد»:

-أأنتَ بخيرٍ يا أمير المؤمنين؟!

أنفض رأسِي، المجلس مِنْ حولي قعودٌ نتشاور فيما اقترف «توفيل بن ميخائيل»، وكنتُ قدْ عزمتُ علَى ملاقاته والفصل في أمره.

سألتُهم:

-أيُّ بلاد الرّوم أمنع وأحصن؟!

قال «حيدر بن كاوس»:

-«عمّوريّة»، لمْ يعرض لها أحدٌ مِنْ المسلمين منْذ كان الإسلام، وهي عين النّصرانية وبنكها، وهي أشرف عنْد الرّوم مِنْ «القسطنطينيّة».

ردّ «أشناس»:

-لسنا نخشى «توفيل» يا مولاي ولكن أخشى علَى الجيش ألّا نصل إلَى «عمّوريّة» والطّريق إليها مليئة بحصون الرّوم وقوّاتهم.

-عتادي كافٍ اليوم لملاقاة الرّوم على أعتاب مُلكِهم لو شئتُ، إنّهم يقتلون الرّجال ويستبيحون النّساء ويسبون الصّغار، لقد أعاثوا الفساد في أطراف الخلافة المترامية، والأمس نهبوا ثغري «ملطية» و«زبطرة» وأحرقوهما واغتصبوا امرأةً عربيّة!

ونظرتُ إلَى «ابن أبي دؤاد»:

-ما قولك يا قاضي القضاة؟!

-القول قولكم يا مولاي، وأرى النّصر حليفكم، سترذّون كرامة «شراة العلوية» التي استغاثت بكم، وإنّها لامرأة عربية مسلمة وكرامتها مِنْ كرامة المسلمين جميعًا.

-أطلب مِنْ الأمراء أنْ يبايعونني علَى قتال الرّوم في «عمّوريّة»، أبلغهم أنّي سأزحف على رأس جيش قوامه مئة ألف من الفرسان.

ثمّ قلتُ لهم:

-«هرقل» قال قديمًا: لبطنُ الأرض خيرٌ مِنْ ظهرها لمِنْ أراد قتال المسلمين، فهم رهبان اللّيل وفرسان النّهار، ووالله لقدْ صدق.

واستوت الأمورُ وبويعتُ، أعلنتُ النّفيرَ، واعتزمتُ أنْ أخرج علَى طليعة الجيش، قال المنجّمون إنَّ «عمّوريّة» لنْ يتمّ فتحها إلّا في الصّيف وقت نضوج التّين والعنب، لكنّي لمْ أكترث لتنجيمهم، كان عزمي أقوى مِنْ التّرهيب، «توفيل» يخرّب بالفعل في بلادنا مع مَنْ التجئوا مِنْ الخرميَة إليه بعْد أسر «بابك»، انتهى مِنْ حصن «ملطية» ودمّره فسار إلى «زبطرة»، يغير ويأخذ الأسرى ويمثّل بالقتلى.

طلعتُ علَى رأسِ الجيش، ومثْل الرّيحِ تقلّب الرّمل وتبعثره كنّا نطوي الثّغور زحفًا نحو «عمّورية» والعامّة يباركوننا في كلّ البلاد، كان الفرسان يتطايرون بجيادِهم طيرًا إلى النّصر، عسكرتُ في غربي نهر «دجلة» وأرسلتُ قائديَّ «عجيف بن عنبسة» و«عمرَ الفرغاني» كي ينجدا مَنْ تبقّى مِنْ أهل «زبطرة»، وجدا أنَّ «توفيل» قدْ محا منها ما محا وفتك بأهلها ثمَّ لمْ يترك فيها جنديًا بعده، خرجوا جميعهم منها بعْد أنْ قضوا عليها!

سرنا كالجحافل جنوبًا بين الأراضي والثّغور، أقمتُ بالجيشِ علَى ضفّة نهر «سيحان» ولحق بنا «عجيف»، كلّفت «الإفشين» أنْ يقتحم بلاد الرّوم مِنْ خلال «الحدث»، ومع تكليفه كلّفتُ «أشناس» أنْ يدخل إليها عبر «طرسوس»، علَى أنْ تلتقي جيوشنا لتلتحم ببعضها عنْد ثغر «أنقرة» فتكون قوّتنا الضّاربة إلَى «عمّوريّة».

التقانا «توفيل» في الطّريق، بوغتُّ بجيشِه، كان قوامُه جيشه قرابة الخمسين ألف مقاتلًا بين مشاةٍ وخيّالة، فيما يحمل مشاتُنا الألوية والرّايات، في الميمنة كراديس مِنْ الفرسان ومثلها الميسرة، قائدها وأميرها «العبّاس بن المأمون» الذي تهادن وآزرني، في القلب أيضًا كراديس مِنْ المشاة تحمل الرّماح والسّهام وأميرها «عجيف»، لمْ يكنْ أمام «توفيل» سوى الاحتشاد بجيشه يقطع علينا الطّريق إلى قلب «أنقرة»، حيث هي بابنا ومنفذنا لطريق «عمّوريّة»، وإذ تداعتْ أطراف مملكته غزوًا بعْد غزو، بدا يريد استعادة الهيبة واسترداد ما أُخذ مِنْ دولته بأنْ يفاجئنا، تجمّعتْ في الأفق أعدادٌ هائلة من جنوده، وقدْ بلغتني الأنباء أنّه استقدم لجيشه كلّ مَنْ استطاع حمل السّلاح، وجهّزه بالعتاد والعدّة ودربّه عسكريًا ومنحه الدّراهم والفضّة والذّهب.

زحف نحونا متقدّمًا يحاول الحصار، وقدْ توزّع جنوده حولنا كسلسلةٍ، بدأتُ في تنظيم القوّات وتقسيم الجيش إلى كراديس وفِرق وكتائب، استطعتُ أنْ أفلِت مِنْ حصارِه وأتقهقر حيث فمّ الوادي، عسكرنا، وكان الجنودُ يقومون اللّيل في المعسكر وفي النّهار يُقاتلون علَى صومٍ.

فرشوا مائدةَ الطّعام وقام «العبّاس» يؤذّن المغرب، عيناه تترقبّان انسحاب أشعة الشّمسِ، ثمَّ صدح صوتُه مجلجلًا حدَّ أنّي شعرتُ باهتزاز صفوف الرّوم مِنْ حدّة الصّوت، بعْد الإفطار قمتُ أخطب

فيهم لأزيد مِنْ حماسِ مَنْ فترتْ همّتُه:

-يا رجالَ المسلمين وأشجعهم قدْ أقبَل عليكم الرّوم، وإنّه ليومٌ مِنْ أيام الله سيكون له ما بعْده بإذنِه، ولئن صبرنا واحتسبنا أنْ نردّهم إلى حافّةِ الوادي فسنظلّ نفعل حتّى تنفتح لنا أبواب «أنقرة»، فعاهدوا ربّكم مخلصين على النّصر أو الشّهادة، اقترب وعدُه الحقّ، الله أكبر.

ردّدوا مِنْ بعْدي:

-الله أكبر.

عندما وصلتني رسالتا «الإفشين» و«أشناس» بأنَّ جيشهما أوشكَ علَى بلوغنا تحرّكتُ بالجيشِ، سنحاصر جيش الرّوم مِنْ جهاتٍ ثلاث مثّل كمّاشةٍ، ننقّض عليه وندحره، قسّم «توفيل» جيشه إلى مقدّمة مِنْ المشاةِ ضمّت جموع العرب المتنصّرة، وأجنحةً أربعةً تشكّلتْ مِنْ رماةِ السّهام والخيّالة والرّمّاحين وكتائب الدّبابات، صحتُ وأنا أسير بفرسِي بين الجنود:

-والله إنّ قلوبنا لتطيب وصدرونا لتنشرح إذا لاقينا الرّوم وأوقعنا بهم الهزيمة.

زحفنا نحمل راياتنا، سرتُ بين صفوف المشاة بالفرسِ أحثّهم على الثبات والجَلد، أقول لهم:

-يا عباد الله انصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم، يا معشر المسلمين ثابروا وصابروا فإنّ الصّبر منجاة من الكُفر ومرضاة لله ومدحضة للعار، فلا تبارحوا مصافكم ولا تخطوا إليهم خطوة ولا تبدؤوهم بقتالٍ وأشرعوا الرّماح والزموا الصّمت إلّا من ذكر الله في أنفسّكم حتّى آمركم.

انحدرتْ جيوش الرّوم الجرّارة من مكانها إلينا، لها دوي كالرّعد، ودخل منهم عشرات يحاوطوننا، دخلوا في سلاسل حتى لا يتفرّقوا، يهجمون علينا هجمة جارفة مِنْ الميمنة، كان معهم أساقفة وبطاركة ورهبان يستحثّونهم على المضي في القتال دون هوادة، رأيتُهم مقبلين كالسّيل على هذا النحو فجمّدتُ جيشي وزعقتُ:

-اثبتوا ولا تبرحوا أماكنكم.

كنت أنتظر أن تتصدّع صفوف الرّوم وتنكسر كي أبدأ بهجومٍ

مضاد مفاجئ يربكهم، لمْ أخف كثرتهم ولمْ يهزّني هجومهم المتلاحق على ميمنة جيشي، كان على رأس الجند «توفيل»، ينظر لي من بعيد وجوّاذُه يفرك الأرض.

تلاحمت الميسرة وشدّ الرّوم عليها حتى انكشفتْ لهم، لكنّي كنتُ ثابتًا، في رأسي خطّةٌ، كنت أريد أنْ أُبقي على قلب الجيش حتّى لا ينكشف بدورِه، سأضرب به، كان الخيّالة في الميسرة مرابضين ثابتين يصدّون الهجوم بقلوبٍ لا تجزع ولا تخشى، إذا اهتز صفٌّ سرعان ما التئم وعاود القتال، حتّى إذا حانت لحظة الفتك التي كنتُ في انتظارها صحتُ في قلب الجيش:

-يا جند المسلمين لم يبق في الرّوم من البأس والعزم إلّا ما قد شهدتم، لقد خاروا وتزعزعتْ صفوفهم، فهبّوا الآن واضربوا، والذي نفسي بيده ليجزيكم الله النّصر عليهم، هلمّوا وكرّوا عليهم كرّة رجل واحد.

ثمَّ قدتُ فرسان ومشاة القلب الذين جمّدتهم ولمْ يقاتلوا وكنت أدخرهم لمثْل هذه اللّحظة، انقضضنا عليهم في هجمةٍ كاسحة.

كان جنود الرّوم قد وصلوا لمعسكرنا، فلمّا قمتُ عليهم بالهجوم المضادّ من القلب حِلتُ بين مشاتهم وفرسانهم الذين حوصروا عند معسكرنا في الخلف، فوجئوا بنا، اختلّتْ صفوفُهم على اختلالِها، بدأتْ خيولهم تفرُّ إلى أطراف الوادي، وأفرغوا ميدان المعركة من ورائِهم، وفيما كانت الخيول تهرب أفسحنا لها الطّريق كي يخلو لنا الميدان وننتظم ونفتك بالقلّة الباقية منهم، هلع الرّوم، تزاحموا عند الفرار، ركب بعضهم بعضًا، وتقهقروا فتبعناهم، الضّباب واللّيل أقبل، بلغوا حافّة الوادي، ظللنا نردّهم حتّى تساقطوا في بطنِ الوادي بخيولِهم وعتادِهم ودبّاباتِهم، ظلّوا يتساقطون كثمرٍ أينع علَى أفرعِه، بحثتُ بعينيّ عن «توفيل»، اختفى، لمْ يعُد له أثرٌ، تصايح حولي الجنود يكبّرون، أقبل عليَّ القادة يهنّئون، أشرتُ بيدي إلَى الممرّ النافذ مِنْ الجبل، قلتُ:

-هاكم «أنقرة»، فادخلوها ظافرين.

وبلغتنا أنباءُ وصول «توفيل» إلَى مدينة «آيزن»، اجتمعت بقادة الجيش وكلّفت «الأفشين» بقيادة جناح مِنْ الجنود لملاحقة «توفيل» قبلما يستريح ويخطّط جيشه من جديدٍ، خلال ساعات كان الجناح قدْ تحرّك صوب «آيزن»، بعْدها بأيّام وفد رسول

«الأفشين» برسالةٍ مفادها أنَّ الجيش انتصر وهزم الجيش البيزنطي ودخل «آيزن» وعسكر، لكنَّ «توفيل» تمكّن مِنْ الهرب إلى «القسطنطينيّة»، فأرسلتُ إلى «الأفشين» أنْ يرجع ويلتقي ببقيّة الجيش في «أنقرة»، ومِنْ ثمَّ لنا عودٌ إلَى «توفيل».

جعفرُ بنْ أبي الحافظ 248 هـ

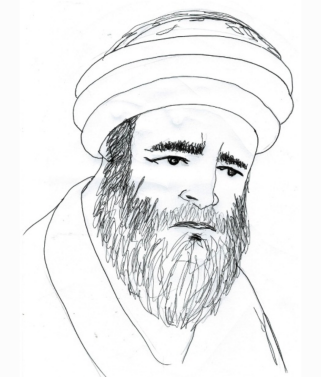

قضيا وقتهما يتحاوران دون أنْ يدركهما الصّمت، كأنّهما وجدا ألفةً في اللّقاء فاستطابا، بلْ كأنّما كانا علَى موعدٍ انتظراه ليفضّا عقليهما بعضهما ببعض، جلست بينهما وإنْ لمْ أفهم معظم ما يتجادلان فيه ويبديان الرّأي، لا الإمام «زيد» ولا صاحبي «أبو عيسى» كانا يكترثان لوجودي، شغفهما بتقليب المسائل الفقهية والأقوال في الحديث وإبداء أرجحيات ما ذهب إليه الفقهاء والعلماء كانوا أجدى وأقوى من أنْ ينتبها لشيءٍ آخر حتّى وإنْ كان

يجلس إليهما!

من حينٍ لآخر أقوم على إسعافهما بالطّعام والشّراب معاونةً لخادم الإمام «زيد» ثمّ سرعان ما أجدني أجلس أستمع لما يتداولان، انقضى اللّيل وطلع النّهار وانقضى بدوره، لم ينم أحدهما، وسهرتُ معهما ولمْ أكنْ في حاجةٍ للنّوم أيضًا، أردتُ أنْ أعثر علَى ركيزةٍ في كلامهما تُمكّنني من استيعاب ما يقولان، وبعْد مشقّة راحتْ بعض الالتباسات تنجلي، عرفتُ أنّهما يفنّدان الأحاديث الموضوع منها والضّعيف ويحلّلان درجات إسناد بعضها، بدتْ على وجهيهما السّعادة، وكان صاحبي كلّ فينة يطالعني بعينيه ثمّ يربّت على منكبي ويقول للإمام «زيد»:

-وهذا صاحبي «جعفر» الذي اصطفاه الله لي.

عقب ليلتين، وكنّا أوشكنا على الرّحيل، لمْ يكن «أبو عيسى» قد اكتفى من حديث الإمام «زيد»، غير أنّه مضطرٌّ للسّفر، على غير عجالةٍ ولا إسراعٍ، إنّما رحيلُنا حتميّ مهما انقضتْ ليالٍ في مقام الإمام «زيد».

وبينما نعدُّ نفسينا ونلملم حاجاتنا، استوقفَ الإمام «زيد» صاحبي «أبا عيسى»، وضع يدَه على كتفِه ثمَّ ضمّ أصابعَه عليها، تمتم:

-ليس يبدو إلّا أنّكَ جئتني لهذا الأمر!

-أيُّ أمرٍ يا إمام؟!

واستدار لي ببصرِه كأنّه يشركني استفهامه، ابتسم الإمام «زيد» لمّا وجد الحيرة على وجه «أبي عيسى»، وأكمل:

-ما أخفيته لسبعين عامًا ويزيد!

ثمَّ تنهّد:

-إنَّ الأيّام تجري والأسرار لا بدّ أنْ تورّث.

-أيُّ أسرارٍ يا مولانا؟!

-أيعيش المرءُ بلا سرٍّ؟!

وأضاف:

-وأنتَ حافظٌ للسرّ ببركةِ حفظكَ لكتابِ الله يا «أبا عيسى».

ودسَّ يدَه في صدره وأخرَج مفتاحًا نحاسيًا كبيرًا، نظر إليه وقال:

-علَى أيّة حالٍ لقْد أوشك أجلي وهاك سرّي.

واستدار إلى غرفةٍ صغيرةٍ على جانبٍ فتح قفلها، غاب لحظاتٍ وطلع يمسك في يدِه رقعة من جلدٍ، ناولها لـ «أبي عيسى» واستطرد:

-انظر.

كانتْ عينا «أبي عيسى» قدْ بدأتا تجحظان وهو يقرأ بعْد أن بسمل، شفتاه بدورهما بدأتا ترتعشان، قال وأنفاسُه تتهدّج:

-بالله أصحيحٌ هذا القول؟!

-هذا سرّي يا «أبا عيسى»، ورّثه ولا تشعِه، فيه فتنة إذا شيع، والمسلمون لن يقاوموا مثْل هذه الفتنة في مثْل هذا الأوان.

المُعتَصْمُ بالله بنْ الرّشيد أنقرة - 223 هـ

دخل الجيشُ «أنقرة»، أقدام الخيول تقلّب ضفّة النّهر الأحمر الذي يحدّ شرق المدينة، الضّبابُ يرتعش في الأفق حول السّهول والهضاب المكسوة بحقول الحبوب، ظلّت القوّات تسير وسط غابات من أشجار الصّنوبر والنبق والصّفصاف، بعْد قليلٍ من مسيرنا هبطت أمطارٌ خفيفةٌ سرعان ما انقطعتْ، وفيما نلج إلى قلب المدينة بعْد أيّامٍ مِنْ المسير كانتْ أقسام الجيش المختلفة

تلتقي ببعضها البعض وتلتحم، وبدت المدينة خربة، عندما ترامت أنباءُ دحر جيش الرّوم وفرار «توفيل» خرج أهل «أنقرة» خوفًا وتحصّنوا بالمُدن المجاورة، لمْ يكنْ أحدٌ في استقبالنا، تركوا لنا المدينة، عسكرنا وتزوّدنا بمتاعها وخيراتها، كيما نستكمل المسيرة إلى «عمّوريّة».

أحسستُ بالشّفقة على أهل «أنقرة» الذين تركوا متاعهم وأعمالهم وبيوتهم وحوانيتهم التي ظلّت أكثريتها مفتوحة، وهربوا، أولا يعرفون جيش المسلمين؟! ما الذي ترامى عن أخلاقنا؟! أكنّا سنتبيحهم؟! أحسستُ أنّي لمْ أنتصر على الرّوم انتصارًا مرضيًا أيضًا، لن يكتمل الانتصار إلّا بدخول «عمّوريّة» وما أقربه!

لمْ يبق في دروب المدينة وأزقّتها إلّا بعض الشحّاذين والمعوزين ممّن لا يحفلون بمصائرهم، هم في النّهاية مهدرون، إمّا مِنْ الرّوم وإمّا مِنْ المسلمين، كأنّهم وفرّوا عناء الارتحال بين المدن فالمصير معلومٌ!

لكنّنا لمْ نترك هؤلاء، مَنْ كان علَى قوّةٍ وصحّةٍ ضممتُه للجيش جنديًّا، والآخرون يخدمون، منحناهم الملابس والطّعام والشّراب فكسوناهم وامتلأت بطونهم وهو جوهر الانتماء، «بلَى أنتم أهل فضلٍ وكرمٍ»، هكذا همهم أحدُهم وهو مقعٍ على الطّعام في نهمٍ يسدّ جوعه، قلتُ:

-هرب «توفيل» وترككم!

انقطعتْ أخبار «توفيل» عبر الأيّام التي عسكرنا فيها في «أنقرة»، لمْ يعُد مكانُه معروفًا وقدْ ارتحل من «القسطنطينيّة»، وشعرتُ أنّه يعُد جيشه من جديد ويتأهّب لمعركةٍ أخرى، وفي اليوم العشرين من تمركزنا في «أنقرة» دخل إلى مقرّي أحد قادة الجيش، أخبرني أنَّ «توفيل» أرسل مبعوثًا من طرفه برسالة، سمحتُ له بالدّخول، ناولني الرّسالة، قرأتُها وانفجرتُ في الضّحك، كان «توفيل» يعتذر عنْ هجومه على «ملطيّة» وثغورها ويطلب هدنة على أنْ يُعيد الأسرى ويبني المدينة مِنْ جديد، أدركتُ أنّه في مأزقٍ وجيشُه لمْ يستعدّ بعْد، لكنّي عزمتُ على إنهاء أمر الرّوم للأبد.

قلتُ للرّسول:

-يبدو أنَّ أيّامنا في «أنقرة» قدْ انقضتْ!

قال مستفهمًا:

-ما الذي يعنيه هذا يا خليفة المسلمين؟!

أشرتُ إلى «معبد» بطرف عيني فدنا، قلتُ:

-أنتَ أهون منْ أنْ يقتلك أحد جنودي، سيذبحك غلامي.

ارتاع الرّسول، لكنَّ «معبد» سحب سكّينه وفي لمح البصر قفز نحو الرّسول وجزَّ رأسَه، أمرتُ أحد الحرّاس أنْ يربط رأسَه بالفرس التي قدم عليها، وأنْ يترك جسمه للنّسور، علَى أنْ تعود الفرس إلى أصحابها برأسٍ مفصولةٍ دون جسمٍ، وهكذا يصل ردّي إلى «توفيل».

عيسَى بن سَورَة بن الضّحّاك بوغ - 222 هـ

لمْ ينقطع حلمي بولدي «محمّد».

كنتُ أراه مرفرفًا في الأفق يحمل لفائفَ الكتب على كتفيه وهو مبتسم.

صوتُه كالملاكِ وهو يقول: «صبرًا يا أبي سيكون لنا لقاءٌ في القريب».

مِنْ بعْد فقدِه كنتُ أتدثّر بالأمل واسترجاع الذّكريات القديمة كأنّما أتزوّد، أقضي النّهار في التأسّي بينما أقرأ القرآن، واللّيلَ في البكاء وأنا ساجدٌ أصلّي، يزورني كلّ ليلةٍ في الحلم، «آه يا بني ما هذا المصير؟!».

ما أكثر ما أرّقني البكاء على «محمّد»! كانت الفتاة تجدني مقعيًا

أنتحب فتواسيني بكلماتٍ عاجزةٍ، تجهّز لي الطّعام وتسقيني لكنَّ روحي لمْ تكنْ قادرة علَى التقوّت، لا حيلة لي، أنا فاقد كلّ شيءٍ حتّى القادم من حياتي، هل أنتظر أنْ يعود لي «محمّد»؟! هل يُجدي الانتظار؟!

وفي اللّحظات التي يخالجني فيها صوت «محمّد» أنطلق إلَى خارج البيت كأنّ بي سأجده واقفًا هناك فاتحًا ذراعيه، أنطلق واثبًا نحو الأمل، لكنّي سرعان ما أقبض علَى الفارق بين الوهم والحقيقة، الوهم في رأسي إنّما الحقيقة ها هي أمام بصري، لا أحد هناك، لا أحد هناك غير الخواء، صرير الحشرات، المشاهد القديمة وأنا أرى بعينيّ فناء كلّ شيء، الحقيقة التي صبغتْ تراب «بوغ»، الحريق أمام عينيّ والدّماء.

في هذه اللّحظات كنتُ كثيرًا ما أذهب إلَى المقابر القديمة، المقابر التي دفنّا فيها أهل المدينة، رجالًا ونساءً وأطفالًا، نفس الحُفر التي تمّ إخصاء الأولاد بداخلها، نفس الصّلبان التي علّقونا عليها، نفس الحزن، كأنَّ لا شيءَ تبدّل!

الفتاة تتزيّن أمام المرآة، أقول في نفسي: «وما جدوى التزيّن!»، أتركها وألتجأ لغرفتي، لبكائي، لحسرتي.

ساعات تفصلني عن صلاة الفجر، سأحاول النّعاس هذه اللّيلة، سأحاول ألّا أبكي بينما أنام، سأحلم بك يا «محمّد» كعادتي كلّما نعستُ، لكنّي لنْ أبكيكَ، لعلّي ألقاكَ إذا توقّفت الدّموع!

بأناملي أمسحُ الدّموع رغم ذلك، أفتحُ عينيّ، الدّموع ساخنة، لكنّها ليست دموعي، أفتحُ عينيّ أكثر، أهبُّ فزعًا، الفتاةُ علَى رأسي تسحّ الدّموع، قريبة من وجهي، إنّها تحدّق بعينيها فيَّ، ويدها تتحسّس صدري، أبعدها دونما رفق فتنهنه، أحاول أنْ ألتمس لها عذرًا، لكنَّ صوتي لا يطلع، أزدرد ريقي، تسقط عليَّ بإصرارٍ، تحيطني بذراعيها، أتلجّم، أنتِ في عمر «محمّد» وربّما أصغر، أعتدل، تتشبّث بخصري، يستحوذ عليَّ الغضب، وفيما أحاول أنْ أنهرها أشعر بالشّفقة مِنْ شدّة بكائِها، ألمّها في حضني، الأمرُ محيّر، رغبتها عكس رغبتي، إنَّ رغبتي رغبة أب يريد أنْ يواسي ابنته، ورغبتها جعلت جسمها فائرًا، سخونته أصابتني بقشعريرة، قلتُ وأنا أتنهّد:

-استعيذي بالله يا ابنتي.

لكنَّ صوتَها خافتٌ، صوتُها ينشج، البكاءُ ضيّعه، لمْ أفهم ما تقول، أبعدتها عنّي ونظرتُ في عينيها، غير أنّها التحمتْ بصدري واستمرّتْ في النّحيب، زفرتُ، وبسملتُ، وفيما أقرأ علَى رأسها القرآن أذنَّ الفجرُ، قلتُ لها:

-هيّا نصلّي.

قامتْ تتوضأ، وقبْل أنْ تُنهي وضوءها سمعتُ الجلبة، كانتْ أقدامُ خيولٍ وصهيلٌ وهمهمات، أصختُ السّمع، بعْد قليلٍ كانتْ طرقات علَى باب البيت، فزعتُ أفتح البابَ، في الخارج جنودٌ بسيوفهم وخيولهم، قليلون، كانوا جند الوالي، رآني قائدُهم فصاح:

-مَنْ أنتَ؟!

-أنا صاحبُ هذا البيت!

ومن ورائي ظهرت الفتاةُ، شاهدت الجنودَ فصرختْ مرتعبة، شاهدها القائدُ فابتسم بظفرٍ، اقتحمَ جنديان البيت عنوةً بعْد أنْ دفعني أحدهما فأسقطني أرضًا، تمكّنا مِنْ الفتاة، فقلتُ في هلعٍ:

-أيُّ جرمٍ اقترفتْ هذه الفتاة الصّغيرة؟!

عقد القائدُ حاجبيه، وتطلّع في جنودِه ثمَّ أعاد بصرَه نحوي وتمتم:

-فتاة!

وتملّى فيها وهو يضيف:

-إنّه غلامٌ هاربٌ مِنْ قصر الوالي!

محمّد بنْ عيسَى 248 هـ

ابتسمَ الإمامُ «زيد» عندما حيّرني كلامُه، وقال:

-ما أخفيتهُ لسبعين عامًا ويزيد!

ثمَّ تنهّد:

-إنَّ الأيّام تجري والأسرار لا بدّ أنْ تورّث، وليس أمينًا أكثر منكَ يا «أبا عيسى» كي يرث سرّي.

-أيُّ أسرارٍ يا مولانا؟!

-أيعيش المرءُ بلا سرٍّ؟!

وأضاف:

-وأنتَ حافظٌ للسرّ ببركةِ حفظكَ لكتابِ الله يا «أبا عيسى».

ودسَّ يدَه في صدره وأخرَج مفتاحًا نحاسيًا كبيرًا، نظر إليه وقال:

-علَى أيّة حالٍ لقْد أوشك أجلي وهاك سرّي.

واستدار إلى غرفةٍ صغيرةٍ على جانبٍ فتح قفلها، غاب لحظاتٍ وطلع يمسك في يدِه رقعة من جلدٍ، ناولها لي واستطرد:

-انظر.

بسملتُ، واضطربَ صدري فيما أقرأ ما وردَ في اللّفافة، لمْ أستطع السّيطرة علَى أعصابي وصحتُ:

-بالله أصحيحٌ هذا القول يا إمام؟!

-هذا سرّي يا «أبا عيسى»، ورّثه ولا تشعِه، فيه فتنة إذا شيع، والمسلمون لن يقاوموا مثْل هذه الفتنة في مثْل هذا الأوان.

ضممتُ إليَّ اللّفافة ودلفتُ إلَى الغرفةِ الجانبيّة بالإمام «زيد»، أغلقَ علينا بابَها، وضعَ راحتيه فوق كتفيّ وقال:

-إنَّ سرّي هذا ثقيلٌ عليَّ يا «أبا عيسى»، احمله عنّي.

-إنَّه فتحٌ فتحه الله عليكَ!

-لكنَّ بعضَ الفتوحات التي يمنَّ الله علينا بها فتنة كُبرى يا «أبا عيسى»!

-أيُّ فتنةٍ؟! إنَّ سرَّكَ نصرةٌ لدين الله!

-لا يا «أبا عيسى»، كفى الله المؤمنين شرَّ القتال.

-قتال!

-بلَى، إنَّ المسلمين اعتصموا اليومَ بكلَ ما نهى الله عنه!

-إنّما..

قاطعني:

-هل ستحفظ السرَّ؟!

-إنَّ الرّقعة فيها آيات من قرآننا الذي فُقدَ بعضُه في الزّمن الأوّل! فكيف به سرٌّ؟! أوليس لنا أنْ نكشف عنه لأمّتنا مِنْ باب العلم؟! هل نكتم علمَ الله يا إمام؟!

-نعم، لأنَّ وقتها ستحدث الفتنة ويتزعزع المسلمون علَى زعزعتهم وقلّة إيمانِهم.

لمْ يتركني أغادر قبْل أنْ أعاهده على كتم السرّ، عاهدتُه، وحملتُ سرَّه معي، كان سرُّه أعظمَ ما حدث لي في حياةِ السّعي.

المُعتَصْمُ بالله بنْ الرّشيد عمّوريّة - 223 هـ

بدتْ جحافلُ الجيش علَى أهبّتها بعْد أنْ تجدّد عزمُها خلال الأيّام التي قضيناها في «أنقرة» دون قتالٍ أو جهد وقدْ هجعتْ سيوفهم، سمحتُ للجنود أنْ يباشروا كلَّ رغباتِهم الحبيسة في السّبايا والغلمان كي تستقوي أجسامُهم وتستعدّ لدخول «عمّوريّة» في أوّج نشاطها.

خرجنا من «أنقرة» جنوبًا نكسح الرّمال ونطوي الصّحاري قُربًا

مِنْ «عمّوريّة»، مضتْ بنا الطّرق إلَى وادٍ تحدّه مِنْ جناحيه سلسلةٌ جبالٍ، لمْ يكنْ أمامنا غير عبور هذا الوادي نفاذًا إلَى «عمّوريّة»، بلغه «أشناس» قبلي بيومٍ وأرسلَ لي متخوّفًا، ظنُّه سيحاصرنا «توفيل» في هذا الوادي وهو أعلم بتضاريس أمصاره، كنتُ أعرف أنَّ جيش «توفيل» قدْ تشرذم وقُتل بعضُه علَى أيادينا وفرَّ بعضُه الآخر خشية بطشنا، طمأنتُ «أشناس» وأبلغته أنْ يعسكر بمدخل الوادي ولا يتحرّك علَى أنْ نجاوزه بكلِّ كتائب الجيش مجتمعة.

وصلتُ إلَى «أشناس» وبرفقتي الجيش كلّه عدا كتائب «الأفشين»، تحرّزتُ وأمهلتُه ألّا يتقدّم نحونا إلّا أنْ أخبره، فتركتُه حمايةً وتحسّبًا والتحقتُ بجيش «أشناس».

أرسلتُ قسمًا متفرّقًا مِنْ الجنودِ استكشافًا فيما وراء سلاسل الجبال، تمركزنا على فمّ الوادي وخيّمنا بانتظار أنْ يعود الجنودُ اطمئنانًا.

المنجّمون يقرؤون الطّوالعَ في خيمتي، جميعُهم يباركون المسير إلَى «عمّوريّة»، يقولون إنَّ النّجوم تتّجه معنا إليها، والنّصرُ حليفنا بإذن الله.

غاب المستكشفون ليلتين، لمْ يساورني خلالهما أيُّ خوفٍ، كان لديّ يقينٌ بأنَّ هذه الحرب مباركة وانتصارُنا فيها حتميّ، ولكي تطمئنَ أفئدةُ الجنودِ أطلقتُ لهم الشّعر وتركتهم للسّمر والشّرب ومضاجعة النّساء في الخيام.

في ليلتي السّمرِ دقّت الدّفوفُ ورقصت النّسوة وأنشدَ الشّعراء وتغنّى المطربون بالنّصر، دارتْ قناني النّبيذ في الخيام، وأوكلتُ إلَى «معبد» أنْ يُسرّي عنّي.

بعْد أنْ لاح الفجر في اليوم الثّالث هبط لي المستكشفون، أبلغوني أنَّ السّهول نظيفة مِنْ جُند «توفيل»، وأنَّ لا خطر علينا مِنْ أيِّ حصارٍ إذا عبرنا الوادي، فأرسلتُ إلَى «الأفشين» كي يلحق بالجيش.

انحدرنا بالخيولِ وأجنحةِ الجيش لنعبر الوادي، كنّا نتحرّك علَى مهلٍ، الكتائبُ يتقدّمها البّواقون والأسرى المدرّعون بدروعِ الجيش احتياطًا، ومحامل الجواري والسّبايا، ثمَّ حاملوا الألويةِ، وفيما ورائِهم تسير كتائبُ المُشاة، علَى الأجنابِ أجنحةُ رماة السّهام والخيّالة الفُرسان.

بعْد مسير ساعات في الوادي شعرتُ بالسّكون المباغت، كانتْ كتيبتي تتحرّك فارسًا فارسًا في صفوف متعرّجة في وسط الجيش، كنّا نرتدي الدّروع والخوذات، وبينما تبدو بشائر القُرب مِنْ «عمّوريّة» ساورتني الشّكوك، إنْ خلا الوادي من الحركة فمعناه أنَّ ثمّة خطرًا، خاصّة إذا كنّا نجهل طبيعة هذا الوادي وكمائنه!

وقدْ أصابَ تخميني!

الشّمسُ ساخنةٌ في هذا التّوقيت، إنّها أمام أعيننا أيضًا، فرصةٌ عظيمةٌ لمَنْ أراد أنْ يباغتنا، وهو ما حدث.

بدأتْ فِرقٌ مِنْ جيشِ الرّوم تتسلّل نحونا عبر مدقّات أخفتها الرّمالُ والصّخورُ، فوجئنا بتزايد أعدادِهم مِنْ حولِنا، انتصبتْ سيوفهم فلمعتْ والشّمسُ ضاربةٌ عليها بانعكاسات علَى أعينِنا، وحاصروا جناحيّ الكتائب مِنْ الميمنة، ولولا دروعُ المشاة الذين طاروا إلى الأجناب وصدّوا ضربات السّيوف لكان جنودُ الرّوم اقتحموا ميمنة الجيش وتمكّنوا منها.

القعقعةُ والصّليلُ والصّياحُ انتشروا في فضاءِ الوادي بصدىً كالرّعد، غير أنَّ التكبيرات كانتْ أعلى، وفيما تتبعثر صفوف جيشي كانتْ فرسي تلجُ بين عساكر الرّوم وسيفي يهبط علَى الخوذات يشقّها.

لكنّهم تغلغلوا إلَى قلبِ الجيش في لحظةِ التشتّت الفاصلة، وضربتُ عينيّ لأعلى ورأيتُ حملة سهامٍ يستعدّون للرّمي علينا مِنْ أعلى التّلال الصّخرية، صحتُ في الجنود:

-احتموا مِنْ السّهام القادمة!

ارتفعتْ دروع الجنّود وتكسّرتْ عليها السّهامُ التي انهالتْ في لحظةٍ مِنْ فوقنا كالمطرِ، فطاشتْ.

تلاحم الجيشان كذوبانِ الملح في الماء، طيحَ بالرّقاب وطارتْ الرّؤوسُ، انفجرت الدّماءُ وانتثرتْ علَى الدّروعِ، وفيما بدا أنّهم تكالبوا علينا مِنْ أكثر مِنْ جهةٍ لمْ نتراجع وكنّا نقاوم، الغلبةُ لنا معْ القليل مِنْ الثّبات، أعدادُنا غفيرةٌ وتمكّنهم مِنْ اقتحامِنا لأنّنا بوغتنا لا أكثر.

وبينما تدكُّ الرّماحُ أجسادَ الرّوم التي تُحاصرنا، كان «الأفشين» قدْ التئم بجيشه معنا مِنْ الجانبين، ازداد تماسكنا، سيوفنا لمْ

تُخطيء رقابًا، انتظمَ الجيشُ علَى مقدارِ جُندِه ثانيةً، وطوّقنا عساكرَ الرّوم مِنْ جميع الجهات، وصنعنا حولهم دائرةً، فوجئوا بها، ارتبكوا، نشدوا معاونة بقيّتهم المحتمين بأعالي التّلال، لكنَّ

قسمًا مِنْ حملةِ السّهام كانوا قدْ أسقطوا معظمهم.

الصّفوفُ تداخلتْ بعضها ببعض مرّةً أخرى وتناغموا، طعنات السّيوف أسقطتهم تحت أقدام خيولنا، احتشدنا حولهم علَى سرعةٍ، وكلبشنا صفوفَهم وحاصرناها، فاستسلموا عندما أيقنوا من استحالة الهرب.

صفّوا الأسرى بالسّلاسلِ صفوفًا متجاورة، هبطتُ مِنْ علَى الفرس ودنوتُ مِنْ أحدِهم، وضعتُ سيفي علَى رقبتِه:

-أين ملكَكَ؟

لمْ يجبني وأخفض بصرَه أرضًا، أطحتُ برأسِه واستدرتُ إلَى غيرِه، همهم:

-في «القسطنطينيّة».

تنهّدتُ، ظننتُه سيعسكر بجيشه في «عمّوريّة» زودًا عنها وحمايةً لها.

-لقْد ضحّى بكم واختبأ!

وفصلتُ رأسَه عنْ جسدِه، أمرتْ الجنود صائحًا:

-لا نريد أسرى مِنْ هذه المعركة!

ومرّتْ أنصالُ سيوفِنا في رقابِهم، لا جدوى مِنْ أنْ نغنم بأسرى ونحن علَى مشارف «عمّوريّة» لا يفصل بيننا وبين النّصر إلّا معركةٌ واحدة، لسنا في حاجةٍ لأسرى.

كنّا فقط في حاجةٍ لأنْ ندفن موتانا ونصلّي عليهم في هذا الوادي قبْل أنْ نبلغ أسوار «عمّوريّة».

مررتُ ببصري علَى جثامين الجنود متشهّدًا، تسنّدتُ علَى سيفي وقلتُ لنفسي في أسىً: «أتستحق «عمّوريّة» كلَّ هذه الدّماء؟! يا لها مِنْ ضريبةٍ! علَى أيّة حالٍ التّواريخ لا تعترف بالهزائم، إنَّ

المنتصرين باقون رغم كلّ شيءٍ، وأنا باقٍ».

المراجع

1. الإمام الترمذي «الحافظ الناقد فقيه السلف وجامع السنن»- إياد خالد الطباع- دار القلم دمشق- الطبعة الأولى 2001
2. الرحلة في طلب الحديث- الخطيب البغدادي- سلسلة روائع تراثنا الإسلامي- الطبعة الأولى 1975
3. جامع الترمذي- أبو عيسى الترمذي- بيت الأفكار الدولية للنشر
4. أبو تمام شاعر الخليفة المعتصم بالله- عمر فرّوخ- مطبعة الكشّاف بيروت- الطبعة الأولى 1935
5. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم- المقدسي المعروف بالبشاري- مطبعة بريل- الطبعة الأولى 1909
6. أحوال نصارى بغداد في عهد الخلافة العباسية- رفائيل بابو إسحق- مطبعة شفيق بغداد- الطبعة الأولى 1960
7. الأعلام- خير الله الزركلي- المجلد الأول- دار العلم للملايين بيروت- الطبعة السابعة 1986
8. الإمبراطورية البيزنطية والدولة الإسلامية- إبراهيم أحمد العدوي- مكتبة نهضة مصر بالفجالة-
9. الإمبراطورية البيزنطية- نورمان بينز- ترجمة حسين مؤنس ومحمود يوسف زايد- مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر- الطبعة الأولى 1950
10. البداية والنهاية- الجزء الأول- الامام ابن كثير- وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية قطر- طبعة خاصة 2015
11. التصوف في الدولة العباسية- رسالة ماستر- دوارة هاجر- جامعة 8 ماي الجزائر- 2015
12. الحرب بين الروم والفرس في ضوء سورة الروم- علي محمد عودة الغامدي- مكتبة الملك فهد الوطنية- الطبعة الأولى 2015
13. الخلافة العباسية في عهد تسلط البويهيين- وفاء محمد علي- المكتب الجامعي الحديث- الطبعة الأولى 1991
14. الدولة الإسلامية في ظل الخلافة العباسية- محمد زنيبر- دار النشر المغربية- الطبعة الأولى 1985
15. الدولة العباسية- الجزء الأول- محمود شاكر- المكتب الإسلامي- الطبعة السادسة 2000
16. الدولة العباسية- الجزء الثاني- محمود شاكر- المكتب الإسلامي- الطبعة السادسة 2000
17. الدولة العباسية- الشيخ محمد الخضري بك- مؤسسة المختار- الطبعة الأولى 2003
18. بغداد في تاريخ الخلافة العباسية- ابن طيفور- مكتبة المعارف بيروت- الطبعة الأولى 19681
19. تاريخ الطبري- الإمام الطبري
20. تاريخ الخلافة الأموية والعباسية- رفيق المهايني- مطبعة دار اليقظة العربية
21. تاريخ الخلفاء- الإمام السيوطي- دار ابن حزم- الطبعة الأولى 2003
22. تذكرة الحفّاظ- الجزء الأول- الإمام الذهبي- دار الكتب العلمية بيروت
23. سنن الترمذي- الإمام أبو عيسى الترمذي- دار التأصيل- الطبعة الثانية 2016
24. ظُهر الإسلام-أحمد أمين- لجنة التأليف والترجمة والنشر- الطبعة الأولى 1946
25. في التذوق الجمالي لقصيدة أبي تمام الطائي في فتح عمورية- محمد علي أبو حمدة- دار الجيل بيروت- الطبعة الأولى 1984